الشيوعية

وإن غَابَ أو (غُيِّبَ) رسمها

تأليف
السيد محمَّد علي العلوي

هوية الكتاب:

* الكتاب: الشيوعية.. وإن غَابَ أو (غُيِّبَ) رسمها.
* المؤلف: السيد محمد علي العلويز
* الطبعة: الأولى ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م.
* التنسيق والإخراج الفني: الكليم للتصميم:

نقال: **+973 36778827**

البريد الإلكتروني: **mohd.he@gmail.com**

الشيوعية

وإن غَابَ أو (غُيِّبَ) رسمها

تأليف

السيد محمَّد علي العلوي

الإهداء

الإهداء

كنت معنا..

نقرأ لبعضنا البعض.. نُقَيِّمُ وننتقد، ثُمَّ نُقوِّمُ وننشر

حملنا (ارتقاء) حُلمًا منذ اليوم الأوَّل..

تعاهدنا.. فكَّرنا.. تناقشنا.. عمِلنا..

وفجأة.. رحلتَ

حبيبي أبا مقداد[1]..

إلى روحك الطاهرة، أهدي فكرًا نسجنا خيوطه معًا

تقبل مني هذه الصفحات ولا تنساني داعيًا بين يدي ساداتنا من آل بيت محمَّد ﷺ.

أخوك/ العلوي

١- الأستاذ الشاعر الشاب محمَّد عبد النبي المخوضر، من مؤسسي (ارتقاء)، توفاه الله تعالى إثر حادث سير أليم، مساء الأحد ٣١ مايو ٢٠١٥ ميلادية.

المقال 1

مقدَّمة

يتَّخِذُ الحضورُ والأثرُ الثقافيان في المجتمعات شكلين رئيسيين، فالأول هو الامتزاج الطبيعي بين الوارد والقائم، والمُحَدِّدُ له مستوى القوة الثقافية في المجتمع، فالرجل الغربي لن يترك البنطال والقميص –مثلًا– تأثرًا بثقافة الثوب الخليجي، كما وإنَّه باقٍ على لغته وإنْ دخل عليه مليون عربي دفعة واحدة، وعلى العكس تمامًا لو نظرنا إلى سرعة التأثُّر عند العربي بالثقافة الغربية، وهذا راجع –في نظري– إلى مستوى القوة الثقافية وحال القناعة عند الشعوب.

وعلى أيَّةِ حال، فالغربي لا يريد للعربي لبس البنطال والقميص، ولكنَّ هذا الأخير يتأثَّر من تلقاء نفسه، وهو الشكل الأول للحضور والأثر الثقافي في المجتمعات، وقد أسميته: (الامتزاج الطبيعي بين الوارد والقائم)، وأقصد بمفردة (الطبيعي): انتفاء القوَّة القاصدة للتغيير، أو فلنقل: إرادة التغيير.

وأمَّا الشكل الثاني، فهو التغيير الثقافي المقصود، وأسَمِّيه: طغيان الوارد على القائم عن قصدٍ وإرادةٍ.

في الشكلين، فإنَّ المجتمعات في حاجة إلى مراجعات ثقافية باستمرار قياسًا وبِناءً على ما تمتلك من أصول وقواعد ثقافية عامة تشمل الدين والعادات والتقاليد والأعراف وما شابه، والقصد من المراجعة وتجديدها إنَّما هو للأخذ بما يوافق من الواردات وصَدِّ ما يخالف منها، إضافة إلى ما في ذلك من وقوف على القوَّة الثقافية للمجتمع وتقييم ما تحتاجه من تنمية ومعالجة وما نحو ذلك.

توصلتُ مؤخرًا لبعض القناعات في الشأن الثقافي وتوابعِه من سلوكٍ وفكرٍ ومواقف، وقد وقفتُ في ذلك على ما يحتاج لمراجعات علمية جادَّة؛ وما لفت نظري أنَّ للنظرية الماركسية الشيوعية -أصلًا وفروعًا- حضورٌ في عُمقِنا الثقافي، هذا وإنْ كان رسمُ الشُيوعيَّة قد غاب أو (غُيِّبَ) لأسباب هدفية أو تنظيمية معيَّنة!

وفي مرحلة من مراحل البحث اتخذتُ من بيان الحزب الشيوعي (١٨٤٨م) أساسًا في مجموعة التحليلات والمقارنات، وعلى إثر ذلك أردتُ طرحَ ما توصَّلتُ إليه على القارئ الكريم، وكان التردُّد بين أنْ أنتظم في سلسلة مقالات ثم أُتبِعُها بنصِّ البيان أو العكس، وبالمشاورة مع الأساتذة في (مدونة ارتقاء)[1] استقرَّ الأمرُ على إيراد مقدَّمةٍ يليها نَصُّ بيان الحزب الشيوعي، ومن بعد ذلك تأتي المقالات تِباعًا، والسبب الأصل أنْ نتجنَّب الإيحاءات والإلقاءات النفسية التي قد تؤثِّر على الذوق الفكري عند المتلقِّي.

وبعد أن تمَّ نشر المقالات في المدونة المذكورة، اقترح البعضُ أن تُجمع في كِتَابٍ توثيقًا وحفظًا لها، فكانت هذه الأوراق بين دفتين أضعها تحت أصابع العقول تُقلِّبها بتدبُّر وتأمُّل، لعلَّها تُحدثُ مما يُرتجى أمرًا.

(إلفاتَةٌ وأخرى)

الأولى:

عندما أتناول موضوعًا بالبحث والتتبع، فإنني لا أتناوله بِنَفَسِ الضدِّ، فكوني أنتَّمي إلى توجُّه فكري معين، لا يعني فقدان الموضوعية في مناقشة الأفكار الأخرى، وسواءٌ كان الآخرُ نَظَرًا شيوعيًّا أو بوذيًّا أو غير ذلك، فهناك جهدٌ بُذِل ونظرٌ استُفرِغ، وفي مقام المناقشة لا مجال لأيِّ حكم آيديولوجي خارج إطار المناقشة الموضوعية؛ فما هو بالنسبة لي (آيديولوجيًّا) ضلالٌ وزيغ، فأنَّا بالنسبة له (آيديولوجيًّا) ضلال وزيغ أيضًا.

١- (ارتقاء) مدونة الكترونية أسَّسها مجموعة من الكتَّاب منهم المؤلف ضمن مشروع ثقافي كبير.
الرابط الالكتروني للمدونة: http: //www.ertiqabh.com

ولذلك فإنَّ الاستعراض والمناقشة حالة من فتح الآفاق أمام تناولات موضوعية قد تكون جديدة، يرتجى منها تقريب الإنسان من الأصوب.

الثانية:

يعتمد هضمُ موضوع الكتاب، على قراءة البيان واستيعاب مفرادته وفكرته العامَّة، وقد يستدعي هذا الأمر قراءته لأكثر من مرَّة، إضافة إلى شيء من التتبع لمفصليَّاته، وهذا متروكٌ لهمَّة القارئ ومدى عزمه وإيجابيته في فهم موضوع الكتاب كما هو، ودون إسقاطات تستند إلى الماورائيات والمسبقات.

ولكنَّ هذا لا يعني عدم اعتمادي في بعض مراحل النظر على أُسسي الثقافية وثوابتي الفكرية كمسلم شيعي إثني عشري؛ فالصدق مع القارئ الكريم فرع الصدق مع النفس.

وعلى أيَّة حال، فقد رتَّبت طرح الأفكار في ثلاث مراحل:

مرحلة البيان الشيوعي:

وفي هذه المرحلة عمدتُ إلى تسليط الضوء على العمق الأدبي في النظرية الشيوعية، وقد حاولت ما استطعت تجنب التعليقات الخاصة أو ما شابه، مكتفيًا بالتوضيح على طريق الانتهاء في هذه المرحلة إلى صورة واضحة عن الخطوط العامة للطرحة الشيوعية.

مرحلة تفكيك المفاهيم الشيوعية:

وكان شغلي في هذه المرحلة على تحليل الرؤى الشيوعية ومناقشتها بما يناسب المقام.

مرحلة التركيب:

وفيها ركزتُ على معالجة موضوع المقالات بإعمال الفكر في النصوص الشرعية

من الثقلين المقدَّسين (القرآن والعترة).

هذا، ومن الله تعالى أستمدُّ العون دائمًا وأبدًا، ولا سبيل إلى ذلك، إلَّا بالوسيلة إليه، محمد وآله الطاهرين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

السيد محمد علي العلوي

٢٢ جمادى الأولى ١٤٣٧ هجرية

قرية عراد – البحرين

بيان الحزب الشيوعي[1]
كارل ماركس[2] وفريدريك انجلس[3]
ـ ١٨٤٨ ـ

شبحٌ ينتاب أوروبا.. شبح الشيوعية..

ضد هذا الشبح اتَّحدتْ في طِرادٍ رهيب قوى أوروبا العجوز كلها: البابا والقيصر مترنيخ وغيزو، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني.

فأيُّ حزب معارض لم يتَّهمه خصومُه في السلطة بالشيوعية؟

وأيُّ حزب معارض لم يرد بدوره، تهمةَ الشيوعيَّة الشائنة، إلى أقسام المعارضة الأكثر تقدميَّة، وإلى خصومه الرجعيين؟

ومن هذا الواقع يُستنتج أمران:

إنَّ قوى أوروبا كلها أصبحت تعترف بالشيوعيَّة كقوَّة.

١- عن الموسوعة الإلكترونية (ويكيبيديا): الشيوعية مصطلح يشير إلى مجموعة أفكار في التنظيم السياسي والمجتمعي مبنية على الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج في الإقتصاد؛ تؤدي بحسب منظريها لإنهاء الطبقية الإجتماعية ولتغيّر مجتمعي يؤدي لإنتفاء الحاجة للمال ومنظومة الدولة.

٢- عن الموسوعة الالكترونية (ويكيبيديا): فيلسوف ألماني، واقتصادي، وعالم اجتماع، ومؤرخ، وصحفي واشتراكي ثوري (٥ مايو ١٨١٨م - ١٤ مارس ١٨٨٣م). لعبت أفكاره دورًا هامًّا في تأسيس علم الاجتماع وفي تطوير الحركات الاشتراكية. واعتبر كارل أحد أعظم الاقتصاديين في التاريخ. نشر العديد من الكتب خلال حياته، أهمها بيان الحزب الشيوعي (١٨٤٨)، ورأس المال(١٨٦٧)ـ.(١٨٩٤).

٣- عن الموسوعة الالكترونية (ويكيبيديا): (٢٨ نوفمبر ١٨٢٠) في (بارمن، بروسيا) حاليًا (فوبرتال)، ألمانيا (٥ أغسطس ١٨٩٥). هو فيلسوف ورجل صناعة ألماني يُلقّب بـ(أبو النظرية الماركسية) إلى جانب كارل ماركس .اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع وكان كاتبًا ومنظِّرًا سياسيًّا وفيلسوفًا. يُعتبر أب نظرية الماركسية بالإضافة إلى كارل ماركس نفسه. في عام ١٨٤٥، نشر كتابه (حالة الطبقة العاملة في إنجلترا) اعتمادًا على ملاحظاته وأبحاثه الشخصية. في عام ١٨٤٨، أصدر مع ماركس، بيانهما المشهور والمعروف ببيان الحزب الشيوعي، والذي يسمَّى اختصارًا البيان الشيوعي .فيما بعد، ساعد كارل ماركس ماديًّا من أجل أن يكتب هذا الأخير كتابه (الرأسمال).

إنَّ الشيوعيين قد آنَ لهم أنْ يعرضوا أمام العالم كله طرق تفكيرهم، وأهدافهم، واتجاهاتهم، وأن يواجهوا خرافة شبح الشيوعيَّة ببيان من الحزب نفسه.

ولهذه الغاية إجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات، ووضعوا البيان الآتي، الذي سيصدر باللغات: الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والفلمنكية، والدانماركية.

(الفصل الأول)

برجوازيون وبروليتاريون

إنَّ تاريخ أي مجتمع حتَّى الآن، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية.

حرٌّ وعبد، نبيل وعامي، بارون وقِن، معلِّم وصانع..

وبكلمة: ظالمون ومظلومون.

في تعارض دائم، خاضوا حربًا متواصلة، تارةً معلنة وطورًا مستترة.. حربًا كانت تنتهي في كلِّ مرَّة إمَّا بتحوُّل ثوري للمجتمع كلِّه، إمَّا بهلاك كلتا الطبقتين المتصارعتين.

وفي العهود التاريخية الأولى نجِدُ في كُلِّ مكانٍ تقريبًا تقسيمًا كامِلًا للمجتمع إلى مراتب متمايزة، (نلقى) تدرُّجًا متفاوتًا للمنزلة المجتمعية.

ففي روما القديمة كان ثمَّة نبلاء، وفرسان، وعامَّة، وعبيد.. وفي القرون الوسطى، أسياد وإقطاعيون، ومقطعون، ومعلِّمون وصنَّاع، وأقنان،

وإضافة إلى ذلك نجد في كلِّ طبقة من هذه الطبقات تراتبية فارقة.

والمجتمع البرجوازي العصري، الذي قام على أنقاض المجتمع الإقطاعي لم يلغ التناحرات الطبقية، بل أحلَّ فقط محل الطبقات القديمة طبقات جديدة، وحالات اضطهاد جديدة، وأشكالًا جديدة للنضال.

غير أنَّ عصرنا، عصر البرجوازية، يتميَّز بتبسيطه التناحرات الطبقية، فالمجتمع كله ينقسم أكثر فأكثر إلى معسكرين كبيرين متعاديين، وإلى طبقتين كبيرتين متجابهتين

مباشرة: البرجوازية[1] والبروليتاريا[2].

فمِنْ أقنان القرون الوسطى تحدَّر سكان أولى البلدات، ومن هؤلاء السكَّان تكوَّنت الأصول الأولى للبرجوازية.

فاكتشاف أمريكا والطواف البحري حول إفريقيا أوجد للبرجوازية الناشئة مرتعًا جديدًا.

إنَّ سوق الهند الشرقية والصين، واستعمار أمريكا، والتبادل مع المستعمرات، وازدياد وسائل التبادل والسِّلع عمومًا، وفرَّت للتجارة والملاحة والصناعة دفعًا لم يسبق له مثيل، وبالتالي وفَّرت نموًّا سريعًا للعنصر الثوري في المجتمع الإقطاعي المتداعي.

---

١ – عن الموسوعة الالكترونية (ويكيبيديا): البرجوازية هي طبقة اجتماعية ظهرت في القرنين ١٥ و١٦، تمتلك رؤوس الأموال والحرف، كما تمتلك كذلك القدرة على الإنتاج والسيطرة على المجتمعومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها بحسب نظرية كارل ماركس.

و بشكل أدق البورجوازية هي الطبقة المسيطرة والحاكمة في المجتمع الرأسمالي، وهي طبقة غير منتجة لكن تعيش من فائض قيمة عمل العمال، حيث أن البرجوازيين هم الطبقة المسيطرة على وسائل الإنتاج.

٢ – عن الموسوعة الالكترونية (ويكيبيديا): البروليتاريا: من اللاتينية ***proletarius***) هو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ضمن كتاب بيان الحزب الشيوعي لكارل ماركس وفريدريك أنجلز يشير فيه إلى الطبقة التي ستتولد بعد تحول اقتصاد العالم من اقتصاد تنافسي إلى اقتصاد احتكاري، ويقصد كارل ماركس بالبروليتاريا الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري، ويرى ماركس أن الصراع التنافسي في ظل الرأسمالية، سيتولد عنه سقوط للعديد من الشركات واندماج شركات أخرى، حيث انها في النهاية تتحول إلى شركات كوسموبوليتية أي لاقومية وتصبح شركات احتكارية و يصبح نضال شعوب الأرض موحدا لعدو واحد وتسمى هذه الطبقة الناشئة عن الاحتكارات العالمية بطبقة البروليتاريا، وهي تبيع عملها الفكري والثقافي والعضلي ولا تملك أي وسائل إنتاج، ويعتبر ماركس البروليتاريا هي الطبقة التي ستحرر المجتمع وتبني الاشتراكية بشكل أممي.

«نعني بالبرجوازية طبقة الرأسماليين العصريين، مالكي وسائل الإنتاج المجتمعي، الذين يستخدمون العمل المأجور. و نعني بالبروليتاريا طبقة العمال الأجراء العصريين، الذين يُضطرون، لعدم امتلاكهم وسائل إنتاح، إلى بيع قوة عملهم ليتمكنوا من العيش (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية عام ١٨٨٨)».

ومع الأسواق الجديدة لم يَعد نمطُ الإنتاج الإقطاعي، أو المشغل الحرفي في الصناعة يسدّ الحاجة المتنامية، فحلّت المانيفاتورة[1] محلَّ هذا النمط، وأزاح الصناعيون المتوسِّطون أصحاب المشاغل الحِرفية، وزال تقسيمُ العمل بين الجمعيات الحِرفية المختلفة أمام تقسيم العمل في الورشة الواحدة.

بيد أنَّ الأسواقَ كانت تـتسع والطلب كان يزداد باستمرار فأمست المانيفاتورة عاجزة بدورها؛ وعندئذٍ ثوَّر البخار والآلة الإنتاج الصناعي، وحلَّت الصناعة الكبيرة الحديثة محلَّ المانيفاتورة، وحلَّ الصِناعيون أصحابُ الملايين أساطين جيوش صناعة بأكملها، أي البرجوازيون العصريون محلَّ الصناعيين المتوسطين.

والصناعة الكبيرة أوجدت السوقَ العالمية التي مهَّد لها اكتشاف أمريكا، والسوق العالمية أنْمَتْ بما لا يُـقاس التجارةَ والملاحةَ والمواصلات البرية، وهذا النمو أثّر بدوره في توسيع الصناعة، فبقدر ما كانت الصناعة والتجارة والملاحة والسكك الحديدية تتوسَّع، كانت البرجوازية تتطور وتُـنمّي رساميلها، وتدفع إلى المؤخرة بكلِّ الطبقات الموروثة عن القرون الوسطى.

وهكذا نرى كيف أنَّ البرجوازية العصرية نفسها هي نتاج مسار تطور طويل وسلسلة تحولات في نمط الإنتاج والمواصلات، فكلُّ مرحلة من مراحل تطور البرجوازية تلك كانت مشفوعة بتقدُّم سياسي متطابق.

فالبرجوازية: فئة مقهورة تحت سيطرة الإقطاعيين، وعُصبة مسلَّحة تسوس نفسها بنفسها في -الكمونة[2]- جمهورية مدينية مستقلَّة هنا، وطبقة عوامٍ مُلزمة بدفع الضرائب

١- عن: تطور الرأسمالية في روسيا، الفصل السادس، ترجمة فوَّاز طرابلسي: المانيفاتورة (الصناعة اليدوية) تعني التعاون القائم على قسمة العمل. في الأصل، تنتمي المانيفاتورة انتماء مباشرًا إلى (الأطوار الأولى للرأسمالية). المشاغل التي تملك عددا معقولا من العمال لا تلبث أن تعتمد قسمة العمل تدريجيا، وبذلك يتحول التعاون الرأسمالي البسيط إلى مانيفاتورة رأسمالية.

٢- تحت إسم الكمونات كان يُشار إلى المدن، التي كانت تنشأ في فرنسا، حتى قبل أن تنتزع، من أسيادها الإقطاعيين،

للنظام الملكي هناك، وقوَّة موازنة للنبالة زمن المانيفاتورة في النظام الملكي المقيَّد أو المطلَق، وحجر الزاوية للأنظمة الملكية الكبيرة بوجه عام.

(هذه البرجوازية) انتَزعت أخيرًا بقيام الصناعة الكبيرة والسوق العالمية السلطةَ السياسيةَ كاملةً في الدولة التمثيلية العصرية، وسلطةُ الدولة الحديثة ليست سوى هيئة تدير المصالح المشتركة للطبقة البرجوازية بأسرها.

فالبرجوازية لعبت في التاريخ دورًا ثوريًّا بارزًا كل البروز.

والبرجوازية حيث ظفرت بالسلطة دمَّرت كلَّ العلاقات الإقطاعية من كلِّ لون، وهي التي كانت تربط الإنسان بسادته الطبيعيين، ولم تُـبق على أيَّة رابطة بين الإنسان والإنسان سوى رابطة المصلحة البحتة والإلزام القاسي بـ (الدفع نقدًا).

وأغرقت الرعشة القدسية للورع الديني والحماسة الفروسية، وعاطفة البرجوازية الصغيرة في أغراضها الأنانية المجرَّدة من العاطفة، وحوَّلت الكرامة الشخصية إلى قيمة تبادلية، وأحلّت حرية التجارة الغاشمة وحدها، محلَّ الحريات المُـثبَتة والمكتسبَة التي لا تحصى.

وبكلمة: أحلَّت استغلالًا مباحًا وقحًا مباشرًا وشرسًا محلَّ الإستغلال المُغلَّف بأوهام دينية.

فالبرجوازية جرّدت كلَّ الفعاليات التي كان يُنظر إليها حتَّى ذلك الحين بمنظار الهيبة والخشوع من هالتها، فحوّلت الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم إلى أُجَرَاء في خدمتها.

والبرجوازية نزعت حجاب العاطفية عن العلاقات العائلية وقَصَرتها (العلاقات)

الإدارة المحلية الذاتية و الحقوق السياسية لطبقة العوام. و بوجه عام، تظهر إنكلترا، هنا، كنموذج للتطور الإقتصادي للبرجوازية، و تظهر فرنسا كنموذج لتطورها السياسي (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية ١٨٨٨).

على علاقات مالية بحتة.

والبرجوازية كشفت كيف أنّ عرض القوة الشرسة الذي كانت الرجعية تُعجَب به في القرون الوسطى، قد وجد تتمّته المؤاتية في التكاسل إلى أبعد حدود الكسل؛ فهي الأولى التي بيَّنت ما يستطيع النشاط الإنساني إتيانه، فأتت بعجائب تختلف كليًّا عن أهرامات مصر، والأقنية الرومانية، والكتدرائيات القوطية، وقامت بحملات تختلف كليًّا عن الإجتياحات والحملات الصليبية.

والبرجوازية لا تستطيع البقاء بدون أن تُـثـوِّر باستمرار أدوات الإنتاج، وبالتالي علاقات الإنتاج المجتمعية.

بخلاف ذلك، كان الحفاظ على نمط الإنتاج القديم بدون تبديل الشرط الأول لبقاء كلِّ الطبقات الصناعية السالفة، وهذا الانقلاب المتواصل في الإنتاج.. وهذا التزعزع الدائم في كلِّ الأوضاع المجتمعية والقلق والتحرك الدائمان.

هذا كلُّه يميّز عصر البرجوازية عمّا سبقه من عصور، فالعلاقات الجامدة الصَّدئة مع ما يستتبعها من تصوُّرات وأفكار قديمة موقّرة تتفكك كلها، وكلُّ جديد ينشأ يهرم قبل أن يصلُب عوده، والتقسيم الفئوي القائم يتبدد هباءً، وكلُّ ما هو مقدّس يدنّس، والناس يُجبرون في النهاية على التفرّس في وضعهم المعيشي وفي علاقاتهم المتبادلة بأعين بصيرة.

وحاجة البرجوازية إلى تصريف دائم لمنتجاتها متَّسع باستمرار، تسوقها إلى كلِّ أرجاء الكرة الأرضية، فلا بدَّ لها من أن تُعشعش في كلِّ مكان، ومن أن تنغرز في كلِّ مكان، ومن أن تقيم علاقات في كلِّ مكان.

والبرجوازية باستثمارها السوق العالمية طبَّعت الإنتاج والإستهلاك في جميع

البلدان بطابع كوسموبوليتي[1]، وانتزعت من تحت أقدام الصناعة أرضيتَها القومية وسط غمٍّ الرجعيين الشديد.

فالصناعات القومية الهرِمة دُمّرت وتدمَّر يوميًّا لتحل محلها صناعات جديدة، أصبح اعتمادُها مسألة حيوية بالنسبة إلى جميع الأمم المتحضِّرة صناعات لم تعد تستعمل المواد الأوَّلية المحلية، بل المواد الأوَّلية من أقصى المناطق صناعات لا تُستهلك منتجاتها في البلد نفسه فحسب، بل أيضًا في جميع أنحاء العالم.

فمكان الحاجات القديمة التي كانت المنتجات المحلية تسدُّها تحل حاجات جديدة تتطلب لإشباعها منتَجات أقصى البلدان والأقاليم، ومحل الإكتفاء الذاتي الإقليمي والقومي والإنعزال القديم تقوم علاقات شاملة في كلِّ النواحي وتقوم تبعيَّة متبادلة شاملة بين الأمم.

وما ينطبق على الإنتاج المادي ينطبق أيضًا على النتاج الفكري، فالنتاجات الفكرية لكلِّ أمَّة على حِدَةٍ تُصبح ملكًا مشتركًا، والتعصب والتقوقع القوميان يُصبحان مستحيلين أكثر فأكثر، ومن الآداب القومية والإقليمية ينشأ أدبٌ عالميّ.

والبرجوازية، بالتحسين السريع لكلِّ أدوات الإنتاج، وبالتسهيل اللامتناهي

---

١ – عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: كوزموس من اليونانية: الأرض والسياسة، والإنكليزية: Cosmopolitanism (اللاقومية)، تعبِّر عن مصطلح استعمله كارل ماركس وفريدريك أنجلز، لوصف حالة الشركات الاحتكارية، التي ولدت من رحم المنافسة الرأسمالية، وقصد ماركس وأنجلز استعمال هذا التعبير ليكون وصفا أكثر دقة، لحالة اندماج بين شركات من عدة جنسيات، تبحث عن يد عاملة رخيصة ومواد أولية وفيرة، بحيث تفقد الشركات صبغتها القومية، ويصبح منتجها مصنعا في أكثر من بلد، ورادف هذا المصطلح العديد من المصطلحات ففي أدبيات فوكوياما أطلق اسم العولمة على حالة فتح أسواق العالم، بشكل حر والقضاء على الصناعات القومية أما لينين استعمل مصطلح الإمبريالية في كتابه الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ودرج في أدبيات الأحزاب اليسارية مصطلح الشركات العابرة للقارات.

ويُشير مصطلح الكوسموبوليتية أيضاً لمفاهيم اخرى كالكونية او الانفتاحية. الكونية هي الايديولوجية التي ينتمي اليها جميع الأعراق البشرية على اساس الخُلقْ المشترك.

لوسائل المواصلات، تـشدّ الكلَّ، حتَّى الأمم الأكثر تخلُّفًا إلى الحضارة، والأسعار الرخيصة لسلعها هي المدفعية الثـقيلة التي تـدكُّ بها الأسوار الصينية كلَّها، وتـُرغم البرابرة الأكثر حقدًا وتعنُّتًا تجاه الأجانب على الإستسلام، وتجبر كلَّ الأمم، إذا شاءت إنقاذ نفسها من الهلاك، على تـبنّي نمط الإنتاج البرجوازي، وترغمها على تقـبّـل الحضارة المزعومة، أي على أن تصبح برجوازية.

وبكلمة: هي تخلق عالمًا على صورتها.

والبرجوازية أخضعت الريفَ لسيطرة المدينة، وأنشأت مدنًا ضخمة، وزادت بدرجة هائلة عدد سكان المدن إزاء سكان الريف، منتزعة بذلك قسمًا كبيرًا من السكَّان من سذاجة الحياة الريفية، ومثلما أخضعت الريف للمدينة، والبلدان الهمجية وشبه الهمجية للبلدان المتحضِّرة، أخضعتْ الشعوب الفلَّاحية للشعوب البرجوازية، والشرق للغرب.

والبرجوازية تقضي أكثر فأكثر على تشتُّت وسائل الإنتاج والملكية والسكَّان، وقد حشرت السكَّان، ومركزت وسائل الإنتاج، وركَّزت الملكية في أيدٍ قليلة.

فكانت المركزية السياسية النتيجة الحتمية لذلك؛ فإنّ مقاطعات مستقلة تكاد تكون متّحدة لها مصالح وقوانين وحكومات وجمارك مختلفة حُشِرتْ في أُمَّة واحدة ذات حكومة واحدة وقانون واحد ومصلحة قوميَّة طبقيَّة واحدة وسياسة جمركيَّة واحدة.

فالبرجوازية في غضون سيطرتها الطبقيَّة التي لم يَكد يمضي عليها قرنٌ من الزمن، خَلقت قوى منتِّجة تفوق بعددها وضخامتها ما أوجدته الأجيالُ السابِقَةُ كلّها مجتمعة.

فالآلة وإخضاع قوى الطبيعة واستخدام الكيمياء في الصناعة والزراعة والملاحة البخارية وسكك الحديد والتلغراف الكهربائي واستصلاح أراضي قارّات بأكملها، وتسوية مجاري الأنهار لجعلها صالحة للملاحة وبروز عوامر كاملة من الأرض.

أيّ عصر سالف كان يتصوّر أنّ مثل هذه القوى المنتجة كانت تهجع في صميم العمل المجتمعيّ؟

إذن لقد رأينا: أنّ وسائل الإنتاج والتبادل التي انبنت البرجوازية على أساسها قد استُحدثت في المجتمع الإقطاعي، وعند درجة معينة من تقدّم وسائل الإنتاج والتبادل، لم تعد الشروط التي كان المجتمع الإقاطاعي ينتج فيها ويبادل، لم يعد التنظيم الإقطاعي للزراعة والمانيفاتورة، بكلمةٍ: لم تعد علاقات الملكية الإقطاعية تتلاءم مع القوى المنتجة في تمام نموّها، فكانت تُعيق الإنتاج بدلًا من دفعه نحو التقدّم، ولذا؛ تحوَّلت إلى قيود كان لا بُدّ من تحطيمها وقد حُطّمت.

ومحلها حلَّت المزاحمة الحرَّة مع هيكلية مجتمعية وسياسية ملائمة مع السيطرة الاقتصادية والسياسية لطبقة البرجوازيين.

واليوم نشهد حركة مماثلة في علاقات الإنتاج والتبادل البرجوازية، وعلاقات الملكية البرجوازية.

إنَّ هذا المجتمع البرجوازي الحديث الذي أبدع -كما في السِّحر- وسائلَ الإنتاج والتبادل الضخمة، يُشبه المشعوذ الذي فقد سيطرته على التحكُّم بالقوى الجهنميَّة التي استحضرها، فمنذ عشرات السنين، ليس تاريخ الصناعة والتجارة سوى تاريخ تمرُّد القوى المنتجة الحديثة على علاقات الإنتاج الحديثة، وعلى علاقات الملكية، قوام حياة البرجوازية وسيطرتها، ويكفي ذكرُ الأزمات التجارية الدورية التي تهدِّد أكثر فأكثر وجودَ المجتمع البرجوازي بأسره، ففي الأزمات التجارية لا يُتلَف بانتظام جزء كبير من المنتجات فحسب، بل يُتلَف أيضًا قسمٌ من القوى المنتجة القائمة، وفي الأزمات يتفشّى وباءٌ مجتمعيٌّ ما كان ليبدو في كُلِّ العصور السالفة إلاّ مستحيلًا، وهو وباءُ فائض الإنتاج، فإنَّ المجتمع يجدُ نفسَه فجأة وقد رُدَّ إلى وضع من الهمجية المؤقتة، حتَّى ليُخيَّل أنّ مجاعةً وحربَ إبادةٍ شامِلَةٍ قد قطعتاه عن وسائل العيش؛ فتبدو الصناعةُ

والتجارةُ وكأنهما أثر بعد عين، ولماذا؟ لأنَّ المجتمع يملك المزيد من الحضارة، والمزيد من وسائل العيش، والمزيد من الصناعة، والمزيد من التجارة، ولم تعد القوى المنتجة الموجودة تحت تصرّف المجتمع، تدفع بنمو علاقات الملكية البرجوازية قُدُمًا، بل بخلاف ذلك، أصبحت أقوى جدًّا من هذه العلاقات التي باتت تعيقها؛ وكلَّما تغلَّبت على هذا العائق جرّت المجتمع البرجوازي بأسره إلى الفوضى، وهدَّدت وجود الملكية البرجوازية، فالعلاقات البرجوازية غدت أضيق من أن تستوعب الثروة التي تُحدِثُها، فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الأزمات؟

من جهة بتدمير كتلة من القوى المنتجة بالعنف، ومن جهة أخرى بغزو أسواق جديدة وباستثمار الأسواق القديمة كليّا.

وما هي عاقبة هذا الأمر؟

الإعداد لأزمات أشمل وأشدّ، والتقليل من وسائل تدارُكها، فالأسلحة التي صَرَعت بها البرجوازية الإقطاع ترتدُّ الآن على البرجوازية نفسها.

بَيْد أنّ البرجوازية لم تصنع فحسب الأسلحة التي تودي بحياتها، بل أنجبت أيضًا الرجال الذين سيستعملون هذه الأسلحة.. العمَّال العصريين أو البروليتاريين.

وبقدر ما تنمو البرجوازية، أي رأس المال، تنمو أيضًا البروليتاريا، أي طبقة العمَّال العصريين الذين لا يعيشون إلَّا إذا وجدوا عملًا، ولا يجدون عملًا إلَّا إذا كان عملهم يُنمي رأس المال، وهؤلاء العمَّال المُكرهون على بيع أنفسهم قطعة قطعة، هم سلعة كأيِّ صنف تجاري آخر، ولذا؛ هم مُعرَّضون لكلِّ صروف المزاحمة، ولكلِّ تقلبات السوق.

ومن جرَّاء توسُّع استعمال الآلة وتقسيم العمل، فقدَ عملُ البروليتاريين كلِّيًا طابعَ استقلاله الذاتي، وبالتالي فقد كلَّ جاذبية بالنسبة إلى العمَّال، فالعامل أصبح مجرّد مُلحق بالآلة، لا يُطلب منه سوى الحركة اليدوية الأكثر بساطة ورتابة وسهولة وامتهان،

ومن ثمَّ، فإنَّ ما يُكلِّفه العامل يكاد يقتصر على كلفة ما يلزمه للعيش، ولمواصلة نسله.

وبالتالي فإنّ ثمنَ العامل شأنُ ثمنِ كلِّ سلعة يُساوي كلفةَ إنتَّاجِه.

إذن، كلَّما أصبح العمل منفِّرًا، تدنَّى الأجر، وفضلًا عن ذلك، بقدر ما يتَّسع استعمال الآلة وتقسيم العمل، تشتدُّ أيضًا وطأةُ العمل، سواءٌ من جرّاءِ زيادة ساعات العمل أو مُضاعفة العمل المطلوب إنجازه في وقت معيّن أو تسريع حركة الآلة، الخ..

والصناعة الحديثة حوّلت المشغل الصغير للمعلّم الحِرَفي البطريكي إلى فبركة كبيرة للرأسمالي الصناعي، وجموع العمَّال المحشورة في الفبركة تنظَّم تنظيمًا عسكريًّا.

فالعمّال جنود الصناعة البسطاء، يُوضعون تحت رقابة تراتبية كاملة، من ضبّاط وصفّ ضبّاط، وهم ليسوا عبيد طبقة البرجوازيين ودولة البرجوازيين فحسب، بل هم أيضًا في كلِّ يوم وكلِّ ساعة عبيد للآلة ولمراقب العمل، وخصوصًا للبرجوازي صاحب الفبركة نفسه، وهذا الإستبداد كلَّما أعلنَ بمزيدٍ من الصراحةِ أنّ الكسبَ هو هدفه، إزداد دناءةً وبشاعةً وقسوةً.

والعمل اليدوي كلَّما تطـلَّب قدرًا أقل من المهارة والقسوة، أي كلَّما تقدَّمت الصناعة الحديثة، ازداد إحلال عمل النساء محلّ عمل الرجال، فالفروق في الجنس والسن لم يعد لها شأنٌ مجتمعيٌّ بالنسبة إلى الطبقة العاملة، ولم يعد هناك سوى أدوات عمل تختلف كلفتُها باختلاف السنِّ والجنس،

والعامل ما أن يستغلّه صاحب العمل، وما أن يدفع له أجره، حتَّى تنقضّ عليه القطاعات الأخرى من البرجوازية: مالك البيت والبقّال والمرتهن إلخ..

والمراتب الدنيا للطبقات الوسطى التي كانت قائمةً حتى الآن –صغار الصناعيين والتجَّار وأصحاب الرّيع والحرفيون والفلاحون– تصبّ في البروليتاري؛ لأنَّ رأسمالها

الصغير لا يكفي لتشغيل الصناعة الكبيرة، فتهلك في مزاحمة كبار الرأسماليين، من جهة، ومن جهة أخرى لأنَّ الطرائق الجديدة للإنتاج تحطّ من قيمة مهارتها، وهكذا تتكون البروليتاريا من جميع طبقات السكَّان.

والبروليتاريا تمرُّ بدرجات تطوُّرٍ مختلفة، ونضالها ضد البرجوازية يبدأ مع وجودها نفسه.

ففي البدء يناضل العمَّال فُرادى، ثم يناضل عمَّال فبركة واحدة، ثمَّ عمَّال فرع صناعي في منطقة واحدة، ضدّ البرجوازي الفرد الذي يستغلُّهم مباشرة، وهم لا يوجّهون هجماتهم إلى علاقات الإنتاج البرجوازية فحسب، بل أيضًا إلى أدوات الإنتاج نفسها، فيتلفون السلع الأجنبية المضاربة، ويُحطِّمون الماكينات، ويُضرمون النار في الفبارك، ويَسعون إلى استعادة الموقع المفقود.. موقع الصانع في القرون الوسطى.

وفي هذا التطور يُشكّل العمَّال جموعًا مبعثرة في البلاد كلِّها تُشتتها المُزاحمة، فتآزر العمال الواسع -الجماهيري، ليس بعدُ نتيجة اتحادهم الذاتي، بل هو نتيجة اتّحاد البرجوازية التي عليها، لبلوغ أغراضها السياسية الخاصة أن تُحرّك البروليتاريا بأسرها طالما هي قادرة على ذلك، والحالة هذه فإنّ البروليتاريين في هذا الطور لا يُحاربون أعداءهم، بل أعداء أعدائهم، أي بقايا الحكم الملَكي المُطلق، والملَّاكين العقاريين، والبرجوازيين غير الصناعيين والبرجوازيين الصغار، وهكذا تتركَّز الحركة التاريخية كلُّها في أيدي البرجوازية، وكلُّ انتصار يتحقَّق على هذا النحو هو انتصار للبرجوازية.

لكن مع تقدُّم الصناعة لا تتسع البروليتاريا فحسب، بل تحتشد في حشود أكثر ضخامة وتنمو قوَّتها، وتعي هي هذه القوة وعيًا أفضل، فالمصالح والأوضاع المعيشية داخل البروليتاريا تتماثل باطِّراد، بقدر ما تمحو الآلة الفوارق في العمل، وتنخفض الأجرة في كل مكان تقريبًا إلى مستوى مُتماثل في الإنخفاض، فإنَّ المضاربة المتعاظمة بين البرجوازيين أنفسهم، والأزمات التجارية الناتجة عنها، تجعلُ أجورَ العمَّال أكثرَ

تقلُّبًا باستمرار؛ والتحسين المتسارع المتنامي، والمتواصل للآلة، يزعزع باستمرار الوضع المعيشي للعمَّال؛ والمصادمات بين العامل الفرد والبرجوازي الفرد، تَتَّخذ أكثر فأكثر طابعَ مُصادماتٍ بين طبقتين، وعندئذ يبدأ العمّال في تأليف اتحادات نقابية ضد البرجوازيين؛ ويتكاتفون للحفاظ على أجر عملهم، ويؤلّفون جمعيات دائمة للتمّون تحسُّبا لانتفاضات مُحتملة، وهنا وهناك، ينفجر النضال شَغَبًا.

ومن وقت إلى آخر ينتَّصِرُ العمَّال، لكنَّ انتصارهم هو إلى حين، والنتيجة الحقَّة لنضالاتهم ليست في النجاح المباشر، بل في اتّحاد العمل المتعاظم باستمرار، وهذا الاتِّحاد يعزِّزه نمو وسائل المواصلات التي تبتدعها الصناعة الكبرى، والتي تربط بين عمّال مختلف النواحي، والحال لا بُدّ من الرابط لجعل النضالات المحليّة والمتعددة، ذات الطابع الواحد في كل مكان، تتمركز في نضال وطني، في نضال طبقيّ، غير أنّ كلَّ نضال طبقي هو نضال سياسي.

والإتِّحاد الذي اقتضى سكَّان بلدان القرون الوسطى قرونًا لتحقيقه، نظرًا إلى طُرقاتهم البدائية، تُحقّقه البروليتاريا العصرية في سنوات قليلة بفضل السكك الحديدية.

وانتظام البروليتاريين في طبقة، وبالتالي في حزب سياسي، تنسفه مجددًا وفي كلِّ لحظة المزاحمة بين العمَّال أنفسهم؛ لكنَّه ينهض مرارًا وتكرارًا أقوى وأمتن وأشدّ بأسًا، ويستفيد من الإنقسامات في صفوف البرجوازية، فينتَّزع الاعتراف على وجه قانوني ببعض مصالح العمَّال، مثل قانون العمل عشر ساعات (يوميًّا) في انكلترا.

وعمومًا فإنّ صدامات المجتمع القديم تدفع بطرق شتَّى بتطور البروليتاريا قدُمًا.

فالبرجوازية تعيش في صراع دائم: في البدء، ضدّ الأرستقراطية[1]، ثمَّ ضدّ تلك

١ – عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: الأرستقراطية، بالإنجليزية: Aristocracy هي تسمية لطبقة اجتماعية تتمتع بالأصول النبيلة في المجتمعات الأوروبية وينحصر فيها حكم البلاد. وهي كلمةيونانية الأصل وتعني (حكم الأفضل). وهذه الصفة متوارثة حتى هاجمتها الثورة الفرنسية

الأقسام، من البرجوازية نفسها، التي تتناقض مصالحها مع تَقدُّم الصناعة، ثمَّ بصورة دائمة ضدّ برجوازية جميع البلدان الأجنبية، وفي كلِّ هذه الصراعات تجد البرجوازية نفسها مضطرة إلى الإستنجاد بالبروليتاريا، وطلب معونتها، وبذلك تَجرّها إلى المعترك السياسي، وهكذا فإنّ البرجوازية نفسَها هي التي تزوّد البروليتاريا بعناصرها التثقيفية، أي بالأسلحة التي ترتدّ عليها.

وإضافة إلى ذلك وكما رأينا قبلًا، فإنَّ أقسامًا بكاملها من الطبقة السائدة تنحدر، بفعل تَقدُّم الصناعة، إلى البروليتاريا، أو تتهدد على الأقل بأوضاعها المعيشية، وهذه الأقسام تمدّ البروليتاريا أيضًا بطائفة من العناصر التثقيفية.

وأخيرًا، عندَّما يقترِبُ الصِراعُ الطبقيُّ من الحسم، تتخذ عمليةُ التـفسُّخ داخل الطبقة السائدة، وداخل المجتمع القديم بأسره، طابعًا عنيفًا وحادًّا، إلى حدٍّ أنّ قسمًا صغيرًا من الطبقة السائدة يَنسلخ عنها وينضمّ إلى الطبقة الثورية، إلى الطبقة التي تحمل بين يديها المستقبل، ومثلما انتقل في الماضي قسم من النبلاء إلى البرجوازية، ينتقل الآن قسمٌ من البرجوازية إلى البروليتاريا، لا سيَّما هذا القسم من الإيديولوجيين البرجوازيين، الذين ارتفعوا إلى مستوى الفَهم النظري لمُجمل الحركة التاريخية.

ومن بين جميع الطبقات، التي تُـناهض البرجوازية اليوم، فإنّ البروليتاريا وحدها هي الطبقة الثورية حقًّا، فالطبقات الأخرى تنهار وتتلاشى أمام الصناعة الكبيرة،

صارت لفظة الأرستقراطية تشير إلى جميع العوائل الإقطاعية في إنجلترا، فرنسا وروسيا وتشير إلى القوة والسلطة وصارت نمطاً من أنماط الحياة في العالم.

تعني أن الحكم يكون بواسطة خير المواطنين (الطبقة الذهبية) لصالح الدولة أي سُلطة خواص الناس، وسياسياً تعني طبقة اجتماعية ذات منزلة عليا تتميز بكونها موضع اعتبار المجتمع، وتتكون من الأعيان الذين وصلوا إلى مراتبهم ودورهم في المجتمع عن طريق الوراثة، واستقرت هذه المراتب على أدوار الطبقات الاجتماعية الأخرى، وكانت طبقة الارستقراطية تتمثل في الأشراف الذين كانوا ضد الملكية في القرون الوسطى ،وعندما ثبتت سلطة الملوك بإقامة الدولة الحديثة تقلصت صلاحية هذه الطبقة السياسية واحتفظت بالامتيازات المنفعية.

والبروليتاريا هي نِتاجُها الخاص.

والطبقات الوسطى -الصناعي الصغير والتاجر الصغير والحِرفيّ الصغير والفلاّح الصغير- كلُّها تحارب البرجوازية للحفاظ على وجودها كطبقات وسطى من التلاشي، فهي إذن ليست ثورية بل مُحافظة، وفضلًا عن ذلك، إنَّها رجعية تسعى إلى جعل عَجَلة التاريخ ترجع القهقرى.

وإذا وقع لها أن تكون ثوريّة فذلك نظرًا إلى انتقالها الوشيك الوقوع، إلى البروليتاريا، وهي بذلك لا تدافع عن مصالحها الراهنة، بل عن مصالحها المقبلة، فتتخلى عن موقعها الخاص، لتَتَبنّى وجهة نظر البروليتاريا.

أما اللومبنبروليتريا[1] Lumpenproletariat (دون، أو تحت البروليتاريا)، هذا النتن المُستسلم، حثالة الفئات الدنيا من المجتمع القديم، فإنَّها قد تنجرف هنا وهناك في الحركة بفعل ثورة بروليتارية، لكنَّها بحكم وضعها الحياتي كله تصبح أكثر استعدادًا لبيع نفسها لمكائد لرجعية.

ففي شروط حياة البروليتاريا تمّ تقويض شروط حياة المجتمع القديم، فالبروليتاري لا ملكيّة له، وعلاقته بالزوجة والأطفال لم يبق جامع يجمعها بعلاقات الأسرة البرجوازية؛ والعمل الصناعي الحديث والإستذلال الحديث، في ظلِّ رأس المال، جرّداه سواء في إنكلترا أو في فرنسا، وفي أميركا أو في ألمانيا، من كلِّ طابع قومي؛ والقوانين والأخلاق والدين، هي والأحكام البرجوازية المغرضة الكثيرة، سواسية بالنسبة إليه، تتستر وراءها مصالح برجوازية كثيرة.

١ – عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: مصطلح أطلقه كارل ماركس في بيان الحزب الشيوعي لوصف تلك الطبقة التي تحت الطبقة العاملة والذين لا يحظون بنوع من الوعي وغير مفيدين في العملية الإنتاجية او إجتماعيا ، ولا فائدة ممنهم في النضال الثوري، وربما يمثلون عائقا أمام تحقيق مجتمع لا طبقي. عرف اللومبنبروليتريا على أنهم حثالة الفئات الدنيا من المجتمع القديم، فإنها قد تنجرف هنا وهناك في الحركة بفعل ثورة بروليتارية، لكنها بحكم وضعها الحياتي كله تصبح أكثر استعدادا لبيع نفسها لمكائد الرجعية.

فالطبقات السالفة كلُّها، التي استولت على السلطة، كانت تسعى إلى توطيد مركزها المكتسب بإخضاعها المجتمع بأسره لشروط كسبها، والبروليتاريون لا يستطيعون الإستيلاءَ على القوى المجتمعية المنتجة، إلاّ بإلغاء النمط السالف الخاص بهم لامتلاك المال، وبالتالي بالقضاء على كلِّ نمط للامتلاك قائم حتى الآن، والبروليتاريون لا يملكون شيئًا يحافضون عليه، وعليهم أن يُقَوِّضُوا كُلَّ الضمانات الخاصّة، وكُلَّ الحمايات الخاصّة، والقائمة حتَّى الآن.

فحتَّى الآن كانت الحركات كلُّها إمّا حركات أقليات، وإمّا لمصلحة الأقليات، والحركة البروليتارية، هي الحركة القائمة بذاتها، للأغلبية الساحقة، في سبيل الأغلبية الساحقة، والبروليتاريا، الفئة الدنيا في المجتمع الراهن، لا يمكنها أن تنهض وتنتصب، بدون أن تنسف البنية الفوقية كلها للفئات التي تؤلّف المجتمع الرسمي.

ومع أنّ نضال البروليتاري ضد البرجوازية ليس قوميًا في محتواه، فإنَّه يتّخذ في البداية الشكلَ القومي، ولا حاجة إلى القول إنّ على البروليتاريا في كلِّ بلدٍ أن تتخلص من برجوازيتها الخاصة.

وبإجمالنا أطوار نمو البروليتاريا في خطوطها الكبرى، تتبّعنا أيضًا الحروب الأهلية الكامنة تقريبًا داخل المجتمع القائم، حتَّى الحين الذي تنفجر فيه هذه الحروب ثورةً علنيّة، تُرسي البروليتاريا سيطرتها بإطاحة البرجوازية بالعنف.

وقد رأينا أنّ كلَّ مجتمع حتَّى الآن قام على التناحر بين الطبقات العسفية والطبقات المضطهَدَة، وللتَّمكن من اضطهاد طبقة ينبغي أن تؤمّن لها شروط معيشية تمكِّنُها، على الأقل، من مواصلة وجودها العبودي، فالقنّ، في عهد القنانة توصّل إلى أن يغدو عضوًا في كمونة، وكذلك ارتفع البرجوازي الصغير إلى برجوازي تحت نير الحكم الإقطاعي الإستبدادي، بخلاف ذلك، فإنّ العامِلَ العصري، بدلًا من أن يرتفع مع تقدّم الصناعة، لا ينفك ينحطُّ عميقًا دون أوضاع طبقته نفسها، فالعامل يغدو مدقعًا، والعَوَز يزداد

بسرعة تفوق سرعة نُمو السكان والثروة.

وبناءً عليه يتَّضح أنَّ البرجوازية عاجِزَةٌ عن أن تبقيَ زمنًا أطول الطبقةَ السائدةَ، وأن تَفرض على المجتمع شروطَ وجود طبقتها كقانون أعلى، فهي عاجزة عن أن تسيطر، لأنَّها عاجزة عن تأمين عيش عبدها، حتَّى في إطار عبوديته، لأنَّها مرغمة على تركه ينحطّ إلى وضع يُلزِمها بأن تُعيله، بدلًا من أن يُعيلها، فالمجتمع لم يعد يستطيع أن يحيا تحت سيطرتها، أو بعبارة أخرى، لم يعد وجود البرجوازية يلائم المجتمع.

فالشرط الأساسي لوجود الطبقة البرجوازية ولسيطرتها، هو تكديس الثروة في أيدي خواص، تكوين الرأسمال وإنماؤه، وشرط وجود الرأسمال هو العمل المأجور، والعمل المأجور يقوم، حصرًا، على المزاحمة بين العمّال، وتقدّم الصناعة، الذي تُشكّل البرجوازية دعامته بلا إرادة منها وبِلا مقاومة، يُحِلّ وحدة العمّال الثورية عبر الترابط محل انفرادهم الناتج عن تزاحُمهم.

وهكذا فإنّ تطور الصناعة الكبيرة يزلزِل تحت أقدام البرجوازية، الأساس الذي تُنتج عليه وتتملّك المنتجات.

إنّ البرجوازية تُنتج، قبل كل شيء، حفّاري قبرها، فانهيارها وانتصار البروليتاريا، أمران حتميّان.

(الفصل الثاني)

بروليتاريون وشيوعيون

ما هي علاقةُ الشيوعيين بالبروليتاريين عمومًا؟

إنّ الشيوعيين ليسوا حِزبًا مُنفصِلًا في مواجهة الأحزاب العمّالية الاخرى، وليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح عموم البروليتاريا.

وهم لا يطرحون مبادئ خاصَّةٍ يريدون قَولَبَة الحركة البروليتارية بقالبها.

إنَّ الشيوعيين لا يتميَّزون عن الأحزاب البروليتارية الأخرى إلاّ في أنّهم: من ناحية، يُبرزون ويُغلِّبون المصالح المشتركة في الصراعات القومية المختلف للبروليتاريين، بصرف النظر عن تابعية عموم البروليتاريا، ومن ناحية أخرى، يمثِّلون دائمًا مصلحةَ مُجمل الحركة في مختلف أطوار التطور، التي يمرُّ بها الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية.

إذن، الشيوعيون عمليّا هم الفريق الأكثر حزمًا من الأحزاب العمّالية في جميع البلدان، والدافع دومًا إلى الأمام، ونظريًّا هم متميِّزون عن سائر جُموع البروليتاريا، بالتبصُّر في وضع الحركة البروليتارية، وفي مسيرتها ونتائجها العام.

والهدف الأوَّل للشيوعيين هو الهدف نفسه لكلِّ الأحزاب البروليتارية الأخرى: تشكّل البروليتاريا في طبقة، إسقاط هيمنة البرجوازية، واستيلاء البروليتاريا عن السّلطة السياسية.

وطروحات الشيوعيين النظرية لا تقوم قطعًا على أفكار، على مبادئ، ابتكرها أو اكتشفها هذا أو ذاك من مُصلحي العالم.

إنّها فقط تعبير عام عن الشروط الحقيقية لصراع طبقيّ قائم عن حركة تاريخية تجري أمام أعيننا، وإلغاء علاقات الملكية القائمة حتَّى الآن، ليس هو إطلاقًا السِّمة المميِّزة للشيوعية.

فعلاقات الملكية كلُّها، كانت خاضعةً لتغيّر تاريخي مستمر لتحوّل تاريخي مُتواصل، فالثورة الفرنسية، مثلًا، قضت على الملكية الإقطاعية لمصلحة الملكية البرجوازية.

وإنّ ما يميّز الشيوعية، ليس القضاء على الملكية بشكل عام، بل إلغاء الملكية البرجوازية.

غير أنَّ الملكية الخاصة للبرجوازية العصرية هي آخر تعبير وأكمله عن الإنتاج وتملّك المنتجات القائم على التناحرات الطبقية، وعلى استغلال البعض للبعض الآخر.

والحالة هذه يستطيع الشيوعيون أن يلخّصوا نظريتهم بعبارة وحيدة: إلغاء الملكية الخاصة.

ونحن الشيوعيون، أُخِذ علينا أنّنا نريد إلغاء الملكية المكتسبة شخصيًّا بجهد فردي، هذه الملكية التي تشكّـل، كما يُزعم، أساس كلّ حُرِّية شخصية وكلّ فعالية وكلّ استقلال فردي.

ملكية مكتسبة بالجهد والإستحقاق الشخصيين!

فهل تتحدثون عن الملكية البرجوازية الصغيرة، والفلاحية الصغيرة، التي سبقت الملكية البرجوازية؟

إننا لسنا بحاجة إلى إلغائِها؛ فإنّ تطور الصناعة قضى ويقضي عليها يوميًّا.

أم أنّكم تتحدثون عن الملكية الخاصة للبرجوازية الحديثة؟

ولكن، هل يخلق العمل المأجور، أيْ عمل البروليتاري، ملكية له؟

قطعًا لا. إنَّه يخلق رأس المال، أي الملكية التي تَستَغل العمل المأجور، والتي لا يسعها أن تنمو إلاّ شرط أن تُنتِّج عملًا مأجورًا جديدًا، لتستغلّه مرة ثانية.

فالملكية، في شكلها الحاليّ، تتحرَّك في التناقض بين رأس المال والعمل المأجور، فلنمعن النظرَ في طرفي هذا التناقض.

إنّ كون المرء رأسماليًّا لا يعني أنَّه يشغل مركزًا شخصيًّا فحسب، بل يشغل أيضًا مركزًا مجتمعيًّا في الإنتاج، فرأس المال هو نتاج جماعي، لا يمكن تحريكه إلَّا بنشاط مشترك لأعضاء كثيرين، بل إنَّه، في التحليل الأخير، لا يحرَّك إلاّ بالنشاط المشترك لجميع أعضاء المجتمع.

فرأس المال إذن ليس فاعليّة شخصية، بل فاعليّة مجتمعية.

ومن ثم، إذا تحوّل رأسُ المال إلى ملكية مشتركة تخصُّ جميع أعضاء المجتمع، فهذا التحول هو فقط الذي يتحول، (أي) أنّ الملكية تفقد طابعها الطبقي.

ولننتقل إلى العمل المأجور: فإنَّ الثمن الوسط للعمل المأجور هو الحدّ الأدنى لأجر العمل، أي جملة وسائل العيش الضرورية لبقاء العامل كعامل على قيد الحياة، ومن ثم، فإنّ ما يتملّكه العامل المأجور بجهده يكفي فقط لإعادة إنتاج حياته.

ونحن لا نريد، على الإطلاق، إلغاء هذا التملُّك الشخصي لمنتجات العمل من أجل إعادة إنتاج الحياة الشخصية، فهذا التملّك لا يترك حاصِلًا (ربحًا) صافيًا يُخوّل السيطرة على عمل الغير.

نحن نُريد فقط إلغاء الطابع المقيت لهذا التملُّك، الذي لا يحيا فيه العامل إلاّ لتنمية رأس المال، ولا يحيا إلاّ بالقدر الذي تتطلبه مصلحة الطبقة السائدة.

فالعمل الحرّ، في المجتمع البرجوازي، ليس سوى وسيلة لزيادة العمل المتراكم، والعمل المتراكم، في المجتمع الشيوعي، ليس سوى وسيلة لتوسيع السيرورة الحياتية للعمَّال، ولإغنائها وترقيتها.

ففي المجتمع البرجوازي إذن، يتسلَّط الماضي على الحاضر، وفي المجتمع الشيوعي يتسلَّط الحاضرُ على الماضي، وفي المجتمع البرجوازي رأس المال مستقـلٌّ وله ذاتيَّة مميَّزة، في حين أنَّ الفرد الفاعل لا استقلال له، ولا ذاتيَّة مميَّزة.

وإلغاء هذا الوضع تسمّيه البرجوازية (إلغاء الشخصية الفردية والحرية)!

وهي على حق؛ فإنّ الأمر يتعلَّق فعلًا بإلغاء فردانية البرجوازي واستقلاله وحريته.

وفي نطاق علاقات الإنتاج البرجوازية الراهنة، يُـقصد بالحرية: التجارة الحرّة، والبيع الحرّ، والشراء الحرّ[1].

ولكن إذا انتَّفى الإتجار الجشع انتَّفى أيضًا الإتّجار الحرّ؛ فالتبجُّحات بالإتّجار الحرّ، شأن كل التبجّحات الأخرى لبرجوازيتنا حول الحرية، لا معنى لها إلاّ بالمقابلة بالإتجار المقيّد، وبالمقابلة بالبرجوازي المُستعبَد في القرون الوسطى، ولا معنى لها إطلاقًا بالمقابلة بالإلغاء الشيوعي للإتجار، ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، وللبرجوازية نفسها.

لقد أصِبتم بالذعر لأنّـنا نريد إلغاء الملكية الخاصة، ولكنَّ الملكية الخاصة، في مجتمعكم الراهن، مُلغاة بالنسبة إلى تسعة أعشار أعضائه، إنّها ضبطًا موجودة لأنَّها غير موجودة بالنسبة إلى الأعشار التسعة، فأنتُّم إذن تلومونا لأنَّنا نريد إلغاء ملكية تَفرض، كشرط ضروري لوجودها، إنعدام الملكية بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة من المجتمع.

وبكلمة، فإنَّكم تتَّهموننا بأنَّنا نريد إلغاء ملكيتكم، وهذا بالتَّأكيد ما نريده.

---

١ – المؤلف: أنصح بالقراءة حول اقتصاد السوق، ثمَّ حول الاقتصاد السياسي.

وما أن يتعذَّر على العمل أن يتحوَّل إلى رأس مال، إلى نقد، إلى ريع عقاري، وباختصار إلى سلطة مجتمعية قادرة على الإحتكار، أي في اللحظة التي لا تبقى فيها الملكية الشخصية قادرة على أن تتحوَّل إلى ملكية برجوازية، في هذه اللحظة بالذَّات تُعلِنُون أنّ الفرد قد أُزيل.

إذن، أنتُّم تعرفون بأنَّكم لا تَعنون بالفرد إلاّ البرجوازي (أي) المالك البرجوازي. وهذا الفرد لا بُدّ من أن يُزال حقّا.

فالشيوعية لا تجرِّد أحدًا من القدرة على تملّك منتجات مجتمعية، بل تنتزع فقط القدرة على استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملّك.

وثمَّة اعتراض علينا يقول: بإلغاء الملكية الخاصة سينتهي كلُّ نشاطٍ وسيَستشري كسل عام.

فلَو صحّ ذلك، لكان المجتمع البرجوازي قد تردّى منذ زمن بعيد في الخمول؛ إذ أنَّ أولئك الذين يعملون، في المجتمع، لا يمتلكون، وأولائك الذين يمتلكون، لا يعملون، فهذا الوسواس كله يُؤوّل إلى هذا الحشو: حين لا يبقى للرأسمال وجود لا يبقى للعمل المأجور وجود.

والإعتراضات كُلُّها، التي توجّه إلى النمط الشيوعي في إنتَّاج المنتَّجات المادية وتملكها، تشمل أيضًا إنتاج النتاجات الفكرية وتملُّكِها، وكما أنّ زوال الملكية الطبقية يعادل، في نظر البرجوازي، زوال الإنتَّاج نفسه، فإنّ زوال الثقافة الطبقية يماثل، في نظره، زوال الثقافة إطلاقًا.

والثقافة التي ينوح البرجوازي على ضياعها ليست بالنِّسبة إلى الأغلبية الساحقة، إلَّا تدريبًا يجعل منها ماكينات.

ولكن لا تجادلونا وأنتم تقيسون إلغاء الملكية البرجوازية بمفاهيمكم البرجوازية عن الحرية والثـقافة والحق إلخ..

فإنّ أفكاركم نفسها هي نِتاج علاقات الإنتاج البرجوازية والملكية البرجوازية، شأن حقكم، الذي ليس هو سوى إرادة طبقتكم، التي سُـنّـت قانونًا، إرادة حدَّدت الشروط المادية لحياة طبقتكم، مضمونها.

فنظرتكم المنفعيّة، التي تحوّلون بها علاقات إنتاجكم وملكيتكم، من علاقات تاريخية عابرة في مجرى الإنتَّاج إلى قوانين أبديّة (ثابتة) للطبيعة والعقل، هذه النظرة تتشاطرونها وجميع الطبقات السائدة التي بادت، فإنَّ ما تفهمونه بالملكية القديمة، وما تفهمونه بالملكية الإقطاعية، لم يعد بعد الآن معقولًا بالنِّسبة إلى الملكية البرجوازية.

وإلغاء العائلة! حتَّى أكثر الراديكاليين تطرُّفًا تثور ثائرتهم على هذا القصد الدنيء للشيوعيين.

فَعلامَ ترتكز العائلة الراهنة، العائلة البرجوازية؟

على رأس المال والتملُّك الخاص، وهي لا توجد بتمام تطورها إلاّ بالنِّسبة إلى البرجوازية، لكنّها تَجد تكملتها في الحرمان القسري من العائلة، بالنسبة إلى البروليتاري، وفي البغاء العلني.

والعائلة البرجوازية تضمحلّ طبعًا باضمِحلال تكملتها، فكلتاهما تزولان بزوال رأس المال.

أتأخذون علينا أنّنا نريد إلغاء استغلال الآباء لأبنائهم؟

هذه الجريمة نعترف بها، لكن تقولون إنَّنا، بإحلال التربية المجتمعية محلّ التربية البيتـيّة، نقضي على أكثر العلاقات حميمية.

أليس المجتمع هو الذي يحدِّد تربيتكم أنتم، أيضًا؟

ألا تحدِّدُها العلاقات المجتمعية التي تربون في إطارها؟

ألا يحدِّدُها تدخل المجتمع المباشر وغير المباشر بواسطة المدرسة، إلخ..؟

فالشيوعيون لا يبتدعون فعل المجتمع في التربية، إنَّهم فقط يغيّرون خاصيّته وينتَّزعون التربية من تأثير الطبقة السائدة.

فكلَّما تمزَّقت، نتيجة للصناعة الكبيرة، كلُّ روابط البروليتاري العائلية، وتحوّل الأولاد إلى مجرّد سلع تجارية ومجرّد أدوات عمل، تصبح التشدُّقات البرجوازية بالعائلة والتربية وبعلاقات الأُلفة بين الآباء والأبناء، أكثر إثارة للتقزز.

و»لكنَّكم، أيُّها الشيوعيون، تُريدون إدخال إشاعة النساء». كذا تزعق بنا بصوت واحد البرجوازية كلُّها.

فالبرجوازي يرى في امرأته مجرَّد أداة إنتاج، وهو يسمع أنَّ أدوات الإنتاج يجب أن تشتغل جماعيًّا، وطبعًا، لا يسعه إلاّ أن يعتقد بأنّ قدَر الإشتراكية سيصيب النساءَ أيضًا.

ولا يدور في خلده أنّ الأمر يتعلق، ضبطًا، بإلغاء وضع النساء كمجرّد أدوات إنتاج.

وللمناسبة، لا شيء أكثر إثارة للسخرية من ذعر برجوازيتنا الأخلاقي المسرف في أخلاقيته، من إشاعة النساء الرسمية، المدَّعَى بها على الشيوعيين!

الشيوعيون ليسوا بحاجة إلى إدخال إشاعة النساء، فقد وُجدت على الدوام تقريبًا.

فبرجوازيّونا، غير القنوعين بأن تكون تحت تصرّفهم، نساء بروليتاريتهم وبناتهم، ناهيك عن البغاء الرسمي، يجدون متعةً خاصَّة في أن يتداينوا باتِّفاقٍ متبادل.

فالزواج البرجوازي، في الحقيقة، هو إشاعة النساء المتزوجات، وقصارى ما يمكن أن يُلام عليه الشيوعيون، هو أنهم يريدون إحلال إشاعة رسمية وصريحة للنساء محل إشاعة مستترة نفاقًا.

وللمناسبة، من البديهي أنَّه بإلغاء علاقات الإنتاج الراهنة، تزول أيضًا إشاعةُ النساء الناجمة عنها، أي (يزول) البغاء الرسمي وغير الرسمي.

وفوق ذلك، يُـتَّهم الشيوعيون بأنهم يريدون إلغاء الوطن والقومية.

فالعمّال لا وطن لهم، فلا يمكن أن يُسلب منهم ما لا يملكونه، وبما أنَّه ينبغي على البروليتاريا أن تستولي، أوَّلا، على السلطة السياسية، وأن تنصّب نفسها طبقةً قوميَّةً، وأن تتـقوَّم كأمّة، فإنّها ما تزال وطنية، لكن ليس قطعًا بالمعنى البرجوازي للكلمة.

فمع نمو البرجوازية، مع حرية التجارة، مع السوق العالمية، مع التماثل في الإنتَّاج الصناعي والأوضاع الحياتية الملائمة لذلك، تزول الفواصل القوميّة والتناقضات بين الشعوب، أكثر فأكثر.

وسيطرة البروليتاريا ستُـزيلها أكثر فأكثر، وعمل البروليتاريا الموحّد، في البلدان المتحضّرة على الأقل، هو أحدُ الشروط الأوَّلية لتحرُّرِها.

وبقدر ما يُقضى على استغلال الفرد للفرد، يُقضى على استغلال أُمّة لأمّة أخرى.

ومع زوال التناحر بين الطبقات داخل الأمّة، يزول موقف العَدَاء من الأمم.

والتُّهم الموجّهة إلى الشيوعية، من وُجُهات نظرٍ دينيَّةٍ فلسفيَّةٍ إيديولوجيَّةٍ، عمومًا، لا تستحق نقاشًا أكثر تفصيلًا.

وهل من حاجة إلى نظر ثاقب لإدراك أنه مع تغيُّر أوضاع الناس المعيشية وعلاقاتهم المجتمعية، وحياتهم الإجتماعية، تتغير أيضا تصوراتهم ومعتقداتهم ومفاهيمهم..

وبكلمة: وعيهم؟

وهل يُبرهن تاريخ الأفكار على شيء سوى أنّ الإنتَّاج الفكري يتحوّل بتحوّل الإنتاج المادي؟

فالأفكار التي سادت عصرًا من العصور، لم تكن قطّ إلاّ افكارَ الطبقة السائدة.

فعندَّما يجري الحديث عن أفكار تُـثـوِّر مجتمعًا بأسره، يُعبَّر فحسب عن واقع، وهو أنّ عناصر مجتَمع جديد قد تكوَّنت في عقر المجتمع القديم، وأنّ انحلالَ الأوضاع المعيشية القديمة يواكِبُه انحلالُ الأفكار القديمة.

فحينما كان العالم القديم يتهاوى، انتَّصر الدين المسيحي على الأديان القديمة، وحينما غُلبت الأفكار المسيحية على أمرها، في القرن الثامن عشر أمام أفكار التنوير، كان المجتمع الإقطاعي يلفظ أنفاسه الأخيرة في صراعه مع البرجوازية، الثوريّة آنـئـذٍ، ولم تكن أفكار حرِّية المعتقد والحرية الدينية إلاّ تعبيرًا عن نظام المزاحمة الحُرَّة في مجال المعرفة.

وقد يُقال: إنَّ الأفكار الدينية والأخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية، إلخ.. قد تعدّلت بلا شك في مجرى التطور التاريخي، لكنَّ الدين والأخلاق والفلسفة والسياسة والحقوق ظلّت قائمة وسط هذا التحوّل.

وفوق ذلك، هناك حقائق ثابتة مثل الحريّة والعدالة إلخ.. هي واحدة في جميع الأوضاع المجتمعية.

والحال أنّ الشيوعية تلغي الحقائق الثابتة، تلغي الأديان والأخلاق بدلًا من تجديد تشكيلها، فهي تـناقض، إذن، التطورات التاريخية السابقة كلّها، فإلام تؤول هذه التهمة؟

إنّ تاريخَ كل مجتمع، حتَّى الآن، كان يتحرَّك في تناحرات طبقية، اتَّخذت أشكالًا

مختلفة حسب العهود المختلفة.

ولكن مهما كان الشكل الذي اتَّخذته هذه التناحرات على الدوام، فإنّ استغلال قسم من المجتمع للقسم الآخر هو واقع واحد لجميع العصور السالفة، ولا عجب إذن إن كان الوعي المجتمعي، في كلِّ العصور، يتحرَّك، رغم التنوع والتباين، في أشكال مشتَركة (واحدة) معيَّنة، في أشكال من الوعي لا تنحلّ تمامًا إلاّ بزوال التناحر الطبقي كُلِّيًا.

فالثورة الشيوعية، هي القطيعة الأكثر جذرية مع علاقات الملكية المُتوارثَة، ولا غرابة في أن تقطع في مجرى نموِّها، بجذرية أشدّ، صلتها بالأفكار المتوارثة.

ولكن، دعونا من اعتراضات البرجوازية على الشيوعية.

فقبلًا رأينا أنّ الخطوة الأولى في ثورة العمّال هي ترفيع البروليتاريا إلى طبقة سائدة والفوز بالديمقراطية.

فالبروليتاريا ستستخدم سلطتها السياسية لتَنتَزع من البرجوازية تدريجيًّا، رأس المال كله، ولِتُمركز أدوات الإنتاج كلّها في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظَّمة في طبقة سائدة، ولتزيد حجم القوى المنتِّجة بأقصى سرعة ممكنة.

وفي البداية، لا يمكن حدوث ذلك طبعًا، إلاّ بالانتهاك الاستبدادي لحقّ الملكية ولعلاقات الإنتَّاج البرجوازية، أي بتدابير تبدو، إقتصاديًّا ناقصة وغير مأمونة البقاء، لكنّها تتجاوز نفسها في مجرى الحركة، وهي لا غنى عنها كوسيلة لقلب نمط الإنتَّاج بأسره.

وطبعًا تختلِفُ هذه التدابير تبعًا لاختلاف البلدان.

غير أنّ تطبيق التدابير الآتية ممكن، بصورة عامَّة تقريبًا، بالنِّسبة إلى البلدان الأكثر تقدُّمًا:

١ - نزع الملكية العقارية وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة.

٢- (فرض) ضريبة تصاعدية مرتفعة.

٣- إلغاء قانون الوراثة.

٤- مصادرة ملكية جميع المهاجرين والعُصاة.

٥- مركزة التسليف في أيدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة والإحتكار له وحده.

٦- مركزة وسائل النقل في أيدي الدولة.

٧- تكثير الفبارك الوطنية وأدوات الإنتاج، واستصلاح الأراضي المَوَات وتحسين الأراضي المزروعة، وفق تخطيط عام.

٨- عمل إلزامي متكافئ للجميع، وتنظيم جيوش صناعية، لا سيَّما للزراعة.

٩- التوفيق بين العمل الزراعي والصناعي، والعمل تدريجيًّا على إزالة الفارق بين المدينة والريف.

١٠- تربية عامَّة ومجّانية لجميع الأطفال، وإلغاء عمل الأولاد في الفبارك بشكله الراهن، والتوفيق بين التربية والإنتاج المادي، إلخ..

وما إن تختفي في سياق التطور، الفوارق الطبقية، وما إن يتجمَّع الإنتاج كلّه في أيدي الأفراد المتشاركين، حتَّى تفقد السلطة العامَّة طابعها السياسي؛ فالسلطة العامَّة طابعها السياسي، فالسلطة السياسية، بمعناها الحقيقي، هي العنف المنظَّم لطبقة في سبيل قمع طبقة أخرى.

فعندَّما تتوحَّد البروليتاريا وجوبًا في طبقة إبّان كفاحها ضد البرجوازية، وعندما تـنصِّبُ نفسها بثورة طبقة سائدة، وتُلغي علاقات الإنتَّاج القديمة بالعنف، بصفتها

طبقة سائدة، فإنَّها تلغي أسباب وجود التناحر الطبقي وتلغي بالتَّالي الطبقات عامة، تُلغي سيطرتها الخاصَّة كطبقة.

ومحلُّ المجتمع البرجوازي القديم، بطبقاته وتناحراته الطبقيَّة، يحلّ تجمُّع تشارُكيّ، يكون فيه التبسُّط الحرُّ لكُلِّ فردٍ شرطًا للتبسُّط الحُرِّ للجميع.

(الفصل الثالث)
الأدب الاشتراكي والشيوعي

١ - الإشتراكية الرجعية.

٢ - الإشتراكية الإقطاعية.

وَجدت الأرستقراطية الفرنسية والإنكليزية نفسها مدعوّة، بحكم موقعها التاريخي، إلى كتابة قطع هجائية ضدّ المجتمع البرجوازي الحديث، ففي ثورة تمُّوز (يوليو) الفرنسية عام ١٨٣٠، وفي حركة الإصلاح الإنكليزية، كانت قد انهزمت مرة أخرى، أمام هذا الوصوليّ المقيت، فلم يعد ممكنًا الحديث عن نِضَالٍ سياسي جديّ؛ لقد بقي لها النضال الأدبي فقط، ولكنَّ التشدقات الكلامية القديمة، عهد إعادة المَلَكية[١]، غدت في ميدان الأدب أيضًا مستحيلة.

ولتستدرَّ العطف اضطرت الأرستقراطية إلى التظاهر بالتخلّي عن مصالحها، وإلى وضع قرارها الإتّهامي ضد البرجوازية لمصلحة الطبقة العاملة المستَغلَّة فقط، وعلى هذا الوجه وفَّرت لنفسها لذَّة هجاء سيّدها الجديد بواسطة الأغاني، والغمغمة في أذنه بتنبؤات مشحونة بفيض من النُذُر.

وهكذا نشأت الإشتراكية الإقطاعية مزيجًا من نحيبٍ وهجاءٍ مِنْ صدى الماضي ووعيد المستقبل، مصيبة أحيانًا البرجوازية في الصميم بحُكمٍ قاسٍ ثاقبٍ، ومُثيرة السخرية باستمرار لعجزها التَّام عن إدراك مسيرة التاريخ الحديث.

١- المقصود هنا، ليس إعادة المَلَكية في إنكلترا ١٦٦٠ - ١٦٨٩، بل في فرنسا ١٨١٤ - ١٨٣٠. (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية ١٨٨٨).

فعوضًا عن التلويح بالرّاية لوَّح الأرستقراطيون بمخلاة التسوّل البروليتارية، ليحشروا الشعب خلفهم، لكنَّه ما إن تَبِعهم حتَّى لمح على عجيزتهم شارات النَّسَب الإقطاعية القديمة، فانفضَّ عنهم بقهقهات وقحة مستخفَّة.

وقد أجاد في تمثيل هذا المشهد قسم من الشرعيين الفرنسيين ومن إنكلترا الفتاة.

وعندَّما يبرهن الإقطاعيون على أنّ نمط استغلالهم كان يختلف عن نمط الإستغلال البرجوازي، ينسَون فقط أنَّهم كانوا يُستَغلَّون في أوضاعٍ وشروطٍ مختلفة كلِّيًا ولّى اليوم عهدها.

وعندَّما يُثبتون أنّ البروليتاريا الحديثة لم تكن موجودة في ظلِّ سيطرتهم، ينسَون فقط أنّ البرجوازية الحديثة كانت، ضبطًا، وليدًا واجب الوجود لنظامهم المجتمعي.

وزد على ذلك أنَّهم قلّما يُخفون الطابع الرجعي لانتقادهم، إذ أنّ مأخذهم الرئيسي على البرجوازية يَكمُن، ضبطًا، في القول إنّ الطبقة التي تتبسَّط في ظلّ نظامها، ستنسف التظام المجتمعي القديم برُمّته.

وهم لا يلومون البرجوازية، أكثر ما يلومونها، لأنها أنجَّبت البروليتاريا بشكل عام، بل لأنَّها أنجَّبت البروليتاريا الثورية.

ولذا فإنَّهم في الممارسة السياسية يشتركون في جميع التدابير القمعية ضد الطبقة العاملة، ورغمًا عن تشدقاتهم الجوفاء فإنَّهم في حياتهم الإعتيادية يَرتضون التقاط التفَّاحات الذهبية، ومقايضة الوفاء والحبِّ والكرامة بالمتاجرة بالصوف والشمندر والعرق[1].

١ – هذا ينطبق بالدرجة الأولى على ألمانيا، حيث الأرستقراطيون الزراعيون وكبار أصحاب الأراضي الألمان، يشرفون على إدارة الشؤون الاقتصادية في القسم الأكبر من أراضيهم، على حسابهم الخاص بواسطة الوكلاء، و حيث يملكون علاوة على ذلك معامل كبير للسكر و العرق. أمّا أغنى الأرستقراطيين الإنكليز فلم تبلغ بهم الحال بعد هذه الدرجة، إلاّ أنهم يعرفون هم أيضا كيف يُعوّضون عن هبوط الريع بإعطاء أسمائهم لمؤسسي شركات مساهمة، مشكوك فيها إلى هذا الحد أو ذاك. (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية ١٨٨٨).

ومثلما سار الكاهن والإقطاعي دومًا يدًا بيد، تَسير الإشتراكيَّة الكهنوتيَّة والإشتراكيَّة الإقطاعيَّة.

فلا شيء أسهل من إضفاء صبغة الإشتراكية على التنسّك المسيحي!

ألم تُـلغِ المسيحية أيضًا الملكية الخاصة والزواج والدولة؟

وبدلًا منها، ألم تعظ بالصدقة والتسوُّل والتبتُّل وأمانة الجسد، والحياة الرهبانية والكنسية؟

فالإشتراكية المسيحية ليست إلاّ الماء المقدّس الذي يكرِّس به الكاهن حقد الأرستقراطي.

ب – الإشتراكية البرجوازية الصغيرة:

الأرستقراطيَّة الإقطاعيَّة ليست الطبقة الوحيدة التي أطاحتها البرجوازية، والتي ذبُـلت شروط حياتها وهلكت في المجتمع البرجوازي الحديث، فإنّ برجوازيي المدن وفئة الفلاحين الصغار في القرون الوسطى كانوا طلائع البرجوازية الحديثة.

وهذه الطبقة لا تزال، في البلدان الأقل تطورًا صناعيًّا وتجاريًّا، تعيش حياةً خامِلَةً إلى جانب البرجوازية الصاعدة.

وفي البلدان، التي نمت فيها الحضارة الحديثة، تكوَّنت برجوازية صغيرة جديدة تتأرجح بين البروليتاريا والبرجوازية، وهي كجزء مكمِّل للمجتمع البرجوازي لا تفتأ تعيد تشكيل نفسها؛ ومن جرّاء المزاحمة ينحدر أفرادها باستمرار إلى (صفوف) البروليتاريا؛ بالإضافة إلى ذلك يرون، مع نمو الصناعة الكبيرة، اقتراب الساعة التي سيضمحلّون فيها كليّا، بوصفهم قسمًا مستقلًّا عن المجتمع الحديث، ليحُلّ محلهم، في التجارة والمانيفاتورة والزراعة، نُظّار العمل والمستخدمين.

وكان طبيعيًّا، في بلدان مثل فرنسا، حيث تُشكّل طبقة الفلاحين أكثر من نصف السكان، أن يَعمد الكُـتّاب، الذين يناصرون البروليتاريا ضد البرجوازية، إلى استخدام معيار برجوازي صغير وفلاحي صغير في نقدهم النظام البرجوازي، وأن ينحازوا إلى العمَّال من وجهة نظر البرجوازية الصغيرة، وعلى هذا الوجه تكوَّنت الإشتراكية البرجوازية الصغيرة.

وسيسموندي[1] هو زعيم هذا الأدب لا في فرنسا فحسب بل في إنكلترا أيضًا.

فهذه الإشتراكية حلّلت، بكثير من الفطنة، التناقضات في علاقات الإنتاج الحديثة، وفضحت تبريرات الإقتصاديين المنافقة، وأثبتت، بشكل لا يُدحض، التأثيرات المدمِّرة للمكننة، وتقسيم العمل، وحصر رؤوس الأموال والملكية العقارية، والإنتاج الزائد، والأزمات والإنحلال المحتَّم للبرجوازيين الصغار والفلَّاحين الصغار، وبؤس البروليتاريا، والفوضى في الإنتاج، والتفاوت الصارخ في توزيع الثروة، والحرب الصناعية الماحقة بين الأمم وانحلال العادات القديمة، والعلاقات العائلية القديمة، والقوميات القديمة.

وهذه الإشتراكية، بحسب مضمونها الوضعي، تريد إمّا إعادة وسائل الإنتَّاج والتبادل القديمة، وبذلك تعيد علاقات الملكية القديمة والمجتمع القديم، وإمّا حصر وسائل الإنتاج والتبادل الحديثة بالقوَّة في إطار علاقات الملكية القديمة الذي نَسفته،

---

١ – عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: جون شارل لينارد دي سيسموندي ١٩ مايو ١٧٧٣م – ٢٥ يونيو ١٨٤٢م) ولد في جنيف بسويسرا. وهو كاتب ومؤرخ اقتصادي، ومن أنصار مذهب التدخل (Interventionism)، الذي يعتبر وسطًا بين مذهب الاشتراكية والمذهب الطبيعي، وهو مؤرخ معروف بكتاباتهِ في التاريخ الفرنسي والأيطالي، ولقد هاجم سيسموندي آراء وأفكار المذهب الحر الطبيعي (Physiocrats) في كثير من الاراء التي كان يروج لها أنصاره، ودعى إلى الاهتمام بتحسين حالة العمال وتأمين السلامة الصناعية وضمان حالاتالبطالة والمرض والعجز. وقد مهدت آراءهُ لفكرة الضمان الاجتماعي. وكان لكتبهِ وخصوصاً كتاب(المباديء الجديدة للاقتصاد السياسي الأثر الفعال لتمهيد الطريق للنظرية التاريخية الألمانية.

والذي لا بدّ من نسفه، وهي في كلتا الحالتين رجعيّة وطوباوية في آن واحد.

النظام الحرفي في المانيفاتورة، والإقتصاد البطريركي في الريف: تلك هي كلمتها الأخيرة، وهذا الإتّجاه إنتهى، في تطوره اللاحق، إلى مُواءٍ جبان.

ج – الإشتراكية الألمانية أو الإشتراكية «الصحيحة»:

إنّ الأدب الإشتراكي والشيوعي في فرنسا، الذي نشأ تحت ضغط برجوازية مسيطرة، تعبيرًا أدبيًّا عن النضال ضدّ هذه السيطرة، أُدخِل إلى ألمانيا في وقت كانت البرجوازية (الألمانية) تستهلُّ نضالها ضد الإقطاعية الإستبدادية.

وبشراهة تخاطف الفلاسفة، وأدعياء الفلسفة، والأدباتية الألمان، هذا الأدب، ولكنَّهم نسوا أنّ نزوح تلك الكتابات، من فرنسا إلى ألمانيا، لم يرافقه في الوقت نفسه نزوح أوضاع الحياة الفرنسية، ففقد الأدبُ الفرنسي، في الأوضاع الألمانية، كُلَّ أهميَّة عمليَّة مباشرة، واتَّخذ وجهًا أدبيًّا بحتًا، ومن ثُمَّ كان لا بدَّ مِنْ أن يبدو كتأمُّل لا نفع فيه حول تحقيق الجوهر الإنساني، وهكذا، لم تكن مطالب الثورة الفرنسية الأولى، في نظر الفلاسفة الألمان في القرن الثامن عشر، سوى مطالب «العقل المعياري» بصورة عامة، وتجلِّيات إرادة البرجوازية الثورية الفرنسية، لم تكن تعني في نظرهم، سوى قوانين الإرادة البحتة، الإرادة كما ينبغي أن تكون، الإرادة الإنسانية الحقَّة.

والعمل الوحيد للأدباء الألمان كان ينحصر في التوفيق بين الأفكار الفرنسية الجديدة جدانهم الفلسفي القديم، أو بالأحرى في انتحال الأفكار الفرنسية انطلاقًا من آرائهم الفلسفية؛ وهذا الإنتحال تمَّ بالطريقة نفسها التي يتعلَّم بها المرء عادةً لغة أجنبية، أي بواسطة الترجمة.

ومعروف كيف استبدل الرهبان عناوين المخطوطات، المنطوية على الأعمال الكلاسيكية للعهد الوثني القديم، بعناوين حكايات سمجة لقدّيسين كاثوليك!

أمّا الأدباء الألمان فقد تصرَّفوا حيال الأدب الفرنسي الدنيوي على عكس ذلك، لقد ذيَّلوا الأصل الفرنسي بهرائهم الفلسفي، فكتبوا، مثلًا تحت النقد الفرنسي للعلاقات المالية: «تجريد الكائن البشري»، وتحت النقد الفرنسي للدولة البرجوازية: «إلغاء سيطرة الكلّي المجرَّد» إلخ..

إنَّ دسّ هذه العبارات الفلسفية الجوفاء، تحت التطويرات الفرنسية، عمَّدوه بأسماء، مثل «فلسفة الفعل»، و«الإشتراكية الحقّة»، و«علم الإشتراكية الألمانية»، و«التعليل الفلسفي للإشتراكية»، إلخ..

وبهذه الطريقة خُصي الأدب الإشتراكي-الشيوعي الفرنسي خصيًا واضحًا.

وبما أنَّ هذا الأدب كفَّ في أيدي الألمان، عن التعبير عن نضال طبقة ضد أخرى، تصوّر الألمان أنَّهم تجاوزوا «المحدودية الفرنسية»، وأنّهم دافعوا لا عن الحاجات الحقيقية، بل عن الحاجة إلى الحقيقة، ولا عن مصالح البروليتاري، بل عن مصالح الكائن البشري، مصالح الإنسان على العموم، الإنسان الذي لا ينتَّمي إلى أيِّ طبقة، ولا إلى الواقع إطلاقًا، بل ينتَّمي فحسب إلى سماء الخيال الفلسفي المضبَّبة.

وهذه الإشتراكية الألمانية، التي حملت تمارينها المدرسية الحمقاء على محمل الجد والمهابة الكبيرين، وزمَّرت لها وطبّلت بمثل هذا الزعيق، فقدت شيئا فشيئا براءتها الدعية.

فإنّ نضال البرجوازية الألمانية لا سيّما البرجوازية البروسية، وبكلمةٍ: نضال الحركة الليبيرالية ضدّ الإقطاعيين والملكية المطلقة، أصبح أكثر جديّة.

وبهذا الشكل أتيحت للإشتراكية «الحقّة» الفرصة المنشودة لمواجهة الحركية السياسية بالمطالب الإشتراكية، ولصبّ اللعنات التقليدية على الليبرالية، والنظام التمثيلي، والمزاحمة البرجوازية، وحرِّية الصحافة البرجوازية، والقانون البرجوازي،

والحرية والمساواة البرجوازيتين، ولتحذير الجماهير من أنَّها لا تكسب شيئًا من هذه الحركة البرجوازية، بل بالعكس ستخسر فيها كلَّ شيءٍ قسها عن الإشتراكية الألمانية، ضبطًا، أنّ النقد الفرنسي الذي كانت هي صداه البليد يستلزم وُجود المجتمع البرجوازي الحديث مع الشروط الحياتية المادية المُطابقة له، ومع الدستور السياسي المُناسب، تلك المستلزمات التي كان العمل يجري في ألمانيا لتحقيقها.

فالإشتراكية خَدمت الحكومات الألمانية المُطلقة وحاشيتها، من كهنة وعلماء تربية وإقطاعيين بُلداء وبيروقراطيين[1]، كفزّاعة منشودة ضدّ وعيد البرجوازية المتصاعد.

والإشتراكية شكّلت التكملة المتكلِّفة الحلاوة، لمرارة لذع السياط وطلقات البنادق، التي تصدَّت بها الحكومات نفسها للإنتفاضات العمّالية الألمانية.

وإن كانت الإشتراكية «الحقّة» قد غدت، بهذه الصورة، سلاحًا في أيدي الحكومات ضد البرجوازية الألمانية، فإنّها كانت تُمثّل مباشرةً مصلحة رجعية، مصلحة البرجوازية الألمانية الصغيرة و(هذه) البرجوازية الصغيرة، التي خلّفها القرن السادس عشر والتي ما انفكَّت تظهر بأشكال مختلفة، تشكِّل في ألمانيا الأساس المجتمعي الفعليّ للأوضاع القائمة.

فالحفاظ عليها هو الحفاظ على الأوضاع الألمانية القائمة، وهي تخاف من الهلاك المبين أمام السيطرة الصناعية والسياسية للبرجوازية، نتيجة لتمركز رأس المال من ناحية،

١- عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: البيرُوقراطية أو الدواوينية هي مفهوم يستخدم في ~~علم الاجتماع والعلوم السياسية~~ يشير إلى تطبيق القوانين بالقوة في المجتمعات المنظمة. وتعتمد هذه الأنظمة على الإجراءات الموحدة وتوزيع المسؤوليات بطريقة هرمية والعلاقات الشخصية. وهنالك العديد من الأمثلة على البيرقراطية المستخدمة يومياً: الحكومات، القوات المسلحة، الشركات، المستشفيات، المحاكم، والمدارس. يعود أصل كلمة البيرقراطية إلى بيرو (bureau) أي مكتب، المستخدمة في بداية القرن الثامن عشر ليس للتعبير عن كلمة مكتب للكتابة فقط بل للتعبير عن الشركة، وأماكن العمل. وكلمة قراطية وهي مشتقه من الأصل الإغريقي كراتُس (κράτος) ومعناها السلطة والكلمة في مجموعها تعني قوة المكتب أو سلطة المكتب.

ولبروز بروليتاريا ثورية من ناحية أخرى؛ وقد تراءى لها أنّ الإشتراكية «الحقّة» قادرة على إصابة عصفورين بحجر واحد، فـتفشّت (الإشتراكية) تفشّي الوباء.

والحُلّة المصنوعة من شفافية النظريات التجريدية، والمطرَّزة بمحسِّنات لفظيّة، والمسبقة بندى الوجد الدافئ، هذه الحُـلّة، التي غلَّف بها الإشتراكيون الألمان بِضْعًا من «حقائقهم الخالدة» (الثابتة) الهزيلة، لم تَزد إلاّ في رواج بضاعتهم لدى الجمهور.

وأكثر فأكثر أدركت الإشتراكية الألمانية من جهتها، أنَّ مهمَّتها هي أن تكون المثل الطنّان لهذه البرجوازية الصغيرة.

فأعلنت أنّ الأمة الألمانية هي الأمة السويَّة، وأنّ البرجوازي الألماني الصغير هو الإنسان السوي، وأضفت على نذالته كلِّها معنى غامضًا ساميًا واشتراكيًّا، جعلها تدلُّ على عكس واقعها، وآل بها المطاف إلى التصدِّي مباشرةً للإتِّجاه الشيوعي «الهدّام الفظّ»، وأعلنت أنَّها تحلّق بتجرّد فوق كلِّ الصراعات الطبقية.

وعدا استثناءات قليلة جدًّا فإنّ كلَّ الكتابات الإشتراكية والشيوعية المزعومة، المتداولة في ألمانيا، تنتَّمي إلى قطاع هذا الأدب القذر المثير للأعصاب[1].

٢ – الإشتراكية المحافظة أو الإشتراكية البرجوازية:

يرغب قسم من البرجوازية في معالجة الأوضاع المجتمعية السيئة لضمان بقاء المجتمع البرجوازي.

ويندَّرج في هذا القسم: إقتصاديون وخيِّرون وإنسانيون ومحسّنو وضع الطبقات الكادحة، ومنظِّموا أعمال البر والإحسان وجمعيات الرفق بالحيوان، وجمعيات الإعتدال و القناعة، ومصلحون ضيقو الأفق من كلِّ الأصناف. واشتراكية البرجوازيين هذه

١ – عاصفة ثورة عام ١٨٤٨ كنست هذا الإتجاه الرث كله، وأفقدت داعامة الرغبة في مواصلة الانشغال بالاشتراكية، والمثل الرئيسي، بل النمط الكلاسيكي لهذا الإتجاه، هو السيد كارل غرون (ملاحظة إنجلس الطبعة الألمانية ١٨٩٠).

صيغت في مذاهب كاملة.

ونورد، مثالًا على ذلك، (كتاب): «فلسفة البؤس» لبرودون[1].

فالبرجوازيون الإشتراكيون يريدون شروط حياة المجتمع الحديث، (لكن) بدون النضالات والأخطار الناجمة عنها بالضرورة.

إنّهم يريدون المجتمع القائم منقًّى من العناصر التي تثوِّره وتهدمه.

إنّهم يريدون البرجوازية بدون البروليتاريا، وبالطَّبع تتصور البرجوازية العالم الذي تسود فيه كأفضل العوالم، واشتراكية البرجوازيين تصوغ من هذا التصوّر المعزّي نصف مذهب أو مذهبًا كاملًا، وهي بدعوتها البروليتاريا إلى تحقيق مذاهبها والدخول إلى أورشليم الجديدة، تطالب في الحقيقة فقط بأن تتشبّث (البروليتاريا) بالمجتمع الراهن، على أن تنفض عنها تصورات كراهيتها لهذا المجتمع.

وهناك شكلٌ آخر لهذه الإشتراكية، عمليًّا أكثر وأقل تمذهبًا، سعى إلى جعل الطبقة العاملة تنفر من كلِّ حركة ثورية، بالبرهنة على أنّ ما يسعه أن يُفيدها، ليس هذا التغيير السياسي أو ذاك، وإنّما فقط تغيير أوضاع الحياة المادية، أي الأوضاع الإقتصادية، وهذه الإشتراكية لا تفهم إطلاقًا أنّ تغيير أوضاع الحياة المادية يقتضي إلغاء علاقات الإنتَّاج البرجوازية، الذي لا يتمّ إلاّ بالطريق الثوري، بل تعني إصلاحات إدارية تستند إلى أساس علاقات الإنتَّاج هذه، أي أنَّها لا تغيِّر شيئًا في العلاقة بين رأس المال والعمل المأجور، بل تـقلِّل، في أفضل الأحوال، نفقات سيطرة البرجوازية وتخفف ميزانية الدولة.

فاشتراكية البرجوازيين لا تبلغ تعبيرها المُلائم إلاّ عندَّما تسمي مجرَّد تعبير بياني، فحرِّية التجارة، لمصلحة الطبقة العاملة، والحماية الجمركية، لمصلحة الطبقة العاملة، والسجون الإنفرادية، لمصلحة الطبقة العاملة: هذه هي الكلمة الأخيرة والوحيدة

١- عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: بيير جوزيف برودون، ~~بالفرنسية~~ Pierre-Joseph Proudhon رحمه الله، عاش: ١٥ كانون الأول ١٩ - ~~محمد~~ كانون الأول ١٨٦٥، سياسي فرنسي وفيلسوف تبادلي واشتراكي، كان عضوًا بالبرلمان الفرنسي، وكان أول شخص يطلق على نفسه «لاسلطوي». يعتبر واحدًا من أكثر المنظرين والمنظمين للاسلطوية.

الجادَّة، التِّي تقصدها اشتراكية البرجوازيين.

فاشتراكية البرجوازية لا تكمن إلاّ في الإدِّعاء القائل: إنّ البرجوازيين هم برجوازيون، لمصلحة الطبقة العاملة.

٣ - الإشتراكية والشيوعية النقديتان الطوباويتان:

وهنا لا نتحدَّث عن الأدب الذي أعرب، في كلِّ الثورات الكبرى الحديثة، عن مطالب البروليتاريا (كتابات بابوف، إلخ..)

فالمحاولات الأولى للبروليتاريا، لتغليب مصالحها الطبقية مباشرة في زمن غليان عام عهد انهار المجتمع الإقطاعي، أخفقت بالضرورة نظرًا إلى جنينية البروليتاريا نفسها، وإلى فقدان الشروط المادية لتحرّرها، التي هي، قبل كلِّ شيءٍ، حصيلة العصر البرجوازي.

والأدب الثوري، الذي كان يرافق هذه الحركات الأولى للبروليتاريا، هو بالضَّرورة رجعي المحتوى، فهو يدعو إلى تقشُّف عام، إلى مساواتيَّة فجَّة.

وفي الحقيقة فإنّ المذاهب الإشتراكية والشيوعية، مذاهب سان سيمون، وفورييه، وأوين، إلخ.. ظهرت في الحقبة الأولى الجنينية من الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية، أي في الحقبة التي ذكرناها آنفا (راجع: برجوازية وبروليتاريا).

إنّ مبتدعي هذه المذاهب يستبينون حقًّا التناحر بين الطبقات، مثلما يستبينون تأثير العناصر الهدّامة في المجتمع السائد نفسه، لكنَّهم لا يتبيَّنون في إتّجاه البروليتاريا أيّ فعل تاريخي تلقائي، أو أيّة حركة سياسية خاصَّة بها.

ولمَّا كان نمو التناحر الطبقي يواكب نمو الصناعة، فإنّهم كذلك لا يعثرون على الشروط المادية لتحرّر البروليتاريا، ويأخذون في البحث عن علم مجتمعي، عن قوانين مجتمعية، لخلق هذه الشروط.

فعن النشاط المجتمعي يستعيضون بنشاط حذاقتهم الشخصية، وعن الشروط التاريخية للتحرر (يستعيضون) بشروط كيفية، وعن تنظيم البروليتاريا في طبقة تنظيمًا تدريجيًا متصاعدًا (يستعيضون) بتنظيم للمجتمع يختلقونه، وفي نظرهم، فإنّ تاريخ العالم المقبل ينحلّ في الدعاية وفي التنفيذ العملي لتصاميمهم المجتمعية.

ولكنَّهم يعون أنّهم بتصاميمهم يُدافعون بالدرجة الأولى عن مصالح الطبقة العاملة، بوصفها الطبقة الأكثر معاناة، فالبروليتاريا بالنسبة إليهم لا تكون إلا بهيئة الطبقة الأكثر معاناة.

وعن الشكل الأوَّلي للصراع الطبقي، وكذلك عن وضعهم المعيشي، ينتُّج اعتقادهم بأنَّهم فوق كلِّ تناحر طبقي، فهم يريدون أن يُحسِّنوا الوضع الحياتي لكلِّ أعضاء المجتمع، حتى لأكثرهم يسرًا، ولذا يتوجَّهون باستمرار إلى المجتمع بأسره بدون تمييز، بل (يتوجَّهون) بالأحرى إلى الطبقة السائدة، فحَسْب المرء أن يفهم مذهبهم كي يعترف بأنّه أفضل خطَّة ممكنة لأفضل مجتمع ممكن.

فهم إذن، ينبذون كلَّ نشاط سياسي، وخصوصا كلَّ نشاط ثوري، ويريدون بلوغ هدفهم بطريقة سلمية، ويحاولون أن يشقُّوا الطريق للإنجيل المجتمعي الجديد بتجارب صغيرة فاشلة بالطبع وبقوة المثال.

وهذا الوصف الخياليّ للمجتمع المقبل، ومما زالت فيه البروليتاريا الضعيفة النمو إلى حدّ بعيد تَنظر في وضعها بكيفية هي ذاتها خياليّة، ينبثق من اندفاعاتها السليقية الأولى نحو تحويل المجتمع تحويلًا شاملًا.

بَيْد أنّ الكتابات الإشتراكية والشيوعية تشتمل أيضًا على عناصر نقدية، فهي تهاجم المجتمع القائم بكلِّ أسسه، ومن ثم فإنّها تُـقدِّم مادة قيّمة جدًّا لتنوير العمال.

إنّ موضوعاتها الإيجابية عن مجتمع المستقبل، مثل إزالة التناقض بين المدينة

والريف، وإلغاء العائلة، والربح الخاص، والعمل المأجور، والمناداة بالإنسجام المجتمعي، وبتحويل الدولة إلى مجرّد إدارة للإنتاج، هذه الموضوعات كلُّها لا تعبّر إلاّ عن إلغاء التناحر الطبقي الذي ابتدأ ينمو، والذي لا تعرف هذه الكتابات إلاّ شكله الأوّلي المبهم غير المحدد، ولذا ليس لهذه الموضوعات حتَّى الآن سوى معنى طوباوي صرف.

فأهمية الإشتراكية والشيوعية النقديتين الطوباويتين، تتناسب عكسًا والتطور التاريخي؛ فبقدر ما ينمو الصراع الطبقي وينجسم، يفقد هذا الترفُّع الخيالي عن هذا الصراع، و(تفقد) مكافحته المتخيلة، كلَّ قيمة عملية، وكلَّ تبرير نظري، ولهذا، إذا كان واضعوا هذه المذاهب ثوريين في كثير من النواحي، فإنّ مريديهم يؤلفون في كلِّ حين شيعًا رجعية، فهم يتشبّثون بآراء أساتذتهم القديمة تجاه التطور التاريخي المطّرد للبروليتاريا.

ولذا يسعَون بإصرار إلى إخماد الصراع الطبقي الجديد، وإلى التوفيق بين التناقضات، فهم لا يزالون يحلمون بأن يحققوا تجريبيًّا طوباوياتهم المجتمعية -إقامة الفالانستيرات[١] المعزولة، وتأسيس مستوطنات داخلية[٢]، وتأسيس إيكارية[٣] صغيرة- طبعة مُصغَّرة عن أورشليم الجديدة - ولبناء هذه القصور كلها على الرمال توجَّب عليهم أن يُناشدوا رأفة القلوب والجيوب البرجوازية!

وشيئًا فشيئًا ينحدرون إلى مصاف فصيلة الإشتراكيين الرجعيين أو المحافظين الذين جرى وصفهم آنفًا، وهم لا يختلفون عنهم إلاّ بحذلقة أكثر منهجية، وباعتقاد خرافيّ متعصّب بالمفعول العجائبي لعملهم المجتمعي.

١- فلانستير، إسم القصور الإجتماعية التي تخيّلها فورييه. (ملاحظة إنجلس الطبعة الألمانية ١٨٩٠)

٢- المستوطنات الداخلية olonies عليه السلام - ome رضي الله عنه. هكذا سمى أوين مجتمعاته الشيوعية النموذجية. (ملاحظة إنجلس الطبعة الألمانية ١٨٩٠)

٣- إيكارية carie رضي الله عنه، إسم أطلقه كابه على بلد تخيّله، ثم على مستعمرة شيوعية، أنشأها في أمريكا. (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية ١٨٨٨)

ولذا يتصدّون بضراوة لكلِّ حركة سياسية عُمّالية، إذ لا يُمكن أن تصدر إلاّ عن كفر أعمى بالإنجيل الجديد.

الأوينيون في إنكلترا، والفورييويون في فرنسا، يقاومون هناك الشارتيين وهنا الإصلاحيين.

الفصل الرابع
موقف الشيوعيين من مختلف أحزاب المعارضة

وفقًا للفصل الثاني يتَّضح بالبداهة موقف الشيوعيين من الأحزاب العمَّالية القائمة، وبالتَّالي موقفهم من الشارتيين في إنكلترا، والإصلاحيين الزراعيين في أمريكا الشمالية.

فهم (الشيوعيون) يناضلون لتحقيق الأهداف والمصالح المباشرة للطبقة العاملة، لكنَّهم في الوقت نفسه يمثِّلون، في الحركة الراهنة، مستقبل الحركة.

في فرنسا ينضم الشيوعيون إلى الحزب الإشتراكي - الديمقراطي[1] ضدّ البرجوازية المحافظة والراديكالية، بدون أن يتخلوا عن حقِّ اتّخاذ موقف نقدي من الجُمل الرنَّانة والأوهام التي خلَّفها التقليد الثوري.

وفي سويسرا، يساندون الراديكاليين، بدون أن يَغيب عن بالهم أنّ هذا الحزب يتكوّن من عناصر متناقضة، متَّسم (مُؤلَّف) من إشتراكيين وديمقراطيين بالمفهوم الفرنسي للكلمة، وقسم من برجوازيين راديكاليين.

وفي بولونيا (بولندا) يساند الشيوعيون الحزب الذي يجعل من الثورة الزراعية

١- هذا الحزب كان يمثّله في البرلمان حينئذ ليدرو رولان، و في الأدب لوي بلان، و في الصحافة اليومية جريدة «لا ريفورم» (الإصلاح). و كانوا يشيرون بالإشتراكي الديمقراطي، هذا الإسم الذي اخترعه، إلى هذا القسم من الحزب الديمقراطي أو الجمهوري الذي كان يتصف، إلى هذه الدرجة أو تلك، باللون الإشتراكي (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية ١٨٨٨). ما كان يُسمَّى حينئذ في فرنسا بالحزب الإشتراكي الديمقراطي، كان يُمثـله في السياسة ليدرو رولان، و في الأدب لوي بلان، و بالتالي كان بعيدا جدا عن الإشتراكية الديمقراطية الألمانية الحالية (ملاحظة إنجلس للطبعة الألمانية ١٨٩٠).

شرطًا للتحرر الوطني، أي ذلك الحزب الذي بثّ الحياة في انتفاضة كراكاو عام ١٨٤٦.

وفي ألمانيا يُناضل الحزب الشيوعي مع البرجوازية كلَّما قاومت البرجوازية مقاومة ثورية، النظام الملكي المطلق، والملكية العقارية الإقطاعية، والبرجوازية الصغيرة الضيِّقة الأفق.

بَيْدَ أنّه لا يتغافل لحظة عن خلق وعي، واضح قدر الإمكان، لدى العمَّال حول التناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا، حتَّى يستطيع العمَّال الألمان أن يوجّهوا فورًا الشروط المجتمعية والسياسية التي توجدها البرجوازية وسلطتها، كأسلحة عديدة، ضدّ البرجوازية، كي يبدأ النضال ضدّ البرجوازية نفسها فور إسقاط الطبقات الرجعية في ألمانيا.

فإلى ألمانيا يُوجِّه الشيوعيون اهتمامهم الرئيسي، لأنّ ألمانيا على أعتاب ثورة برجوازية، لأنّها ستنجز هذا التحول في شروط الحضارة الأوروبية الأكثر تقدُّمًا، ومع بروليتاريا نامية للغاية، أكثر منها في إنكلترا في القرن السابع عشر، وفي فرنسا في القرن الثامن عشر، لأنّ الثورة البرجوازية الألمانية بالتَّالي لا يُمكِنُها إلاّ أن تكون استهلالًا مباشرًا لثورة بروليتارية.

وباختصار يُساند الشيوعيون، في كلِّ مكان، كلَّ حركة ثورية ضد الأوضاع المجتمعية والسياسية القائمة.

وفي كلِّ هذه الحركات يُبرزون مسألة الملكية، مهما كانت درجة تطور الشكل الذي تتَّخذه، المسألة الأساسية للحركة.

وأخيرًا يعمل الشيوعيون، في كلِّ مكان، على إقامة العلاقات، وعلى تحقيق التفاهم بين الأحزاب الديمقراطية في جميع البلدان.

ويأنف الشيوعيون من إخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويُنادون علانية بأن لا سبيل لبلوغ أهدافهم إلاّ بإسقاط النظام المجتمعي القائم، بالعُنف.

فلترتعد الطبقات السائدة خوفًا من ثورة شيوعية، فليس للبروليتاريين ما يفقدونه فيها سوى أغلالهم وأمامهم عالمًا يكسبونه.

أيّها البروليتاريون، في جميع البلدان، اتَّحِدوا[1].

١ – هذا النداء درج على ترجمته بـ «يا عمّال العالم، إتحدوا».

المقال 2

الرؤية

هل كان سقوطُ الدولةِ السوفيتية[1] سقوطًا لنظريات الفكر الشيوعي الماركسي؟

عندما نقرأ مراسلات ماركس وإنجلز، وحينما نتأمَّل أدبيات الحزب الشيوعي، نقف على أن التنظير الأول للشيوعية يقوم على تحليل الصراعات في المجتمعات البشرية، ويقال أنَّ البناء في تحليلاتهم يستند إلى الديالكتيك[2] الذي آمن به ماركس وإنجلز،

١ – مجموعة من الثورات في العام ١٩٨٩م اجتاحت بولندا وألمانيا الشرقية والمجر وغيرها من الدول تسببت في انهيار الأنظمة الشيوعية الحاكمة، وقد أُطلق عليها (خريف الدول، وثورات أوربا الشرقية، وغيرها من الأسماء).

٢ – تُرجمت اللفظة فقيل بأنَّ الديالكتيك يعني (الجدل)، وبالنسبة للنظرية الماركسية فقد استندت إلى (الجدل) في رؤى الفيلسوف الألماني هيغل (١٧٧٠–١٨٣١م) ولكن بتعديل جهوري عليها. يقول فيصل الأعوار/ حركة اليسار الاجتماعي الأردني: "والجدل عند هيغل هو ذلك التناقض بين الافكار والذي يؤدي الى بروز افكار جديدة، وهكذا يحدث التطور، فتتطور روح العالم نحو الكمال الاعظم. إذًا فالجدل عنده يتركز في ان هناك فكرة، فتاتي فكرة مناقضة لها، مما يؤدي الى بروز فكرة جديدة مختلفة عن الفكرتين السابقتين، وهي مركب من الفكرة ونقيضها. ومن خلال صراع الافكار وبروز افكار جديدة ينتقل الانسان في تحصيله للمعرفة، كما ونوعا و رأى هيغل ان الوصول إلى الوعي من المادة مستحيل، كما يرى الماديون، كما أن استخلاص المادة من الوعي كما تقول الأديان مستحيل، لذا نظر إلى الوعي بوصفه نتيجة للتطور السابق لجوهر أولي مطلق لا يشكل وحدة مطلقة للذاتي والموضوعي دون أي تمايز بينهما وعليه فالوحدة الأولية التي تشكل الأساس الجوهري للعالم هي وحدة الوجود والفكر حيث يتمايز الذاتي والموضوعي فكريا.
ونصل الى ان المحاور والمكونات الاساسية للعملية الديالكتية عند هيجل هي: ١– الفكرة ٢– نقيض الفكرة ٣– المركب من الفكرة ونقيضها".
ثُمَّ يُكمِل: "لاحظنا ان فلسفة هيغل قامت على فكرة ان الوعي سابق للمادة. لكن كارل ماركس (١٨١٨– ١٨٨٣ ميلادية)، استخدم الديالكتيك الهيغلي، لكن بطريقة معكوسة، حيث ان الديالكتيك الماركسي يقوم على اساس هو أن المادة سابقة للوعي على اعتبار أن المادة هي من تحدد مدارك الوعي، وبالتالي يتطور الوعي بتطور المادة المحيطة بالإنسان.

ولكنَّ الذي أراه هو أنَّهما انتهيا إلى الديالكتيك ولم ينطلقا منه.

تَعَرَّضَ الطرحُ الشيوعي في القرن التاسع عشر الميلادي إلى هجمات أوربية قويَّة أرادت تقويضه، وكان استنادها في معركتها تلك على تصويره بحيث يخافه الناس، فهو (شبح) كما يُصرِّح البيان في سطوره التمهيدية:

«شبحٌ ينتَّاب أوربا.. شبح الشيوعية.

ضد هذا الشبح اتحدتْ في طِرادٍ رهيب قوى أوربا العجوز كلها: البابا والقيصر ومترنيخ وغيزو، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني».

ويُظهِرُ البيان أنَّ كُلَّ حِزب مُعارض فإنَّه أمام تهمة (الشيوعية) لا محالة، وهذا ما تُسوِّقُ له السلطات -بحسب زعم البيان-.

ثُمَّ قال: «ولهذه الغاية اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات، ووضعوا البيان الآتي، الذي سيصدر باللغات: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والفلمنكية، والدنماركية».

بدأ البيان في فصله الأول تحت عنوان (برجوازيون وبروليتاريون) باستعراض الرؤية الشيوعية لحركة الصراع البشري على مَرِّ التاريخ، ومنها انتقل لتصوره الذي يصفه بالحتمي، عن مستقبل المجتمع البشري، ويرى أنَّ المآل إلى تلاشي طبقات المجتمع

فالوعي هو انعكاس عن المادة. وتتوافق الماركسية مع هيراقليطس بان الكون هو في حالة تغير وتطور مستمرين، وان هناك شيئا جديدا ينشأ نتيجة للتناقض بين القديم والجديد، بين كائن يتفسخ، وكائن ينهض من الموت. فالاسلوب الجدلي (الديالكتيكي) يتطلب دراسة الظواهر، ليس فقط من وجهة نظر علاقاتها المتبادلة واعتماد بعضها على البعض، بل كذلك من وجهة نظر حركتها وتغيرها وتطورها، من وجهة نظر نشوئها وزوالها. ولو تابعنا فكرة الجدلية عند الماركسيين لوجدناها واضحة عند مؤسسي الماركسية، كارل ماركس، وفريدريك انجلز، كما وعند مطوريها، لينين وغيره من قادة الشيوعية العالمية.»

وكُلِّ ما يميز طبقة عن أخرى.

يُرجِعُ بيانُ الحزب الشيوعي كُلَّ الصراعات المفصلية في المجتمع إلى الطبقية وما تورثه من ثقافات متضادَّة في ما بينها، ويراها غير ملائمة للطبيعة البشرية.

قال: «حُرٌّ وعبدٌ، نبيلٌ وعامِّي، بارون وقِنٌّ، معلم وصانع، وبكلمةٍ: ظالمون ومظلومون، في تعارض دائم، خاضوا حربًا متواصلة، تارةً معلنة، وطورًا مستترة، حربًا كانت تنتهي في كل مرة إمَّا بتحول ثوري للمجتمع كلِّه، إمَّا بهلاك كلتا الطبقتين المتصارعتين.»

تحولات وانتقالات بين المكوِّنات البشرية للطبقات، فالبرجوازية (العصرية) -بحسب البيان- ظهرت من أحشاء الإقطاعية، والمجتمع البشري يسير بخطى حتمية نحو انقسام ثنائي كبير يظهر في جبهتين هما: البرجوازية والبروليتاريا، ويرى الشيوعيون في أنفسهم الجهة المسؤولة عن تنظيم البروليتاريا على طريق الإنجَّاز الأكبر، وهو تلاشي الطبقات والفوارق في المجتمع البشري، غير أنَّ هذه المرحلة لم تحن بعد، ما لم يحدث الإنفجار (الثوري) الأعظم، وعندَه يطرح الشيوعي نفسه وصيًّا شرعيًّا على (الثورة) في مرحلة الحسم.

وأمَّا في مرحلة ما قبل (الإنفجار) فإنَّ المهمة الشيوعية محصورةٌ في تكريس ثقافة التمرُّد في عموم البروليتاريا ضد كُلِّ قانون لا يكون نابعًا منها، وكذلك تحطيم كل المقدسات والرمزيات، بما فيها (رمزية) الهدوء السياسي إذا ما عمَّ مجتمعًا من المجتمعات، إذ أنَّ هذا الهدوء لا يمكنه الصمود أمام أيّ حركة ثورية.

يقول البيان: «وانتظام البروليتاريين في طبقة، وبالتالي في حزب سياسي، تنسفه مجددًا وفي كل لحظة مزاحمةٍ بين العُمَّال أنفسهم، لكنَّه ينهض مرارًا وتكرارًا أقوى وأمتن وأشدَّ بأسًا، ويستفيد من الانقسامات في صفوف البرجوازية، فينتَّزع الاعتراف على وجه

قانوني ببعض مصالح العمَّال، مثل قانون العمل عشر ساعات (يوميًا) في إنجلترا».

نلاحظ هنا المحور الذي يُظهِرُه البيان في تحوُّل الحراك من جوهر السعي نحو تلاشي الطبقات إلى مطالب معيشية تكون في هذه المرحلة هي الغاية القصوى، ومنها تستمدُّ البروليتاريا قوَّتها في كُلِّ عودة لها، حتَّى باتت في حاجة إلى البرجوازية غايةً ووجودًا، وكذلك البرجوازية لحماية نفسها في الأخطار الخارجية.

يقول البيان: «وعمومًا فإنَّ صدامات المجتمع القديم تدفع بطرق شتَّى بتطور البروليتاريا قُدُمًا، فالبرجوازية تعيش في صراع دائم:

في البدء، ضدّ الأرستقراطية، ثم ضدّ تلك الأقسام من البرجوازية نفسها، التي تتناقض مصالِحُها مع تقدُّم الصناعة، ثُمَّ بصورة دائمة ضدّ برجوازية جميع البلدان الأجنبية.

وفي كلِّ هذه الصراعات تجد البرجوازية نفسها مضطرَّة إلى الاستنجاد بالبروليتاريا، وطلب معونتها، وبذلك تجرُّها إلى المعترك السياسي.

وهكذا فإنَّ البرجوازية نفسها هي التي تزوِّد البروليتاريا بعناصرها التثقيفية، أي بالأسلحة التي تردُّ عليها».

أقول:

لا يستعرض البيان حراكًا مجتمعيًا تاريخيًا فحسب، بل هو -كما أرى- بصدد إظهار التمكُّن الشيوعي من مفاصل الثقافة العامة في المجتمعات، وذلك بعد أنَّ وجَّه الصراع البشري بحسب ما يتَّفق مع رؤاه الخاصة، وطوَّع كُلَّ حركة أو حتَّى فكرة لمصلحة ما يذهب إليه في بنائه الفلسفي.

أعتقد بأنَّ للفكرة الشيوعية حالة من الارتكاز في العمق الثقافي للمجتمعات بمختلف مكوِّناتها التي تُشَكِّلُ البروليتاريا، والخطورة في ذلك ليست في كون الشيوعية في بعدها العقائدي تنكر الخالق والأديان، ولكن لكونها تؤسِّس لحصر الخيارات الفكرية في خيار واحد، هو: المادة أصلًا وعملًا وانتَّاجًا، بل هي تدفع في هذا الاتِّجاه بكل رخيص ومُكلف.

لا يخفى على القارئ صنيع فلاديمير لينين في الثورة البلشفية[1]، فهو قد أخرج الماركسية من النظرية إلى العملية الفعلية منطَّلقًا من ضرورة (الثورة) العنيفة ونظرية دكتاتورية البروليتاريا، فالماركسية التي يراها لينين تقول بأنَّ دكتاتورية وعنف السلطة البرجوازية لا يواجه إلا بدكتاتورية البروليتاريا وعنفها!

١- عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: الثورة البلشفية أو ثورة أكتوبر كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية عام ١٩١٧ قادها البلاشفة تحت إمرةفلاديمير لينين ويده اليمنى جوزيف ستالين وكامل الحزب البلشفي والجماهير العمالية بناءً على أفكار كارل ماركس وتطوير فلاديمير لينين؛ لإقامة دولة اشتراكية وإسقاط الحكومة المؤقتة.وتعد الثورة البلشفية أول ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي.

المقال 3

محوريَّة (التبصُّر) الشيوعي، ونظريَّة (حكم الشعب)

قال البيان:

«والهدفُ الأوَّلُ للشيوعيين هو الهدف نفسه لِكُلِّ الأحزاب البروليتارية الأخرى: تَشَكُّلُ البروليتاريا في طبقة، إسقاط هيمنة البرجوازية، واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية».

وتظهر بوضوح سخرية المُنَظِّرُون الأوائل للشيوعية من حركات التثقيف والتوعية؛ ففي نظرهم وبحسب بناءاتهم الفكرية، إنَّه لا يمكن لشيءٍ أنْ يصمد أمام قوة الصراع الجوهري الذي تقوم عليه كُلُّ مفردة من مفردات هذا الوجود، وهنا يحتاج المقام إلى توضيح مهم، وهو كالتَّالي:

• لا يطالب الشيوعيون بالشيوعية، فهم يرونها الحتمية الاستراتيجية الكبرى على طريق مجموعةٍ من الحتميات، ويقوم هذا البناءُ الفكريُّ على أنَّ الديالكتيك هو الحقيقة الأصيلة في جوهر كُلِّ شيءٍ؛ إذ أنَّ الضدَّ يُوجَدُ بوجود ضِدِّه، وبذلك قالوا بأنَّ التطورات والانقلابات، بل وكُلَّ حركة ذهنية أو خارجية، إنَّما هي ناشئة في أصل وجودها من الصراع الجوهري في صميم مطلق الأشياء، وعليه فإنَّهم يذهبون إلى أنَّ كلَّ شيءٍ لا بُدَّ وأنْ يَمُرَّ بثلاث مراحل، هي:

١- مرحلة الإثبات الذاتي.

٢- مرحلة النفي بالضد.

٣- مرحلة نفي النفي (الوجود الجديد).

وبالبناء على هذه الأسس، يذهب الشيوعيون إلى أنَّه لا طبقة تعيش حقيقة (الثورة) غير طبقة البروليتاريا، وأمَّا صغار التجار والكسبة والحرفيِّون، فحربهم ضدَّ البرجوازية إنَّما هي حرب للمحافظة على الوجود الذاتي الخاص، ولن تتحول إلى حرب (ثورية) ما لم تسقط هذه الطبقة وتتحول إلى بروليتاريا، وهذا ما تُحتِّمه النظرية بمجرد اكتمال المراحل الثلاث في وجود طبقة صغار التجار والحرفيين وكلٍّ متوسط بين البرجوازية والبروليتاريا.

إذا اتضح ذلك، فإنَّه الفلسفة في حركة ما أُشِيرَ له في البيان:

«فالشرط الأساسي لوجود الطبقة البرجوازية ولسيطرتها، هو تكديس الثروة في أيدي خواصٍّ تكوين رأس المال وإنمائه، وشرط وجود الرأسمال هو العمل المأجور، والعمل المأجور يقوم، حصرًا، على المزاحمة بين العُمَّال. وتَقَدُّمُ الصِنَاعَةِ الذي تُشكِّلُ البرجوازية دعامته بلا إرادة منها وبلا مقاومة، يُحِلُّ وحدة العمَّال الثورية عبر الترابط محل انفرادهم الناتج عن تزاحمهم.

وهكذا فإنَّ تطور الصناعة الكبيرة يُزلزِلُ تحت أقدام البرجوازية، الأساسَ الذي تُنتِجُ عليه وتتملَّكُ المنتجات.

إنَّ البرجوازية تُنتِّجُ، قبل كُلِّ شيءٍ، حفَّاري قبرها. فانهيارها وانتصار البروليتاريا، أمران حتْمِيَّان».

ثمة لفتة مهمَّة جِدًّا في بيان الحزب الشيوعي.

يقول في مقام ردِّ تهمة أنَّ الشيوعيين يريدون إلغاء الملكية المكتسبة شخصيًا بجهد فردي:

«ملكية مكتسبة بالجهد والاستحقاق الشخصيين! فهل تتحدثون عن الملكية البرجوازية الصغيرة، والفلَّاحية الصغيرة، التي سبقتْ الملكية البرجوازية؟ إنَّنا لسنا بحاجة إلى إلغائِها؛ فإنَّ تطور الصناعة قضى ويقضي عليها يوميًّا.

أم أنَّكم تتحدثون عن الملكية الخاصة للبرجوازية الحديثة؟

ولكن، هل يَخْلُقُ العملُ المأجورُ، أي عملُ البروليتاري، ملكيةً له؟

قطعًا لا.

إنَّه يخلُقُ رأسَ المال، أي الملكية التي تَستَغلُّ العملَ المأجورَ، والتي لا يسعها أن تنمو إلَّا شرط أن تنتج عملًا مأجورًا جديدًا، لتستغله مرةً ثانية».

تؤكد النظرة الشيوعية على أنَّ كلَّ ما هو دون الجبهتين (بروليتاريا وبرجوازية) ليس إلَّا توهُّمات يحاصر بها البرجوازيون الطبقة المتوسطة من الصغار في الصناعة والحرفة وما نحو ذلك، ومن هذا التأكيد تنتج نظريَّةٌ شيوعية أخرى تظهر في تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات رئيسية، هي:

الطبقة الأولى: البرجوازية.

الطبقة الثانية: البروليتاريا.

الطبقة الثالثة: الشيوعيون الأوصياء على الحراك (الثوري) للبروليتاريا.

ومن هذا التقسيم، يقول البيان:

«أمَّا اللومبن بروليتريا (**Lumpenproletaria**) –وهي طبقة دون أو تحت البروليتاريا– هذا النتن المستسلم، حثالة الفئات الدنيا من المجتمع القديم، فإنَّها قد تنجرف هنا وهناك في الحركة بفعل ثورة البروليتاريا، لكنَّها بحكم وضعها الحياتي كُلِّه، تصبح أكثر استعدادًا لبيع نفسها لمكائد الرجعية».

فإمَّا أن تكون برجوازيًا مصيرك إلى السحق تحت أقدام البروليتاريا، وإمَّا أن تكون من (الثائرين) المُمَهِّدِين لحتمية انتصار البروليتاريا، وإمَّا أن تكون ذا مؤهلات خاصة وتَبَصُّرٍ شيوعي لتصبح في طبقة الأوصياء، وإلَّا فأنت: نتن مستسلم حثالة، ومآلك إلا أن تبيع نفسك لمكائد الرجعية!!

تؤكد الشيوعية على أنَّ (ثورة البروليتاريا) هي رهانها الاستراتيجي الذي أخلصت له في صياغة (تكتيكه النضالي)، ومن هنا قال لينين في (كارل ماركس.. سيرة مختصرة وعرض للماركسية): «أمَّا البيان الشيوعي فقد صاغ لتكتيك النضال السياسي المبدأ الأساسي التالي للماركسية: إنهم (أي الشيوعيون) يكافحون في سبيل مصالح الطبقة العاملة وأهدافها المباشرة، ولكنَّهم يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة.

ومن أجل هذا، ساند ماركس في ١٨٤٨ حزب (الثورة الزراعية) –بولونيا– (أي الحزب الذي أثار انتفاضة كراكوفيا في ١٨٤٦). وفي ١٨٤٨ – ١٨٤٩ ساند ماركس في ألمانيا، الديموقراطية الثورية المُتَطَرِّفَةَ، ولم يتراجع قَطُّ عمَّا قاله حينذاك عن التكتيك».

تمتلك الشيوعيةُ قدرةً هائلةً على التبريرات لمصلحة (الثورة)، فكُلُّ شيءٍ يخطيءُ إلا هي، ومن الشواهد، كتب ماركس إلى إنجلز –بحسب لينين، في المصدر السابق–: «إنَّ فشل ثورة ١٨٤٨ سببه أنَّ البرجوازية كانت قد فضَّلتْ المسالمة مع العبودية على مجرد إمكانية الكفاح في سبيل الحرية»

ثم قال لينين: «وعندما اختتمت مرحلة ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩، هبَّ ماركس ضد كل محاولة للعب بالثورة (النضال ضد شابر وويليخ) مُصِرًّا على معرفة العمل في المرحلة الجديدة التي تهيئ ثورات جديدة تحت ستار (سِلْمٍ) ظاهري».

المقال 4

«الشعارات الشيوعية ونظرية إلغاء العائلة»

هل تريد الشيوعيَّةُ (إلغاء العائلة)؟

أتطرق في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى إلى هذا الطرح الشيوعي، وأمَّا اليوم فالإشارات إلى شيءٍ من مقدِّماته الموضوعية.

أرجو أنْ يكون القارئ الكريم قد وقف على الهيكل العام للطرحة الشيوعية، ومن أهم معالمها توجيه وحصر الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية، فالشيوعيُّ لا يرى خِيارًا أمام البروليتاريا غير مواجهة البرجوازية والتطاحن معها في مراحل متعاقبة وبصور مختلفة حتَّى تضمحل كُلُّ الطبقات في طبقة واحدة ليعُمَّ السلامُ أرجاءَ المعمورة.

كنتُ قد وعدتُّ منذ البداية بأن أترك القارئ وتتبعاته دون تدخل مباشر، ولا زلتُ عند وعدي، غير أنَّ الحاجة ملحة لطرح سؤال في المقام، وهو:

هل إنَّ حصر الخلاص من ظلم البرجوازية في المواجهة المذكورة أمرٌ صحيح، أم أنَّ هناك خيارات أكثر صحَّة ودقَّة من المواجهة المباشرة كما يصرِّح الشيوعي في بيانه وفي غير مكان؟

الجواب متروكٌ لكم..

.....

إمَّا أن تكون (ثائرًا) وإلا فأنتَّ عبدٌ تستعملك البرجوازية ما دُمتَ مُدِرًّا لمعائشها،

ولا يمكنك التخلص من شباكها الغليظة الدقيقة، وإن توهَّمْتَ نفسك حرًا، وفي ذلك يقول البيان:

«إنَّ كون المرء رأسماليًا لا يعني أنَّه يشغل مركزًا شخصيًا فحسب، بل يشغل أيضًا مركزًا مجتمعيًا في الإنتاج، فرأس المال هو نتاج جماعي، لا يمكن تحريكه إلا بنشاط مشترك لأعضاء كثيرين، بل إنَّه، في التحليل الأخير، لا يُحرَّك إلا بالنشاط المشترك لجميع أعضاء المجتمع.

فرأس المال إذن، ليس فاعلية شخصية، بل فاعلية مجتمعية».

وبذلك فإنَّ الكُلَّ يعمل في خِدمة البرجوازية، شاء أم أبى، ومحور الوجود والبقاء لهذه الأخيرة هو استثمار العامل لمصلحتها. يقول البيان:

«فإنَّ الثمن الوسط للعمل المأجور هو الحدُّ الأدنى لأجر العمل، أي جملة وسائل العيش الضرورية لبقاء العامل كعامل على قيد الحياة. ومن ثُمَّ، فإنَّ ما يمتلكه العامل المأجور بجهده يكفي لإعادة إنتاج حياته».

هذا تحليلٌ شيوعي لفلسفة الأجور في الفكر البرجوازي، فمتوسط الأجور لا يساوي إلَّا الحدَّ الأدنى لأجر العمل، ووظيفته هي أن يعيد به العاملُ إنتاج نفسه لمواصلة بيع الجهد المحرِّك للعجلة الرأسمالية، فالعامل في حقيقته ليس أكثر من آلة صَمَّاء يُحافظ عليها بعمليات الصيانة المنتظمة والمستمرة حتى تُستهلك تمامًا أو ترمى بعد انتاج آلة أفضل وأكثر كفاءة منها، وهذه الصيانة الدورية للعامل في فلك المنظومة البرجوازية هي الأجر والإجازات السنوية والعلاوات والمنح الدراسية وتوفير السكن وغير ذلك..

ثُمَّ يقول الشيوعي في بيانه:

«فالعمل الحرُّ، في المجتمع البرجوازي، ليس سوى وسيلة لزيادة العمل المتراكم،

والعمل المتراكم في المجتمع الشيوعي ليس سوى وسيلة لتوسيع السيرورة الحياتية للعمَّال، ولإغنائها وترقيتها».

وهنا يسجل البيان فرقًا مبنائيًّا بين البرجوازية والشيوعية، ومحلُّه أنَّ البرجوازية تدفع البروليتاريا للعمل والإنتاج من أجل بقائها وازدهار وجودها، في حين أنَّ الشيوعية تحارب أصل هذه الطبقية، فتُرجِع كُلَّ شيءٍ لمصلحة نفس العامل، لا للطبقية التي تُكَرِّسُ لها البرجوازية، ويؤكد على هذه الرؤية، فيقول:

«فالشيوعية لا تجرِّد أحدًا من القدرة على تملُّك منتجات مجتمعه، بل تنتَّزع فقط القدرة على استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملُّك».

ويرى الشيوعي أنَّ هذا التوجُّه منه، هو منشأ التحرُّك الرأسمالي البرجوازي ضدّ الشيوعية، فيقول:

«لقد أُصِبتُم بالذعر -ويقصد البرجوازيين- لأنَّنا أردنا إلغاءَ الملكية الخاصَّة، ولكنَّ الملكية الخاصة في مجتمعكم الراهن، مُلغاة بالنسبة إلى تسعة أعشار أعضائه. إنَّها ضبطًا موجودة لأنَّها غير موجودة بالنسبة إلى الأعشار التسعة؛ فأنتُم إذن تلومونا لأنَّنا نريد إلغاء مُلكيَّةً تُفرض، كشرط ضروري لوجودها، انعدام الملكية بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة من المجتمع.

وبكلمة، فإنَّكم تتَّهِمُونَنَا بأنَّنا نريد إلغاء ملكيتكم، وهذا بالتأكيد ما نريده».

يرفع الشيوعيُّ شعاراته لمصلحة البروليتاريا بفضحه للبرجوازية ومبانيها الفكرية، فهو إلى جانب المسحوقين الذين تعمل البرجوازية على استهلاك كلِّ ما يمكن استهلاكه فيهم لأجل بقائها مزدهرة، ولا خلاص من هذه العبودية المقيتة إلا (بانتِّزاع) حقِّ المساواة وإعدام الطبقية البرجوازية، والطريق الطبيعي إلى ذلك -بحسب الفكرة الشيوعية- هو:

(الثورة.. المقاومة.. النضال)، فإمَّا أن يلتحق (الأحرار) بشرف حركة البروليتاريا وإلا فالموت خيارٌ قسري.

لا يمكن فصل المنظومة الفكرية للبرجوازية عن الثقافة التربوية في المجتمع، ومن هنا يقول البيان:

«وإلغاء العائلة! حتَّى أكثر الراديكاليين تطرُّفًا تثور ثائرتهم على هذا القصد الدنيء للشيوعيين.

فعلامَ ترتكز العائلة الراهنة، العائلة البرجوازية؟ على رأس المال والتملك الخاص، وهي لا تُوجد بتمام تطورها إلا بالنسبة إلى البرجوازية، لكنَّها تجد تكملتها في الحرمان القسري من العائلة، بالنسبة للبروليتاري، وفي البغاء العلني.

والعائلة البرجوازية تضمحل طبعًا باضمحلال تكملتها، فلكتاهما تزولان بزوال رأس المال.

أتأخذون علينا أنَّنا نريد إلغاء استغلال الآباء والأمهات لأبنائهم؟ هذه الجريمة نعترف بها..».

من هنا يبدأ المقال القادم إن شاء الله تعالى..

المقال 5

«النظرة الشيوعية للعائلة والروابط الاجتماعية»

إلى أيِّ مدى وإلى متى تؤثِّر (الفطرة) في أقرب العلاقات (الإنسانية)؟
على ماذا تقوم العلاقات في المجتمع؟ وحتَّى علاقة الأم مع ابنها؟
هل يُمَثِّلُ الأبوان البعد البرجوازي في العائلة، والأبناء البروليتاريا؟

يقول الحزبُ الشيوعيُّ في بيانه: «أتأخذون علينا أنَّنا نُرِيدُ إلغاء استغلال الآباء لأبنائهم؟ هذه جريمة نعترف بها، لكن تقولون إنَّنا، بإحلال التربية المجتمعية محلّ التربية البيتية، نقضي على أكثر العلاقات حميمية».

ثم يقول: «أليس المجتمع هو الذي يحدِّدُ تربيتكم أنتُم أيضًا؟ ألا تحدِّدُها العلاقات المجتمعية التي تُرَبَّونَ في إطارها؟ ألا يُحَدِّدُها تدخل المجتمع المباشر وغير المباشر بواسطة المدرسة، إلخ..؟ فالشيوعيون لا يبتدعون فعل المجتمع في التربية. إنَّهم فقط يُغَيِّرُون خاصيَّتَه وينتزعون التربية من تأثير الطبقة السائدة».

ثَمَّة خيوط غاية في الدِقَّة تفصل بين مفاهيم غاية في الخطورة، ونحن في حاجة بالفعل إلى المبالغة في مراعاة الموازين العلمية في تحليل الرؤية الشيوعية.

ترى الشيوعية أنَّ الأسرةَ انعكاسٌ طبيعي لا بُدِّي لِقِيَمِ وسُلوك المجتمع، ومن هنا فإنَّ الطبقيَّة في الخارج هي في الأسرة ولكن بقالب يناسبها، فالعلاقات الأسرية موجَّهة بحسب موازين التسلُّط واستغلال الأقوى للأصغر، ولا دخل للطبيعة أو الفطرة أو أيِّ شيء آخر في تحديد وتوجيه هذه المعادلة، فهي وبِكُلِّ بساطة، المجتمع في صورة من صوره التحليلية، وعندما يبدي البرجوازيون انزعاجهم من حديث الشيوعيين عن

الأسرة بشكل عام والمرأة بشكل خاص، فليس ذاك إلَّا لاستشعارهم خطر انهيارهم الذي تلوِّح به الشيوعية بالحديث حول الأسرة.

عندَّما تتحدَّث الشيوعيَّةُ عن (إشاعة المرأة)، فهي في الواقع غير ناظرة إلى أصل قضية البغاء، فالأمر لا يهُمُّها على الإطلاق، ولكِنَّ المهم في الأمر أن لا تكون (إشاعة المرأة) نتاجًا للبرجوازية؛ فاتِّهام البرجوازية للشيوعية بأنَّ هذه الأخيرة تدعو لـ(إشاعة المرأة)، اتِّهام يثير سخرية الشيوعيين؛ إذ أنَّ المرأة في المجتمع البرجوازي (مشاعة) بالفعل، ولكنَّهم (البرجوازيون) يريدونها هكذا تحت تروس الآلة البرجوازية؛ ولذلك فإنَّ الموقف المعارض للبرجوازيين من (إشاعة المرأة) هو كسابقه في قضية (إلغاء الأسرة).. إنَّه الخوف على البرجوازية من الانهيار!

أنقل إلى القارئ الكريم مقتبسًا مهِمًّا جِدًّا من كتاب (الشيوعية والأسرة) للشيوعيَّةِ الروسيَّةِ (الثائِرَةِ): ألكسندرا كولونتاي[1] (١٨٧٢-١٩٥٢)، وأرجو قراءته بدقة تحليلية فاحصة:

«**إلغاء البغاء:**

إنَّ البغاء هو ابن النظام الاقتصادي السائد وابن مؤسسة الملكية الفردية، وما إن تلغى هذه المؤسسة، حتَّى تزول تجارة النساء من تلقاء نفسها.

من هنا، فلا يُخِيفَنَّ المرأة العاملة أنَّ الأسرة، في شكلها الراهن، سائرة إلى زوال،

---

١ - ألكسندرا كولونتاي: «من أبرز نساء الحركة الشيوعية الروسية، حتَّى أنَّ مكسيم غوركي يروي على لسان مارتوف قوله: «يوجد في روسيا شيوعيان اثنان فقط: لينين ومدام كولونتاي!

كانت أول امرأة في العالم تشغل منصب وزير، ولعبت دورًا هامًّا في الحزب والدولة خلال السنوات الأولى لثورة أكتوبر، ثُمَّ واصلت خدمتها للدولة السوفيتية في السلك الدبلوماسي خلال ربع قرن، لكنَّ مساهمتها الكبرى هي نضالها الذي كرست له كل حياتها، ككاتبة ومناضلة شيوعية، من أجل تحرر المرأة، وتحرر النساء العاملات بشكل خاص.'' فواز طرابلسي في مقال بعنوان: تحرر المرأة العاملة.

لا محالة، فالأحرى بها أن تحيي انبلاج فجر مجتمع جديد، يحرِّر المرأة من العبودية المنزلية، ويخفِّف عنها أعباء الأمومة، ويمهِّد السبيل أخيرًا أمام إلغاء البغاء – أبشع النكبات التي بليت بها النساء.

إنَّ المرأة المدعوة للنِّضال من أجل القضية الكبرى –قضية تحرُّر البروليتاريا– ينبغي أن تُدرك أنَّ الدولة الجديدة لن تقبل بالانقسامات السخيفة من النمط الذي كان سائِدًا من قبل: (هؤلاء أطفالي أنا، وأولئك أطفالك أنت أو أطفال الجيران، وأنا لست معنية بهم، تكفيني مصائبي).

إنَّ الأمَّ العاملة، الواعية لدورها الاجتماعي، سوف ترتفع من الآن فصاعِدًا إلى مستوى لا فارق فيه بين ما هو لها وما هو ليس لها، فتُدرِك أنَّ الأطفال هم أطفالنا نحن، أطفال الدولة الشيوعية، وأنَّهم ملك مشترك لجميع الكادحين.

تحقيق المساواة الاجتماعية بين الرجال والنساء:

لا بُدَّ للدولة العمَّالية من أنَّ توفِّر شكلًا جديدًا للعلاقات بين الجنسين.

إنَّ العاطفة الأنانية الضيقة التي تكنُّها الأمُّ لأطفالها يجب أن تتسع لتشمل جميع أطفال الأسرة البروليتارية الواسعة.

وعلى أنقاض (الزواج الذي لا ينفصم)، القائم على استعباد المرأة، سوف يقوم الاتِّحاد الحُرُّ بين الرجل والمرأة، يعزِّزُه الحُبُّ والاحترام المتبادلان بين مواطنين من مواطني الدولة العُمَّالية، متساويين في الحقوق والواجبات، ومكان الأسرة الفردية الأنانية، سوف تقوم أسرة العمَّال الكبيرة الشاملة حيث الشِغِّيلة، رجالًا ونساءً، هم فوق كُلِّ شيءٍ أخوة ورفاق.

هكذا ستكون العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمع الغد الشيوعي، وهي علاقة ستضمن للإنسانية كافَّة المباهج التي يوفِّرها ما يسمى (الحبُّ الحرُّ)، عبر تحقيق المساواة الاجتماعية الحقيقية بين المرأة والرجل، وهي مباهج يعجز عن توفيرها المجتمع التجاري في ظلِّ الرأسمالية.

افسحوا المجال أمام الأطفال المترعرعين، المتفجِّرين صحَّةً وعافيةً!

افسحوا المجال أمام شبيبة ممتلئة حيويَّةً ونشاطًا، متعلقة بالحياة ومباهجها، حرَّة في مشاعرها وعواطفها!

تلك هي شعارات المجتمع الشيوعي..

فباسم المساواة والحرية والحبِّ نهيب بكافَّة العاملات والعمَّال والفلَّاحات والفلَّاحين أن يضطلعوا، بجرأة وإيمان، بمهمَّة إعادة بناء المجتمع البشري باتِّجاه مزيدٍ من الكمال والعدالة، وزيادة قدرته على أن يؤمِّنَ للأفراد السعادة التي يستحقون.

إنَّ راية الثورة الاجتماعية الحمراء، التي تنطلق من روسيا لترفرف على بلدان أخرى في العالم، إيذانًا لنا باقتراب (الجنَّة على الأرض) التي تحلم بها البشرية منذ قرون»[1].

لا زلت أمسك نفسي عن التدخل بما من شأنه توجيه الأفهام لهذه النصوص الشيوعية، ولكنَّني وبكل صدق أدعو لقراءتها قراءة دقيقة ثمَّ النظر إلى واقعنا الثقافي ومشاربه، وإلى أين نتَّجه بحسب ما هو قائم فعلًا من مقدمات..

١- للمراجعة، الموقع الإلكتروني: ماركسيون:

https://www.marxists.org/arabic/archive/kollontai/1920/communism_and_the_family.htm

المقال
6

«الوجود الشيوعي في عمق التحولات الثقافية»

«والتُهم الموجَّهة إلى الشيوعية، من وجهات نظر دينية فلسفية آيديولوجية، عمومًا، لا تستحق نقاشًا أكثر تفصيلًا».

أعتقدُ أنَّ هذه العبارة في بيان الحزب الشيوعي (الفصل الثاني)، هي في الواقع من المباني الثقافية الفكرية في منظومة العمل الشيوعي التي يظهر فيها العامل تامَّ اللياقة والرشاقة، فهو على الدرب بكامل قناعاته، ولا يأبه بغير مشروعه الأكبر، وربما يُلاحَظُ على الشيوعيين بشكل عام غلبة الهدوء والاستقرار في عملهم، على العصبية وأخواتها، وربَّما تكون مضامين هذه العبارة مِمَّا يُؤدَّبُ عليه الشيوعيُّ في مراحل تَنظِيمه.

وفي تصوري أن العبارة المُقتَبَسة تأتي متناغمة وبشكل كبير مع الرؤية الشيوعية للحركة التغييرية في المجتمع نحو زوال الطبقات، يقول البيان:

«فالعمَّال لا وطن لهم، فلا يمكن أن يُسلب منهم ما لا يملكونه. وبما إنَّه ينبغي على البروليتاريا أن تستولي، أولًا، على السلطة السياسية، وأن تُنَصِّب نفسها طبقة قومية، وأن تتقوم كأُمَّة، فإنَّها ما تزال وطنية، لكن ليس بالمعنى البرجوازي للكلمة».

ثم يستطرد في بيانه:

«فمع نمو البرجوازية، مع حرِّية التجارة، مع السوق العالمية، مع التماثل في الإنتاج الصناعي والأوضاع الحياتية الملائمة لذلك، تزول الفواصِلُ القومية والتناقضات بين الشعوب، أكثر فأكثر».

ويُكمِلُ:

«وسيطرة البروليتاريا ستزيلها أكثر فأكثر، وعمل البروليتاريا الموحَّد، في البلدان المتحضرة على الأقل، هو أحد الشروط الأوليَّة لتحرُّرِها.

وبقدر ما يُقضى على استغلال الفرد للفرد، يُقضى على استغلال أمَّة لأمَّة أخرى. ومع زوال التناحر بين الطبقات داخل الأمة، يزول موقف العداء بين الأمم».

تلك هي الصورة العامة للرؤية الشيوعية، ومسؤولية الشيوعي تجاهها، هي المساهمة في دفع العربة والعمل على توجيهها بالشكل المطلوب، لِئَلَّا تَشغِلها المُعَطِّلات من قبيل شعارات الدين والأخلاق والحقوق وما نحو ذلك مما تراه الشيوعية من سَفَاسِف الأمور.

إذن، والحال هكذا، ما الداعي للعصبية والانشغال بِرَدِّ التهم وبِرَدِّ الردود عليها؟

يسخَرُ الفِكرُ الشيوعيُّ تمامًا من دعوى (الثوابت)، فهو يرى، بل يقوم في ثقافته على قاهرية التحول في كل شيء، ويَعجَبُ ممن يُنكِرُ عليه ذلك[1].

يقول:

«فحينما كان العالمُ القديم يتهاوى، انتصر الدين المسيحي على الأديان القديمة، وحينما غُلِبتْ الأفكار المسيحية على أمرها، في القرن الثامن عشر أمام أفكار التنوير، كان المجتمع الإقطاعي يلفظ أنفاسه الأخيرة في صراعه مع البرجوازية، الثورية آنئِذ، ولم تكن أفكارُ حُرِّية المعتقد والحُرِّية الدينية إلَّا تعبيرًا عن نظام المزاحمة الحرَّة في مجال المعرفة».

ثم يبدأ البيان بطرح رؤيته، فيقول:

---

١ – المؤلف: هذا هو عين ما تدعو له (الحداثة)، وقد قيل بأن كارل ماركس من روادها الأوائل، وقد يكون ظهور هذا المصطلح مرحلةً من مراحل التطور الثقافي التنظيمي للشيوعية.

«وقد يقال: إنَّ الأفكار الدينية والأخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية، إلخ..، قد تعدَّلتْ بلا شك في مجرى التطور التاريخي، لَكِنَّ الدين والأخلاق والفلسفة والسياسة والحقوق ظلَّتْ قائمة وسط هذا التحول.

وفوق ذلك، هناك حقائق ثابتة، مثل الحرية والعدالة، إلخ..، هي واحدة في جميع الأوضاع المجتمعية».

وهنا يذكر البيانُ تُهْمَةً تُوجَّهُ إلى الشيوعية، فيقول:

«والحال إنَّ الشيوعية تُلغِي الحقائق الثابتة، تلغي الأديان والأخلاق بدل تجديد تشكيلها، فهي تُنَاقِضُ، إذن، التطورات التاريخية السابقة كلها!».

وفي مقام الردِّ، يقول:

«فإلامَ تؤول هذه التهمة؟

إنَّ تاريخَ كل مجتمع، حتى الآن، كان يتحرك في تناحرات طبقية، اتخذت أشكالًا مختلفة حسب العهود المختلفة».

ثم يستطرد قائلًا:

«ولكن مهما كان الشكل الذي اتخذته هذه التناحرات على الدوام، فإنَّ استغلال قسم من المجتمع للقسم الآخر هو واقع واحد لجميع العصور السالفة. ولا عجب إذن إن كان الوعي المجتمعي، في كل العصور، يتحرك، رغم التنوع والتباين، في أشكال مشتركة (واحدة) معينة، في أشكال من الوعي لا تنحلُّ تمامًا إلا بزوال التناحر الطبقي كلِّيًا».

وهنا البناء الآلي الأصل:

«فالثورة الشيوعية، هي القطيعة الأكثر جذرية مع علاقات الملكية المتوارثة، ولا غرابة في أن تقطع في مجرى نموها، بجذرية أشد، صلتها بالأفكار المتوارثة».

أُوَجِّهُ في هذه اللحظة إلى تتبع التحولات الثقافية في حدود خصوص المنطقة العربية منذ خمسينات القرن المنصرم وحتى اليوم، وذلك في مجمل العناوين القِيَمِيَّة، وخصوصًا الدينية والأخلاقية والعُرْفِيَّة.

نعم، فَمِمَّا ينبغي التسليمُ إلى طبيعيته، أنَّ الرؤى الدينية والأخلاقية والعُرْفِيَّة، تتغير بتغير منظومة الظروف المجتمعية، ولكنَّ التَغَيُّر من المفترض أن يكون طولِيًّا تطوريًّا، لا ناقِضًا للأصل، وهذا بالبناء على تسليمنا بوجود ثوابت تقوم عليها إنسانية الإنسان.

غير إنَّ الذي يَحدِثُ مستغرِقًا جيلين كاملين[1]، هو نقضٌ تراكميٌّ لأصل فكرة الثوابت، ونشهد اليوم نتاج ذلك العمل التراكمي الدقيق، وهذا ما سوف أُبينه إن شاء الله تعالى في المقالات التالية لمقالات الاستعراض العام لبيان الحزب الشيوعي.

لاحظوا هذه الدقة الفائقة في الحراك الشيوعي.

يقول البيان:

«فقبلًا رأينا الخطوة الأولى في ثورة العُمَّال هي ترفيع البروليتاريا إلى طبقةٍ سائِدَةٍ والفوز بالديموقراطية. فالبروليتاريا ستستخدم سلطتها السياسية لتنتزع من البرجوازية تدريجِيًّا، رأس المال كله، ولِتُمَركز أدوات الإنتاج كلِّها في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المُنَظمة في طبقة سائدة، ولتزيد حجم القوى المُنتِجة بأقصى سرعة ممكنة».

١- الجيل = ٣٣ سنة، وليس ١٠ سنوات كما هو شائع بين الناس.

وهنا توجيه مُهِمٌّ جِدًّا، في قوله:

«وفي البداية، لا يمكن حدوث ذلك طبعًا، إلا بالانتهاك الاستبدادي لحقِّ الملكية ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، أي بتدابير تبدو، اقتصاديًا ناقصة وغير مأمونة البقاء، لكِنَّها تتجاوز نفسها في مجرى الحركة، وهي لا غنى عنها كوسيلة لقلب نمط الإنتاج بأسره».!!

المقال
7

«سيادة البروليتاريا»

بداية أُنبِّهُ على أمورٍ ثلاثة:

الأول: لا يُستدَلُّ على حُسْنِ الغايةِ بِحُسْنِ الطريق، فقد يكون هذا الأخير حَسَنًا، مثل أن يُقَدِّمَ أحدُهم يد العون والمساعدة لمحتاج من الناس، غير أنَّ الغاية ليس بالضرورة أن تكون إنسانية إيمانية، فاحتمال كون المساعدة مقدمة للسيطرة والاستعباد احتمالٌ قائمٌ بلا شك.

هذه مسألة مُهِمَّةٌ ينبغي التَنَبُّهُ إليها جَيِّدًا، ولنكن على حذر من العسل أن يكون قد دُسَّ فيه السُمُّ.

الثاني: هناك (صِورٌ) يظهر منها الاشتراك بينها وبين بعض المفاهيم الإسلامية بشكل عام، والشيعية على وجه الخصوص، ورجائي من المتابع الكريم تجنب الاستعجال حتَّى يأتي الدور لمقالات التحليل والمقابلة، وهي – إن شاء الله تعالى – بعد الفراغ من التقاط المهم من بيان الحزب الشيوعي.

الثالث: ليس بالضرورة أن يكونَ الشيوعيُّ منكرًا لوجود خالق لهذا الكون – كما هو مشتهِرٌ بين عامة الناس –، فالشيوعيَّةُ فلسفةٌ قبل أن تكون عقيدة دينية (لا دينية).

أقتبس من البيان الخلاصة الاستراتيجية للرؤية الشيوعية، وللقارئ الانفتاح على تدبرها كيفما شاء، ولي أنْ أُذكِّر الآن بضرورة اعتبار الأمور الثلاثة المذكورة أعلاه.

قال البيان:

«فقبلًا رأينا أنّ الخطوة الأولى في ثورة العمّال هي ترفيع البروليتاريا إلى طبقة سائدة والفوز بالديمقراطية.

فالبروليتاريا ستستخدم سلطتها السياسية لتَنتَزِع من البرجوازية تدريجيًا، رأس المال كله، ولِـتُمركز أدوات الإنتاج كلّها في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظَّمة في طبقة سائدة، ولتزيد حجم القوى المنتجة بأقصى سرعة ممكنة.

وفي البداية، لا يمكن حدوث ذلك طبعًا، إلاّ بالانتهاك الاستبدادي لحقّ الملكية ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، أي بتدابير تبدو، اقتصاديًا ناقصة وغير مأمونة البقاء، لكنّها تتجاوز نفسها في مجرى الحركة، وهي لا غنى عنها كوسيلة لقلب نمط الإنتاج بأسره.

وطبعًا تختلف هذه التدابير تبعًا لاختلاف البلدان.

غير أنّ تطبيق التدابير الآتية ممكن، بصورة عامة تقريبًا، بالنسبة إلى البلدان الأكثر تقدمًا:

١- نزع الملكية العقارية وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة.

٢- (فرض) ضريبة تصاعدية مرتفعة.

٣- إلغاء قانون الوراثة.

٤- مصادرة ملكية جميع المهاجرين والعُصاة.

٥- مركزة التسليف في أيدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة والاحتكار له وحده.

٦- مركزة وسائل النقل في أيدي الدولة.

٧- تكثير الفبارك الوطنية وأدوات الإنتاج، واستصلاح الأراضي الموات وتحسين الأراضي المزروعة، وفق تخطيط عام.

٨- عمل إلزامي متكافئ للجميع، وتنظيم جيوش صناعية، لا سيما للزراعة.

٩- التوفيق بين العمل الزراعي والصناعي، والعمل تدريجيًا على إزالة الفارق بين المدينة والريف.

١٠- تربية عامة ومجانية لجميع الأطفال، وإلغاء عمل الأولاد في الفبارك بشكله الراهن، والتوفيق بين التربية والإنتاج المادي، إلخ..

وما إن تختفي، في سياق التطور، الفوارق الطبقية، وما إن يتجمع الإنتاج كلّه في أيدي الأفراد المتشاركين، حتى تفقد السلطة العامة طابعها السياسي. فالسلطة العامة طابعها السياسي.

فالسلطة السياسية، بمعناها الحقيقي، هي العنف المنظَّم لطبقة في سبيل قمع طبقة أخرى.

فعندما تتوحد البروليتاريا وجوبًا في طبقة إبّان كفاحها ضد البرجوازية، وعندما تـنصّب نفسها بثورة طبقة سائدة، وتلغي علاقات الإنتاج القديمة بالعنف، بصفتها طبقة سائدة، فإنها تلغي أسباب وجود التناحر الطبقي وتلغي بالتالي الطبقات عامة، تلغي سيطرتها الخاصة كطبقة.

ومحل المجتمع البرجوازي القديم، بطبقاته وتناحراته الطبقية، يحلّ تجمُّع تشارُكيّ، يكون فيه التبسُّط الحر لكل فرد شرطًا للتبسُّط الحر للجميع».

ما ألاحظه في هذا المقطع المقتبس، وفي غيره، تركيز البيان على استراتيجيتين أساسيتين:

الأولى: الترويج لفكرة الديموقراطية.

الثانية: التبرير لاستبداد البروليتاريا.

تظهرُ في الرؤية الشيوعية طبيعية السلوك العنفي الاستبدادي من البروليتاريا كمقدمة ضرورية للدخول في مرحلة السلام الشامل، وهي مرحلة التلاشي الطبقي الذي يرونه حتميًا، وليس من شيء عليهم اليوم أكثر من الدفع في اتجاه تقوية حركة البروليتاريا، وهنا تلتقي (صِوَرِيًّا) هذه الفكرة مع فكرة (كلمة حقٍّ في وجه سلطان جائر) التي تؤكد عليها النظرية الشيعية في خصوص وظيفة المؤمنين مع سلطات الجور (على تفصيل دقيق سوف يأتي في محلِّه إن شاء الله تعالى). فانتظر.

يبدو لي أنَّ الدخول الشيوعي – كما هي نظرتي – على خط الفكرة الديموقراطية، كان غاية في الذكاء والإحكام، فالقضية اليوم ملتبسة تمامًا، إلا على الشيوعيين الذين تمكَّنوا، وهم بالفعل يتلاعبون اليوم بالعقول الرأسمالية الكبرى، ومن خلال العناوين التي يطرحها الرأسماليون لتأمين رأسماليتهم، من قبيل حقوق الإنسان والديموقراطية والمساواة وما تنتهي إليه منظومة النظريات تلك من حداثة وليبرالية وعلمانية وما شابه.

عندما نراقب مستوى الانحلال القيمي في الغرب، ثُمَّ ننتقل لتتبع تفاصيل النظرية الشيوعية، نقف على حالة من الاستعمال الاحترافي من الشيوعيَّة كنظرية، لذاك الانحلال كأداة تُمَهِّدُ لمراحل إلغاء كل ما من شأنه أن يميز بين فرد وآخر.. الوراثة مثالًا!

هناك تصدير لا يمكنني التغافل عنه أو تجاوزه دون تدقيق، وأقصد تصدير ثقافات متداخلة عبر مختلف وسائل الإعلام، وهذا ما أرجو من المتابع الكريم تدبره بموضوعية تامة، حتَّى نلتقي في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى.

المقال 8

«البيان الشيوعي ومنهجية الحصر»

الاشتراكية..

إنَّها الرايةُ التي يرفعُها كُلُّ من يتصدَّى لقيادة حِرَاكٍ إصلاحي في المجتمع، وقد تغيَّرَ رسمُها بعد أنْ نَجَحَ الغربُ الرأسماليُّ في تحويل الشيوعية في أذهان الشعوب إلى بعبع، وهذا المقطع الأخير هو الذي أشار إليه بيان الحزب الشيوعي في مقدمته عندما قال:

«شبحٌ ينتاب أوروبا – شبح الشيوعية.. ضد هذا الشبح اتَّحدت في طِرَادٍ رهيب قوى أوروبا العجوز كلها: البابا والقيصر، مترنيخ وغيزو، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني.

فأيُّ حِزْبٍ معارض لم يتَّهِمه خصومُه في السلطة بالشيوعية؟

وأيُّ حِزْبٍ معارض لم يرد، بدوره، تهمة الشيوعية الشائنة، إلى أقسام المعارضة الأكثر تقدمية، وإلى خصومه الرجعيين؟

ومن هذا الواقع يُستنتج أمران:

- إنَّ قوى أوروبا كلها أصبحت تعترف بالشيوعية كـقوة.

- إنَّ الشيوعيين قد آن لهم أن يعرضوا، أمام العالم كله، طرق تفكيرهم، وأهدافهم، واتجاهاتهم، وأن يواجهوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه.

ولهذه الغاية، اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات، ووضعوا البيان الآتي، الذي سيصدر باللغات: الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والفلمنكية، والدانماركية.»

تتَّسِمُ (الاشتراكية) بِنَغْمَةِ أملٍ تُراقِصُ أحلامَ المحرومين، كما وإنَّها وبمقتضى ضرورة المقابلة (ثورة) صريحة على البرجوازية وكل ما يّمُتُّ إلى الإقطاعية أو الرأسمالية أو الأرستقراطية بصلة، ولأنَّها كذلك؛ فقد اتخذتها مختلف التوجهات شعارًا لحراكها الديالكتيكي، فكانت (الاشتراكية الإقطاعية)، وهذا اقتباس مهم جدًّا من بيان الحزب الشيوعي:

«وَجدتْ الأرستقراطية الفرنسية والإنكليزية نفسها مدعوّة، بحكم موقعها التاريخي، إلى كتابة قطع هجائية ضدّ المجتمع البرجوازي الحديث، ففي ثورة تمُّوز (يوليو) الفرنسية عام ١٨٣٠، وفي حركة الإصلاح الإنكليزية، كانت قد انهزمت مرة أخرى، أمام هذا الوصوليّ المقيت، فلم يعد ممكنًا الحديث عن نضال سياسي جديّ. لقد بقي لها النضال الأدبي فقط، ولكن التشدقات الكلامية القديمة، عهد إعادة المَلَكية، غدت في ميدان الأدب أيضا مستحيلة، ولتستدرَّ العطف اضطرت الأرستقراطية إلى التظاهر بالتخلّي عن مصالحها، وإلى وضع قرارها الإتهامي ضد البرجوازية لمصلحة الطبقة العاملة المستَغلَّة فقط، وعلى هذا الوجه وفَّرت لنفسها لذة هجاء سيّدها الجديد بواسطة الأغاني، والغمغمة في أذنه بتنبؤات مشحونة بفيض من النذر.

وهكذا نشأت الاشتراكية الإقطاعية مزيجًا من نحيب وهجاء من صدى الماضي ووعيد المستقبل، مُصِيَبةً أحيانًا البرجوازية في الصميم بحُكم قاس ثاقب، ومُثيرة السخرية باستمرار لعجزها التام عن إدراك مسيرة التاريخ الحديث.

فعِوضًا عن التلويح بالرّاية لوَّح الأرستقراطيون بمِخْلاة التسوّل البروليتارية، ليحشروا الشعب خلفهم، لكنَّه ما أن تبعهم حتى لمح على عجيزتهم شارات النَّسَب

الإقطاعية القديمة، فانفضَّ عنهم بقهقهات وقحة مستخفة».

ينبغي الالتفات هنا إلى أن مصطلحات الأرستقراطية والإقطاعية ليست محصورة في ما وضعت إليه من معاني في بادئ أمرها، فهي اليوم قد تحولت إلى ثقافة وفكر، فقد تكون الأرستقراطيةُ طبقةً تسعى فِئةٌ لتكوينها والكينونة في مفهومها، وكذلك الإقطاعية، وهذه مسألة مُهِمَّة في مقام البحث والتحليل.

وفي حالة أخرى لعبت الحضارةُ الحديثةُ دورًا في تكوُّنِ برجوازية جديدة لا هي إلى برجوازيتها، ولا هي إلى البروليتاريا. يقول عنها البيان:

«وفي البلدان، التي نمت فيها الحضارة الحديثة، تكونت برجوازية صغيرة جديدة تتأرجح بين البروليتاريا والبرجوازية، وهي كجزء مُكَمِّل للمجتمع البرجوازي لا تفتأ تعيد تشكيل نفسها؛ ومن جرّاء المزاحمة ينحدر أفرادها باستمرار إلى (صفوف) البروليتاريا؛ بالإضافة إلى ذلك يرون، مع نمو الصناعة الكبيرة، اقتراب الساعة التي سيضمحلّون فيها كليّا، بوصفهم قِسمًا مستقلًّا عن المجتمع الحديث، ليحُلّ محلَّهم، في التجارة والمانيفاتورة والزراعة، نُظّار العمل والمستخدمين.

وكان طبيعيًّا في بلدان مثل فرنسا، حيث تُشكّل طبقة الفلاحين أكثر من نصف السكان، أن يَعمد الكُـتّاب، الذين يناصرون البروليتاريا ضد البرجوازية، إلى استخدام معيار برجوازي صغير وفلّاحي صغير في نقدهم النظام البرجوازي، وأن ينحازوا إلى العُمّال من وجهة نظر البرجوازية الصغيرة، وعلى هذا الوجه تكونت الاشتراكية البرجوازية الصغيرة».

أقول:

كما أنَّ ما اصطُلِحَ عليه وصفًا لبعض الطبقات في المجتمع قد خرج عن ما وضع له وتحول إلى ثقافة عملية، كذلك يبدو أنَّ الاشتراكية قد أصبحت ثقافةً (سياسية) تطرحها

بعض الأحزاب والتوجهات بعناوين أخرى فرارًا من الاتهام بالشيوعية، وهذا ما ينبغي للباحث التنبُّه إليه جيِّدًا.

نلتفت إلى أهميَّةُ هذه المسألة عندما نقف على تصريح البيان الشيوعي في فصله الرابع، إذ يقول:

«وفقًا للفصل الثاني، يتَّضح بالبداهة موقف الشيوعيين من الأحزاب العُمَّالية القائمة، وبالتالي موقفهم من الشارتيين في إنكلترا، والإصلاحيين الزراعيين في أمريكا الشمالية.

فهم (الشيوعيون) يناضلون لتحقيق الأهداف والمصالح المباشرة للطبقة العاملة، لكِنَّهم في الوقت نفسه يمثِّلون، في الحركة الراهنة، مستقبل الحركة، ففي فرنسا ينضم الشيوعيون إلى الحزب الإشتراكي الديمقراطي ضدّ البرجوازية المحافظة والراديكالية، بدون أن يتخلوا عن حقِّ اتِّخاذ موقف نقدي من الجُمل الرنانة والأوهام التي خلَّفها التقليد الثوري».

أشير هنا إلى أنَّ المقالات القادمة – إن شاء الله تعالى – سوف تبدأ بالانعطاف نحو جمع بعض النصوص المحورية في الربط تحليلًا وتركيبًا، حتى ينتهي القارئ إلى صورة متكاملة – قدر الإمكان –، فيتمكن من قراءةٍ قد تكون جديدة في فهم الواقع الذي نعيشه اليوم.

المقال 9

«بين (الثورة) والسلمية»

بعد استعراض بيان الحزب الشيوعيّ لبعض الاشتراكيات التي يراها مشوَّهةً أو مُزيَّفةً، وصل لِمَا أسماه بالاشتراكيَّةِ والشيوعِيَّةِ النقديتين الطوباويَّتين، والطوباويَّة تصويرٌ للمثاليَّة التي توصَفُ بالحالمة المُحلِّقةِ بعيدًا عن الواقع في خيالاتِ مجتمع بِلا شُرور وبلا نِزاعات ولا صِراعات، والطوباويَّة تُقابِلُ الدستوبيا، وهي التجرُّد من الإنسانيَّة في مجتمع خبيث فاسِد بلا قيم..

فلندقق النظر الآن..

يقول البيان:

«فعن النشاط المجتمعي يستعيضون (ويقصد الطوباويين) بنشاط حذاقتهم الشخصية، وعن الشروط التاريخيَّة للتحرُّر يستعيضون بشروط كيفيَّة، وعن تنظِّيم البروليتاريا في طبقةٍ تنظيمًا تدريجيًّا متصاعِدًا يستعيضون بتنظِّيمٍ لمجتمعٍ يخلِقُونَه. وفي نظرهم، فإنَّ تاريخ العالم المقبل ينحلُّ في الدعاية وفي التنفيذ العملي لتصاميمهم المجتمعية».

ثُمَّ يستطرد، فيقول:

«فهم إذن، ينبذون كلَّ نشاط سياسي، وخصوصًا كلَّ نشاط ثوري، ويريدون بُلُوغَ هدفهم بطريقة سِلميَّة، ويُحاوِلُون أن يشقُّوا الطريق للإنجيل المجتمعي الجديد بتجارب صغيرة فاشلة بالطبع وبقوَّة المثال».

ثُمَّ إنَّه يختم الفصل الثالث من البيان بتصريح مباشر، فيقول:

«ولذا، يتصدَّون بضراوة (يقصد الطوباويين) لِكُلِّ حركةٍ سياسيَّةٍ عُمَّالِيَّةٍ، إذ لا يُمكِنُ أن تصدُرَ إلا عن كُفرٍ أعمى بالإنجيل الجديد».

ما أريدُ الإلفات إليه في هذا المقال، هو ضرورة الانتباه لموقف الفكر الشيوعي من السلوك البشري.

ما أفهمه، أنَّ الشيوعِيَّة تسعى لتهذيب السلوك البشري العام ولكن في اتِّجاهٍ واحد بلا شريك على الإطلاق، وهو اتِّجاه الصراع الطبقي الذي يرونه حتْميًا لا نقاش فيه، ولذا فإنَّ كلَّ فِكْرةٍ تُخالِفُ نظرَهم، اتَّهمُوها بالسخافة والسذاجة والخيال والمِثاليَّة وما نحو ذلك، فالفكر الشيوعي قائِمٌ – بحسب ما أفهم – على قاعدة: (إمَّا أن تكون معي، وإلا فأنتَ غبي)!!

ومن أخطَرِ ما يُرَوَّجُ إليه اليوم، المرادفة بين المثالية والسذاجة، وهذا ما سوف نتعرض لمناقشته في الحلقات القادمة إن شاء الله تعالى.

أدعو الآن للنظر الدقيق في هذا المقتبس من بيان الحزب الشيوعي:

«فهُم (الشيوعيون) يناضِلون لتحقيق الأهداف والمصالح المباشرة للطَّبقة العاملة، لكِنَّهم في الوقت نفسه يمثِّلون، في الحركة الراهنة، مستقبل الحركة.

ففي فرنسا ينضمُّ الشيوعيون إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي ضدّ البرجوازية المحافظة والراديكالية، بدون أن يتخلوا عن حقِّ اتِّخاذ موقف نقدي من الجُمل الرنَّانة والأوهام التي خلَّفها التقليد الثوري.

وفي سويسرا، يُسانِدون الراديكاليين، بدون أن يَغيب عن بالهم أنَّ هذا الحزب يتكوَّنُ من عناصر متناقضة، متَّسِم (مُؤلَّف) من اشتراكيين وديمقراطيين بالمفهوم

الفرنسي للكلمة، وقسم من برجوازيين راديكاليين.

وفي بولونيا (بولندا) يُسانِدُ الشيوعيون الحزب الذي يجعل من الثورة الزراعية شرطًا للتَّحرر الوطني، أي ذلك الحزب الذي بثَّ الحياة في انتفاضة كراكاو عام ١٨٤٦.

وفي ألمانيا يُناضِلُ الحزب الشيوعيُّ مع البرجوازية كلَّما قاومتْ البرجوازية مقاومة ثورية، النظام الملكي المطلق، والملكية العقارية الإقطاعية، والبرجوازية الصغيرة الضيقة الأفق.

بيد أنَّه لا يتغافل لحظةً عن خلق وعي، واضح قدر الإمكان، لدى العمال حول التناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا، حتَّى يستطيع العُمَّالُ الألمان أن يوجِّهوا فورًا الشروط المجتمعية والسياسية التي توجِدُها البرجوازيَّة وسلطتُها، كأسلحة عديدة، ضدّ البرجوازيَّة، كي يبدأ النضال ضدّ البرجوازية نفسها فور إسقاط الطبقات الرجعية في ألمانيا».

ويستطرد في الخلاصة، فيقول:

«وباختصارٍ، يُسانِدُ الشيوعيِّون، في كُلِّ مكان، كُلَّ حركةٍ ثوريَّة ضدّ الأوضاع المجتمعية والسياسية القائمة».

ثُمَّ يختم قائلًا:

«وأخيرًا، يعمَلُ الشيوعيِّون، في كُلِّ مكانٍ، على إقامة العلاقات، وعلى تحقيق التفاهم بين الأحزاب الديمقراطية في جميع البلدان.

ويأنف الشيوعيون من إخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويُنادون علانيَّة بأنْ لا سبيل لبلوغ أهدافهم إلاّ بإسقاط النظام المجتمعي القائم، بالعُنف.

فلترتعد الطبقات السائدة خوفًا مِنْ ثَورَةٍ شيوعية. فليس للبروليتاريين ما يفقدونه فيها سوى أغلالهم، وأمامهم عالمًا يكسبونه. أيُّها البروليتاريون، في جميع البلدان، اتحدوا».

أعتقِدُ باستحكام الرؤى الشيوعيَّة وتغلغلها في مختلف المجتمعات، حتَّى تلك التي تعلن عداءها لها، وقد تحدَّثَ بعضٌ عن مشتركات بين الشيوعية كفِكر ورؤى، وبين الأديان السماوية، ومنها، الإسلام، وهذا ما أرفضه تمامًا. أمَّا بسطُ الكلام فيأتي في حلقات متتابعة ابتداءً من المقال القادم إن شاء الله تعالى، وتحت نفس العنوان العام.. (الشُيُوعِيَّةُ، وإنْ غَابَ أو (غُيِّبَ) رَسْمُها).

المقال
10

«مناقشات وردود (ا) / طبيعة الصراع»

يتَّخِذ عنوانُ (الحقوق) موقِعَ المحور في عموم الصراعات البشرية، وكُلَّما حقَّق الإنسانُ شيئًا من مطالبه (الحقوقية) فإنَّه يبدأ التخطيط لخوض صراعٍ (حقوقي) جديد يليق بموقعه الجديد، فالعامل يطالب بتحسين أوضاعه الوظيفية من رئيس العمَّال، ورؤساء العمَّال يطالبون بميِّزات إضافية من المشرف العام، والمشرفون يصارعون من أجل أن تُخَصَّص مواقف لسياراتهم..، وفي حركة شاملة يخوض الجميع صراعات مع الدولة من أجل حياة سياسية عادلة تنعكس حلولًا على الصراعات الجزئية السابقة!

ولأنَّ خضوع الدولة لمطالب الشعب يُعَدُّ في عرف الحُكْمِ ضعفًا، فإنَّها تلجأ للضرب بيد من حديد كمقدمة لاستقرار الحياة ومواصلة الإنتاج و(الحُكم).

من وسط هذه الصراعات تنشأ جماعات تتبنى مشاريع المطالبة بـ (حقوق الإنسان)، وحتَّى تقوم بدورها وتحمي نفسها من ضربات متوقعة، فإنَّها تتواصل (عضويًّا) مع مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتَّحِدة!

عندما نحاول تحليل الصراعات البشرية في ظل هذا الجو المشهود، فإنَّنا لا نجد توجيهًا غير الذي تذهب إليه النظرية الشيوعية، وهو: حتمية صراع الطبقات.

وحتى تنتهي هذه الصراعات، فلا مفَرَّ من الدفع نحو تلاشي كل الطبقات في طبقة واحدة يتحقَّق فيها شيوع رأس المال، فتنعم البشرية بالاستقرار والنعيم.. أمَّا الطريق إلى ذلك فهو رفع وتيرة الصراعات!

مما ينبغي الالتفات إليه، إنَّ مجرد الحديث عن الحقوق والمطالبة بها تنظيرًا وعملًا، يُكَرِّسُ وبشكل مباشر لواقع الصراع الطبقي الذي اتَّخذ منذ الحرب العالمية الثانية عنوانَ الصراع (الحقوقي) الذي يأتي في ضمنه الصراع (السياسي)؛ فالمطالبة بـ (الحقوق) تعني الذهاب في مواجهةِ مخرجات جديدة تقابل تلكم المطالبات، مستقوية بالعقلية السياسية الجدلية.

• **حلقةٌ مفقودة:**

تبتني النظرية الشيوعية على حتمية صراع الطبقات، إلَّا الذي نراه هو أنَّ هذا الصراع الطبقي نتيجة وليس أصلًا، فالأصل هو الصراع النفسي الذاتي بين قُوَّتِي الخير والشر؛ إذ أنَّه (الصراع الطبقي) معلولٌ قبل أن يكون عِلَّة، وعِلَّته هي الصراع النفسي الذاتي بين قوَّتي الخير والشر، والدليل على ما نَدَّعيه هو كون (الصراع الطبقي) سلوكًا بشريًّا، ولا يمكن للسلوك إلَّا أن يكون نتيجة لواقع نفسي معيَّن.

ولذلك، فإنَّ النظرية الشيوعية تفقد محورها الأصل وركنها الركين بنفي العِلِّية الأولى عن الواقع الطبقي، وبإرجاعه لِعلَّة سابقة هي الصراع النفسي الذاتي بين قُوَّتي الخير والشر.

إنَّ القول بقوَّتي الخير والشر يقتضي الذهاب إلى ما هو أبعد؛ فللخير مصدر وللشر آخر، وكلاهما خارج الإدراك الحِسِّي للإنسان، وهذا ما ترفضه الشيوعيَّة كما يرفضه الكثير من المفكرين، رفضًا يصل إلى حَدِّ الاتهام بالجمود على ثقافة (الموعظة) التي يرونها ضعفًا وتخلُّفًا عن فهم الواقع.

إنَّ للصِّرَاع (الطبقي) حركة واقعية سريعة يعيشها الإنسان في كُلِّ لحظة، وفي حال تخلُّفه عن مواكبتها حدثًا بحدث ولحظةً بلحظه، فإنَّه وبشكل تلقائي يخرج من دائرة الواقع تمامًا!

• **مشكلة (الكرة الأرضية):**

ترى الشيوعية أنَّ الصراع ونهايته لا يمكن أن يتعدَّى حدود (الكرة الأرضية)، فالدُّنْيَا أوَّلًا، وهي أخيرًا..

أمَّا الحديث عن الآخرة ويوم الفصل الأكبر، فهو في نظرهم حديث الضعفاء قليلي الحيلة، ولذلك فالإنسان عندهم مسؤول عن كُلِّ شيءٍ، وإن لم يتحمَّل المسؤولية بشكل واقعي، فلا أحد يعينه على حَلِّ مشاكله والخروج به من مآزقه.

لهذه الثقافة حضور قويٌّ حتى في واقع بعض العقليات الدينية التي تراعي موازين التقوى والورع، فهي وإن تفرَّغت للتَّضرع والدعاء، فهو في الغالب محاكاة لواقعها التَّديني لا أكثر، وربَّما مواساة تخديرية للنفس التي نشأت في أجواء الدين والتدين، ولذلك، فإنَّك وعلى المستوى العملي لا تَجِدُ – غالِبًا – واقعية للآخرة لا في ثقافات الناس ولا في سلوكياتهم (الصراعية).

• **واقع الصراع:**

كان الله تعالى والملائكة و(إبليس)، ثُمَّ آدم وحواء..

أباح الله تعالى الجنة لآدم وحواء، إلَّا شجرة واحدة نهاهما عنها، ولكنَّ الشيطان وسوس لهما أنَّها شجرة الخلد التي ترتقي بهما لمصاف الملائكة في الخلود.

إنَّه ومِنَ (النفس) دفعهما الشيطانُ للصراع (الطبقي)، فكانت المعصية والخروج من الدنيا.

– **هنا آيتان:**

الأولى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ**

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[1].

الثانية: **﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[2].

فالإنسان أمام طريقين: إمَّا الظفر بهُدى الله تعالى، وإلا فالصراع الطبقي **﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾**.

نعم، ليس الصراع الطبقي علة وحيدة للعدواة، ولكِنَّ هذه الأخيرة كذلك، ما لم نجعلها مقودةً لِنُظُمِ الحَقِّ، وما لم نتنزَّه عن الانقياد لِنُظُمِها التي تبني الشيوعيَّةُ عليها نظرياتها.

ولكن..

- هل تتمكن (المثالية) من مواجهة الواقع القائم بالفعل؟
- هل يمكن التفكير بصورة مغايرة ومنهج مختلف عن معادلات الصراع الدائر بالفعل؟

١- الآية ٣٦ من سورة البقرة.

٢- الآية ٣٨ من سورة البقرة.

المقال 11

«مناقشات وردود (٢)/ مفهوم الطبقية»

انتهينا في المقال السابق إلى طرح سؤالين، وكانا:

- هل تتمكن (المثالية) من مواجهة الواقع القائم بالفعل؟
- هل يمكن التفكير بصورة مغايرة ومنهج مختلف عن معادلات الصراع الدائر بالفعل؟

أُرَحِّلُ الإجابة على هذين السؤالين لمقالات أخرى بعد ضمهما إلى أسئلة سوف ترد خلال البحث؛ فالإجابات تحتاج لجمع من بين القضايا التي تشكلها مجموعة الردود.

الصراع..

لماذا هذا الصراع؟

سواء كانت الطبقية هي المنشأ، أم النفس، فالسؤال يبقى قائمًا: ما هو المبرر لهذه الصراعات البشرية المتوحشة؟

يجيب الشيوعيون على هذا التساؤل المشروع، وذلك بالتأصيل لظاهرة الاضطهاد في طرفيها (المُضطَهِد والمُضطَهَد)، ثُمَّ إنَّهم يرون أصلًا ثانيًا، وهو أنَّ المُضطَهَد (اسم المفعول) يعودُ مُضطَهِدًا (اسم الفاعل) بعد انتصاره على من كان مُضطَهِدًا له، بل هو

فاعل للاضطهاد لمن هو دونه في نفس الوقت الذي يكون فيه مفعولًا به لمن يعلوه، وبذلك فإنَّ الصراع الطبقي يتخلل طبقتي البروليتاريا والبرجوازية، كما هو بينهما في العنوان الأكبر.

إذن، تُرجِعُ الشيوعية الصراع البشري إلى الطبقية، وهذه الأخيرة من مقتضيات الحالتين الاقتصادية (الإقطاع ثم البرجوازية)، والاجتماعية (النبلاء الأرستقراط).

• **بين الطبقية الرأسية، والمنظومة الأفقية:**

نفهم بشكل واضح – كما يبدو لي – أنَّ الطبقية بناءٌ رأسيٌّ، تكون فيه السيطرة لمن هو أعلى على من هو أدون، وهكذا حتى تتلاشى كل الطبقات في طبقة واحدة على نحو الأرض الزراعية التي تكون للماء كما هي للشجرة وكما هي للحشائش ولِكُلِّ ما يقع عليها، وبالتالي وبالنسبة للأرض، فإنَّه لا فرق بين الماء والشجرة والحشائش، فهي شائعة بينها، وكلٌّ يأخذ منها بقدره.

في نظري أنَّ هذه الرؤية مقلوبة، وقد أدَّى انقلابُها إلى خلل جوهري في عمق النظرية الشيوعية.

عندما تصور المُنَظِّرُ الشيوعيُّ التفاوت الاقتصادي ومقتضياته رأسيًّا، أسَّس على الطبقية ثُمَّ بنى عليها، وربَّما لو كان قد نظر إليها على فرض أن تكون أفقية تكاملية لتغيرت رؤيته من رأس.

يعيش الشيوعيُّ في عمق الواقع القائم، فيرى الحضور الاقتصادي مستحكِمًا في مختلف ميادين الصراع البشري، ولأنَّ الصراع حالةُ فرزٍ بطبيعته، ولأنَّ الأنواع تنجذب لأجناسها، ظهر الصراع طَبَقيًّا تُحَدِّدهُ المُكنَةُ الاقتصادية أولًا وأخيرًا؛ إذ أنَّها القادرة على قلب الموازين عند مفاصل الحسم.

لكِنَّ الشيوعي يعوِّلُ على استمرار الحراك (الثوري) للبروليتاريا حتَّى تفرض

نفسها فتذوب الطبقات ويتحقَّق بذلك شيوع رأس المال، وتتحول الحاكمية لقوة الإنتاج.

في الواقع أنَّ هذه الرؤية واقعية تمامًا، وهي ما عليه البشرية منذ القِدم، غير أنَّ وقوعها لا يعني صحتها، وهذا ما نحتاج لاستيعابه جَيِّدًا.

ما نعتقده أنَّ الدين الإسلامي جاء لتصحيح المعادلات في المجتمع البشري وتقويمها، ومن ضمن تلك المعادلات، هذه التي تبني عليها الشيوعية رؤيتها، وهي الطبقية (الرأسية)!

يعالِجُ الإسلامُ هذه الحالة التي لا يمكن أن تفضي لغير الصراعات المستمرة، بتحويلها من الوضع (الرأسي) إلى (الأفقي)، فصاحب رأس المال ليس فوق الأجير، ولكنَّهما يتكاملان صفًّا واحِدًا في منظومة عمل لا تتم إلا برأس المال والجهد، فلا الأول يساوي شيئًا بلا الثاني، ولا للثاني قيمة بلا الأول.

يؤسس الإسلام لتزكية النفوس واستقرارها كمقدمة وجودية لمنظومة التكامل الأفقي، ويؤكد على ضرورة الترسيخ لثقافة السلم والسلام، ثُمَّ إنَّه ينهى بشدة عن النزاع والصراع وإراقة الدماء وإزهاق النفوس، إلَّا في حالات خاصة وتحت نظر خاص، والموضوع حينها الدفاع عن سلمية الإسلام وزكاة تعاليمه.

فالأصل في الإسلام هو السلام والتعايش، ولكِنَّ هذا مُتَعَذِّرٌ جِدًّا مع تسلط الجبابرة، فما هو الحل؟

يرى الإسلامُ أنَّ الحلَّ لا يمكن أن يكون في غير العمل على بناء الكيان الداخلي القوي للمجتمع الإسلامي، وهذا البناء من غير المقبول أن يقوم على غير الأسس الثقافية المتينة والتي تأتي على صلابتها القوى الأخرى مثل الاقتصادية والعسكرية وما نحو ذلك، وهنا الفرق الجوهري بين الرؤيتين الإسلامية والشيوعية للكيان المجتمعي، فالثانية تجعل الحاكمية المطلقة للاقتصاد وآلة الإنتاج، في حين أنَّ الأولى تجعل كُلَّ ذلك

مقودًا لسلامة النفس أولًا، والعقل ثانيًا.

وإلى جانب ذلك، فإنَّ الإسلام يرفض تمامًا ثقافة تَحَمُّل الإنسان لكامل مسؤولية التغيير، في حين أنَّ الشيوعية توكل الأمر بتمامه إلى ضرورة وحتمية الصراع الطبقي.

وهنا محوران:

الأول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[1].

ومدار هذا المحور أنَّ وظيفة الإنسان هي السعي، وأمَّا النتائج فقد لا تكون في هذه الدنيا، ولكنَّها حتمًا تظهر في الآخرة (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى).

الثاني: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[2].

والمدار هنا، أنَّ التغيير نحو مجتمع الأمن والأمان قادمٌ متحقِّقٌ لا محالة، فهو وعد من الله سبحانه وتعالى.

– ملاحظة مُهِمَّةٌ: سوف يأتي في وقته الاستشهاد والاستدلال بالنصوص القرآنية والعِتروية بشكل موسع بعض الشيء، فالمقام الآن وفي بعض المقالات القادمة مقام طرح العناوين على نحو الفهرسة فقط.

رُبَّما يلاحظ القارئ محَلَّ الثقافة العامة في المجتمع المسلم من المباني الإسلامية المُقَرَّرة في القرآن الكريم، وهنا أطرح سؤالين:

«بأيِّ عينٍ وثقافةٍ ونَفْسِيَّةٍ ورُوحيَّةٍ نقرأ كتابَ الله المجيد وأحاديثَ المعصومين عليهم السلام؟

١– الآيات ٣٩ – ٤٢ من سورة النجم.

٢– الآية ٥ من سورة القصص.

هل نحن على الطريق الصحيح أو أنَّنا في حاجة إلى مراجعات عاجلة وجادَّة جِدًّا؟»

من الطبيعي أن يقال:

أين الإسلام من الواقع؟ وهل هذه الرؤى المثالية قادرة على مجاراة التسارع في الحدث التاريخي القائم بالفعل؟

وقد يقال أيضًا:

إذا كان الذي مرَّ صحيحًا غير منقوص، فالإسلام بذلك يؤسِّسُ للخنوع والضعف والاستسلام للجور والظلم والاستبداد!

أضمُّ هذه التساؤلات والإشكالات إلى ما ذَكَّرتُ بها في صدر المقال، ولننتظر حتى النهاية.

المقال 12

«مناقشات وردود (٣) / مشكلة الاستبداد»

لا بُدَّ لنا من تكرار ذكر المبنى الرئيسي للنظرية الشيوعِيَّة، وهو الاقتصاد وآلة الإنتاج؛ وذلك لأنَّ المُنظِّر الشيوعي يُرجِعُ له أنواع الصراعات في المجتمع البشري، بل ويرى أنَّ الطبقية ملزومة للاستبداد، وهي في نفس الوقت لازمة للملكية (الاقتصادية) الخاصة، وبقياس المساواة يَتَّضِحُ – بحسب الشيوعيَّة – أنَّ الاستبداد نِتاجٌ حتميٌّ للملكية (الاقتصادية) الخاصة.

ولكِنَّ العقلية الاستبداديَّة لا يمكن حصرُها في مجال واحد، فهي ثقافة، والثقافة حالة سيَّالة في حياة الفرد والمجتمع، ولذا نلاحظ العسكريَّ عسكريًّا في حياته، والحمَّالَ حمَّالًا، والمهندسَ مهندِّسًا، ولكِنَّ الجميع يشتركون في ثقافة الاستبداد كُلٌّ بشكل يناسب مهنته.

ومن هنا، وجدت الشيوعيةُ أنَّ العقليَّةَ الاستبداديَّةَ حتميَّةُ التحقُّقِ في مختلف لعلاقات بين الناس، فهي هناك بين الآباء والأولاد، وبين الزوج وزوجه، وبين الصغير والكبير، فموقِعُ المُستَبِدُ لا يمكن أن يكون شاغرًا أبدًا!

من هذا المنطلق، وبالبناء على هذه الرؤية للمجتمع البشري، يذهبُ الشيوعي لضرورة تحرير الناس.. كُل الناس، من أيِّ قيود استبدادية، بما في ذلك استبداد الآباء بأولادهم، والرجال بنسائهم؛ فالعلاقات الأسرية – في نظر الشيوعي – لا تقوم على أسس الحرية الصحيحة، والسبب هو العقلية الاستبدادية اللازمة بواسطة الطبقية للملكية الخاصة والتحكم البرجوازي.

ويذهب الشيوعي إلى أكثر من ذلك، فهو يرى أن احتقار المجتمع للمرأة البغي بحريتها وإرادتها، ليس لأنَّها بغي، ولكن لكونها قد تخلصت من سيطرة من يريد استغلالها في البِغاء والاستبداد بها لمصلحة المال.

• **مشكلة الاستبداد:**

لا يمكن لنا إنكار الواقع الاستبدادي الذي تعيشه المجتمعات بشكل عام، وحتَّى - كما يرى الشيوعي - في الأسرة وعموم العلاقات النَسَبِيَّة والسَبَبِيَّة والوظيفيَّة بين الناس، غير أنَّنا نختلف ثانية في تشخيص المنشأ.

لا نرى أنَّ الاستبداد بسبب الطبقية الاقتصادية أو العرقية له انعكاس على المجتمع البشري كما يعتقد الطرح الشيوعي، ولكِنَّ الذي نذهب إليه هو معلولية الاستبداد لطبقتين من العلل، إحداها قريبة والأخرى بعيدة، والقرب والبعد في المرتبة.

أمَّا العلل القريبة فمتعددة متكثرة، نجدها في علاقة صاحب التجرِبة العُمُرية الطويلة مع من دونه (أكبر منك بيوم، يفهم أكثر منك بسنة)، وبالتالي فعليك الاستماع لما يقول والحذر من مخالفته.

ونجدها بين المثقف ومن دونه في المرتبة الثقافية، وكذلك بين المُنَظِّرِ وبين من يأخذ بتنظيراته، وبين الحكيم والعامة..

أستطيع القول بأنَّ أرضية الاستبداد تعلن استعدادها للإنبات مع قيام عنوان (المُتَفَضِّل والمُتَفَضَّل عليه)، وهذا الفضل والتفضُّل أعمُّ من أن يكون ماديًّا اقتصاديًّا أو عقليًّا أو عاطفيًّا أو أيَّ شيءٍ آخر.

أعتقِدُ أنَّ التنظيم الشيوعي ومنذ لحظته الأولى عاش طور الاستبداد العقلي، وربَّما العاطفي أيضًا، وأُرَجِّحُ أنَّه حاول التخلص من مواجهة النقض الذاتي بالإكثار من إطلاق شعارات الحريَّة والتحرر وما نحو ذلك، وإلَّا فالملتزم بالنظرية الشيوعية وأدبياتها

هو في الواقع يلتزم التنظيم الهرمي (التلقائي) للحزب، ولا أتصور الحاجة إلى استطراد في الاستدلال على هذا الأمر، فالثورة البلشفية كانت تحت (إمرة) فلاديمير لينين، ويده اليمنى جوزيف ستالين، فهي وبشكل طبيعي تلقائي برجوازية ثورية استعملت بلوريتاريا البلاشفة لإقامة نظام اشتراكي جديد!

فالغاية الشيوعية، وهي مجتمع الأمن والسلام في ظل اللاطبقية، لا يمكن إدراكه إلا بممارسة أقسى درجات الاستبداد الطبقي وأكثرها شراسة، وإذا كان الاستبداد في الأسرة معلولًا للاستبداد الطبقي، فإنَّ العِلَّة باقية في (الثورة) وبالتالي فالمعلول باقٍ ببقائها، والنتيجة هي استحالة التلاشي الطبقي.

إذن، نختلف مع النظرية الشيوعية في حصر عِلَّة الاستبداد، إذ أنَّنا نرى تعدُّدَها وتكثُّرَها في عناوين قد لا نتمكن من حصرها، ثُمَّ إنَّ الاختلاف الجوهري يأتي عند الحديث عن العِلَّة البعيدة التي نعتقد بها في عمق بنائنا الإسلامي، وهنا يحتاج المقام إلى مقدمة استدلالية موجزة.

عندما نتحدث عن الطرح الشيوعي في ما يخص الطبقية والاستبداد، فإنَّ الأمر لا علاقة له بالجنبَةِ الإدارية، فهي ضرورية بحكم العقل ولا يمكن حتَّى مجرد التفكير في إلغاء الأسس الإدارية وإن اختلفت النُظم والمناهج.

وإنَّنا نرى الإنسان وفي أيِّ موقع كان، قابلًا للظهور بثقافة البرجوازي المستبد، ولكنَّنا لا نراها حتميَّةً على الإطلاق، فالتاجر الحُرُّ المُقسِطُ المنصف موجود بيننا ولا يمكن إنكاره، وكذلك لا يمكن إنكار وجود المتسامح الرحيم العطوف من مالكي المصانع وأدوات الإنتاج، والوقوع ينفي معلولية الاستبداد للطبقية من جهة، ويدعو من جهة أخرى لطرح السؤال التالي:

إلى ماذا ترجع الثقافة الإدارية:

أولًا:

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿**لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

هنا حقيقة مُهِمَّة، وهي أنَّ صاحب النِعمة يشعر بالخوف من طمع الآخرين، ولذلك يلجأ إلى حماية نفسه من أخطارهم، وهذا رَدُّ فعل متعقل في نفسه تمامًا، ولا أستبعد أن يكون البعثُ الشيوعي على الثورات والتمرد وما نحو ذلك سببًا في ازدياد قوة الأنظمة المستبدة وارتفاع مستوى استبدادها.

في الآية الكريمة يوجه الله سبحانه وتعالى لأخلاقيات الإنسان في تعاطيه مع أصحاب النِعَم، ومع سائر المؤمنين، وهذا خطابه في الآية الكريمة لرسوله الأكرم ﷺ، فمن جهة ينهاه عن النظر لما بيد غيره، ثم يأمره بخفض جناحه لعامة المؤمنين، وهذا – في نظري – ما أسكن الحيرة قلوب مختلف الأطراف في تعاملها مع الرسول الأكرم ﷺ.

ولا يخطأ القارئ الكريم، فموضوعية الأزواج في الآية كريمة مصداقية، وإلا فالنهي وارد على مفهوم الطمع.

ما أريد قوله، هو أنَّ الاستبداد قد تخلقه البروليتاريا في عقلية الإدارة، ثُمَّ إنَّها تحكم عليها بالبرجوازية المستبدة، وهذه المسألة تحتاج إلى تفكير عميق مع توقف تحليلي موضوعي دقيق، وليت المقام مقامه.

ثانيًا:

يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى**

---

١ – الآية ٨٨ من سورة الحجر.

كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

ويقول تبارك ذكره: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[2].

إنَّ للطمع والتمحور على الذات ميادين كثيرة، والميدان الاقتصادي واحد منها، غير أنَّها كلها معلولة لعلة بعيدة هي (شهوة النفس)، وهذه الشهوة إحدى البواعث النفسانية:

١- العلم، وحدُّ الاعتدال فيه الحكمة، والإفراط جربزة، والتفريط جهل.

٢- الغضب: وحدُّ الاعتدال فيه شجاعة، والإفراط تهور، والتفريط جُبن.

٣- الشهوة: وحدُّ الاعتدال فيها عِفَّة، والإفراط شره، والتفريط بلادة.

٤- العدل: ويتحقق بقدر ما يقترب الإنسان من حدود الاعتدال في البواعث الثلاثة السابقة.

١- الآية ١٥ من سورة النمل.

٢- الآيات ٣٢- ٤٤ من سورة الكهف.

وبالتالي فإنَّ القضية راجعة إلى حال النفس من حيث التهذيب والتسافل، فإن هُذِّبَتْ قهرتْ غرور المنصب وعُجب الثقافة وتعالي المال وما نحو ذلك، ولكِنَّ تسافلها يظهر وبِقَدَر التسافل استبدادًا ضِدَّ كُلَّ مقدور لها.

ما أفهمه هو أنَّ التلاشي الطبقي – إنْ وَقَعَ – لا أثر له على تهذيب النفس؛ إذ أنَّ دواعي الصراع النفسي الذاتي لا تزال قائمة، ولا يمكن إلَّا أن تكون كذلك مادام الإنسان مُفَكِّرًا.

المقال
13

«مناقشات وردود (٤) / العقل والتطور والمادة»

على صعيد المادة، فإنَّ العالم البشري يشهد قفزات هائلة في مجال التصنيع بمختلف صنوفه وأشكاله، وقد بات من الصعب جدًّا، وربَّما من المستحيل السيطرة على الهيجان العلمي التقني الذي يحاول تجاوز كل شيء.. حتَّى الزمن!

• **الشيوعيَّةُ الماركسية والمثالية الهيغلية:**

تُرجِعُ الشيوعِيَّةُ هذه النزعة العقلية الإبداعية إلى الجموح البشري البرجوازي، فكُلَّمَا أرادت البرجوازية إحكامَ سيطرتها، كُلَّمَا توسعت في مصانعها، ولازم ذلك التوفر على عقول إبداعية تفرض التوسع الذي يساوقه ضرورة اتِّساع سوق المال، وهكذا تدور المعادلة في المجتمع البشري.

من المهُمِّ هنا، ملاحظة الدورين المحوريين في هذه المعادلة، وأقصد بهما: العقول، ورؤوس الأموال، ومن الواضح أنَّ الضرورة التوسعية تربط بينهما ربطًا لا يُتصور انحلاله، فصاحب المال يحتاج لعقول مبدعة، وإذا ما وقعت العقول في هوى المال، فحينها قد قامت الأركان الرئيسية للمعادلة، وبقيت السواعد يشتريها المال، والمستهلك يرجعه لصاحبه.. صاحب رأس المال.

ثَمَّة نظرية أخرى سابقة، وهي خلاصة الفلسفة المثالية التي أبرزها الألماني هيغل تحت عنوان: الديالكتيك، غير أنَّ هيغل يُرجِع التطور في الفكرة البشرية إلى نزعة أصيلة نحو الحرية، ويرى أنَّ الفكرة تُولد ويُولد معها نقيضها الجزئي أو الكلي، وتلتقيان

فتُنتجان فكرةً أوسع منهما، فيولد مع هذه الأخيرة نقيضها الكلي أو الجزئي، وهكذا تبقى العملية في توالد حتَّى يصل المجتمع البشري إلى الحرية الشاملة، وهي مرحلة نهاية التاريخ، ولذلك يرى هيغل بأنَّ كلَّ عهد لا بدَّ أن يكون أفضل من سابقه، فالمجتمع البشري في تطور إيجابي مستمر وبدافع مباشر من نزعة الحرية الأصيلة في الإنسان.

يتعامل الفكر الشيوعي مع معادلة التطور من خلال استراتيجية واضحة قرَّرها في بيانه الرسمي، وهي:

«فقبلًا رأينا أنّ الخطوة الأولى في ثورة العمّال هي ترفيع البروليتاريا إلى طبقة سائدة والفوز بالديمقراطية.

فالبروليتاريا ستستخدم سلطتها السياسية لتَنتَزع من البرجوازية تدريجيًا رأسَ المالِ كله، ولِتُمركز أدوات الإنتاج كلّها في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظَّمة في طبقة سائدة، ولتزيد حجم القوى المنتجة بأقصى سرعة ممكنة.

وفي البداية، لا يمكن حدوث ذلك طبعًا، إلاّ بالانتهاك الاستبدادي لحقّ الملكية ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، أي بتدابير تبدو، اقتصاديًا ناقصة وغير مأمونة البقاء، لكنّها تتجاوز نفسها في مجرى الحركة، وهي لا غنى عنها كوسيلة لقلب نمط الإنتاج بأسره.»

وهذه الرؤية تُعَدُّ في نظر المُنَظِّر الشيوعي تعديلًا جوهريًا على الديالكتيك الهيغلي، وقد قال كارل ماركس بأنَّ هيغل قد أوقف الديالكتيك على رأسه، وقد قام هو (ماركس) بتعديله، فالديالكتيك الآن يقف على رجليه!

*** السياسة والرؤى الفلسفية:**

تقوم أنظمة الحكم في العالم على عناوين فلسفية دقيقة، ولا أكثر صراحة من

كتاب الأمير لمياكافيلي[1] الذي لا يزال مادة أوليَّة رئيسية في البحوث والدراسات لاستراتيجيات الإدارة السياسية، ولا تنحصر الفائدة من هذه الدراسات في أنظمة الحكم الرسمية فحسب، فهي محلُّ اهتمام الأحزاب والتنظيمات بمختلف مستوياتها، ولذلك فنحن نعيش على المستويين الرسمي والمجتمعي تطبيقاتٍ لتلك النظريات الفلسفة التي تمر عبر التيارات الفكرية المتمثلة في الأحزاب والتنظيمات بشكل عام، وهذه الأخيرة ليس بالضرورة أن تكون على دراية وإحاطة بالفلسفة التي تقوم عليها، ولكن يكفي أن تكون عليها من حيث لا تعلم.

النتيجة التي أراها، هي أنَّ المجتمعات لا تملك غير الاندماج مع كلِّ ما هو قائم، ما لم تكن لها فلسفتها الخاصة، وما لم تتمكن من فرضها واقعًا وحقيقةً، ونحن كمسلمين نعتقد بأنَّ للثقلين المقدسين (الكتاب والعترة) المحورية في كُلِّ نظرية سياسية أو اجتماعية أو تربوية أو غير ذلك، وعلى مستوى النظر نعي باستحالة التصادم بين الثقلين وبين الرؤية العلمية الصحيحة في أيِّ مجال من المجالات.

مثلًا:

عندما نأتي للتعاطي في الشأن السياسي، فنحن نرتكز على قول الله سبحانه وتعالى **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾**[2]، والروايات الواردة في خصوص الظهور المقدس للإمام المهدي المنتظر (أرواحنا فداه)، وبهذا الارتكاز نعلم إجمالًا بأنَّ مسؤولية الإصلاح والتغيير لا نتحملها بشكل كامل

١- عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلّي (١٤٦٩ – ١٥٢٧) ولد وتوفي في فلورنسا، كان مُفكرًا وفيلسوفًا سياسيًا إيطاليًا إبان عصر النهضة. أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبح فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن يكتب تعليمات الحكم، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيَّد فيه فكرة أنَّ ماهو مفيد فهو ضروري، وقد كان صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية.

٢- الآية ٥ من سورة القصص.

كما يذهب إليه الشيوعي أو الهيغلي، فهناك قوة أخرى نؤمن بها تمامًا سوف تقوم بمهمَّة الحسم في الوقت المناسب، ثُمَّ إنَّنا نرجع إلى الآيات والأحاديث لنرسم الاستراتيجيات التي ينبغي علينا تفعيلها على هذا الطريق.

وبالنسبة لما نحن فيه، فإذا كان الشيوعي يرى حتمية الصراع ويُحَمِّل نفسَه الدفع في اتِّجاه تأجيجه كمقدمة وجودية لتلاشي الطبقات وبالتالي انتشار السلام، وإذا كان هيغل على طبيعية الحركة البشرية وإنَّ الحريَّة الكاملة قادمة لا محالة، فنحن في الإسلام ننطلق في إعمالنا الفكري من قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[1].

نعتقد بأنَّ هذه الدنيا دارُ عداوةٍ وشحناء، وهذه الحالة نتيجة لمعصية الإنسان التي أخرجته من جَنَّةٍ أُبيحت له تفضُّلًا من الله سبحانه وتعالى، غير أنَّ مطبَّ الدنيا مخصوص لمن أراد الوقوع فيه، وأمَّا طريق النجاة فمتاح لمن يتَّبعَ سبيل الصالحين، وهو ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[2]، ومن يتَّخِذ هذا السبيل كان عليه التركيز على صيانة نفسه والمحافظة عليها من حبائل الشيطان الذي لا ينفك مجتهدًا لجرِّ الناس نحو هاوية الدنيا، وتأتي هذه الصيانة على طريق انتظار الفرج المكتوب على يد الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**المهدِيُّ من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خَلْقًا وخُلُقًا.**

١- الآيات ٣٤ – ٣٩ من سورة البقرة

٢- الآية ١٥٣ من سورة الأنعام

تكون له غيبة وحيرة حتى تضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلك يُقبِلُ كالشهاب الثاقب، فيملأها قسطًا وعدلًا، كما مُلِئت ظلمًا وجورًا»[1].

كما ونعتقد بأنَّ هذا الظلم والجور لا يكون بالقتل وسفك الدماء فقط، ولكنَّ الأصعب والأكثر خطورة، هو الظلم والجور بانقلاب الخير شرًّا والشرِّ خيرًا، وبأن ترى الناس المنكر معروفًا فتعمل به، والمعروف منكرًا فتنتهي وتنهى عنه، وقد قال ﷺ في وصفه لأحوال آخر الزمان: «**إنَّ من أشراط القيامة إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، والميل مع الأهواء وتعظيم المال، وبيع الدنيا بالدين، فعندها يُذاب قلب المؤمن في جوفه كما يُذاب الملحُ في الماء؛ مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيره. ثُمَّ قال: عندها يكون المُنكرُ معروفًا، والمعروفُ منكرًا**»[2].

ولذلك، فإنَّ الصراعات والنزاعات ليست من الأمور التي يُفرضُ على الإنسان خوضها والتفاعل معها بما يُحَقِّقُ تلاشي الطبقات، فالحرية والسلام كما تذهب إليه الشيوعيَّة، ولا القضية قضية تطور ديالكتيكي مستمر نحو الحرية الشاملة كما يرى هيغل.

نعتقد بقوة الإنسان الكافية والتي تؤهله لاتخاذ القرار الذي توصله إليه منظومتُه الثقافية والفكرية ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً**﴾[3]، وهو في هذه أمام خيارين لا ثالث لهما:

الأول: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾[4].

١- الإمامة والتبصرة، ابن بابويه القُمِّي – ص ١٢٠.

٢- وسائل الشيعة (الإسلامية) - الحر العاملي - ج ١١ - ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

٣- الآية ٨٤ من سورة الإسراء.

٤- الآية ٩ من سورة الشمس.

الثاني: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1]

ومن خلال هذه الأسس الأصيلة في العقيدة الإسلامية، ينطلق الإنسان في تعاطياته مع المجتمع البشري، وتحديدًا بالبناء على **﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِم﴾**[2] فصلاح المجتمع في نظر العقيدة الإسلامية جزاءٌ لشرط إصلاح النفس المجتمعية، وبالتالي فإنَّ الاقتصاد وآلة الانتاج في الفلسفة الشيوعية، والتطور الديالكتيكي عند هيغل، كُلُّه متوقِّفٌ على قوة العقل وخياراته، وأيُّ انجراف مع التيارات الفلسفية المنتقضة قرآنيًا وعترويًا فهو اتباع للسبل المقابلة للصراط المقرر في كتاب الله تعالى.

١- الآية ١٠ من سورة الشمس.

٢- الآية ١١ من سورة الرعد.

المقال
14

«مناقشات وردود (٥) / الصراع ورفع الحاجة النفسيَّة»

أيُّ حركة من الإنسان فإنَّها تصدر لحاجة يعيش صراعها تحت عنوان وجوده التكويني، ولا حركة إلا وتتبع حاجة، ولكنَّ هذه الأخيرة لا تحدِّد الحركة الرافعة لها، وإنَّما تحدِّدها قوَّة العقل المودع في الإنسان، وكلَّما حدَّتْ الحكمة فيها، كلَّما هيمنتْ على دائرة الخيارات، وتمكَّنت من الدقَّة في اختيار الأصوب.

هي معادلة غاية في التعقيد، فلو إنَّنا نسأل عن الحاجة الدافعة لاختيار هواية من الهوايات المعروفة، ولتكن (جمع الطوابع)، لكان التفكير أوَّلًا في سبب عدم اختياره هواية أخرى مثل (الفروسيَّة)، ولماذا كانت (جمع الطوابع) تحديدًا، وما هي المتعة التي يولِّدها ارتفاع الحاجة عند جمع الطوابع وترتيبها وتصنيفها؟

مجموعة كبيرة من الأسئلة ترِدُ على موضُوعيَّة الحركة، ومنها: مدى ارتباطها بالغير!

قد تنشأ حاجة في النفس للكون في شخصية تشبه أوَّل وأشهر جامعي الطوابع البريدية الدكتور جون أدوارد جري، وهو يتصفح مُصنَّفه الفريد في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ومن هنا يقع الخيار على هواية جمع الطوابع، غير أنَّ سؤالًا جديدًا يفرض نفسه بقوَّة، وهو: لماذا كان الانجذاب للدكتور جون، ولم يكن لغيره من المشاهير؟

عندَّما يُقَرِّرُ الشيوعيُّ الطبقيَّةَ منشأً أصيلًا للصراع البشري، فإنَّ السؤال التحليلي يرد بموضوعيَّة تامَّة: لماذا تكون الطبقيَّة سببًا للصراع؟

لو إنَّنا نمتلك آلية إعلاميَّة تثقيفيَّة قويَّة، فهل نتمكن من خلالها أن ننشر ونرسِّخ ونجذِّر لثقافة جديدة تقوم على الفهم الأُموي للآية الكريمة (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[1]، وهو: أنَّ الحاكِمَ حاكِمٌ بمشيئةِ وإرادة الله تعالى، والعبدَ عبدٌ بمشيئةٍ وإرادةٍ إلهيَّةٍ سابقةٍ، وقد روى مسلِمُ في صحيحه عن أبي سلام قال: قال حذيفة بن اليمان، قلتُ: «**يا رسول الله، إنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فجاء اللهُ بخيرٍ فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شَرٌّ؟**

قال: نعم.

قلت: هل وراء ذلك الشر خير؟

قال: نعم.

قلت: فهل وراء ذلك الخير شر.

قال: نعم.

قلت: كيف؟

قال: يكون بعدي أئمَّة لا يهتدون بهُداي، ولا يستنُّون بسنَّتي، وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس.

قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركتُ ذلك.

قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع»[2].

هذا من الأحاديث التي يرويها السنَّة في صحاحهم ويرفضها الشيعة رفضًا قاطعًا، ولكِنَّها وعلى أيَّة حال، لا تزال فاعلة بقوَّة في منظومة العقليَّة الحاكمة أنظِّمةً وشعوبًا.

فما أريد أن أقوله هنا هو إمكان التغيير الثقافي في المجتمعات بمنظومة من الجهود

---

١ – الآية ٢٦ من سورة آل عمران

٢– صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن

الفاعلة إعلامية وسياسية واقتصادية وما نحو ذلك، ولكن يبدو أنَّ النظرة الشيوعيَّة لا توافق على إمكانيَّة السيطرة على نزعة الصراع الطبقي بأيِّ حال من الأحوال، وهنا يرد سؤال:

هل يحتاج العمَّال إلى تحريك وتهييج لمواصلة الصراع؟

وهل للبرمجة الثقافيَّة المضادَّة أهليَّة السيطرة على شريحة من العمَّال المعوَّل عليهم في الصراع الطبقي؟

وإذا كان الجواب بنعم، فما المانع من أن تكون السيطرة على النسبة الأكبر وعزل الباقي؟

إذا كانت ثورة البروليتاريا طبيعيَّة حتميَّة، فما الداعي لتبنِّي الحزب الشيوعيّ مهمَّة التنظير لها ومساندتها؟

يقولون بأنَّها ثورات غير منظَّمة، وتحتاج إلى رؤى واستراتيجيات، وهذا ما يتكفَّل به المُنَظِّر الشيوعي.

يظهر لي أنَّ الطبقيَّة واضحة بين البروليتاريا والمُنَظِر الشيوعي الذي يريد السيطرة من الأعلى على حركة العمَّال وتوجيهها بحسب ما انتهت إليه رؤاه، غير أنَّها طبقيَّة ثقافيَّة، ولا أراها تختلف عن الطبقيَّة الاقتصاديَّة، وهنا بعض ممَّا قاله فلاديمير لينين، قائد الثورة البلشفيَّة:

- إنَّ شعبًا لا يُجيدُ استخدام السلاح، ولا يسعى لاستخدامه، لا يستحقُّ أن يُعامل الَّا معاملة العبيد.

- الثورة تعتبر مستحيلة، ما لم يكن هناك حالة ثوريَّة، وليست كُلُّ حالة ثورية تقود إلى ثورة.

– عندَّما يقوم شخصٌ بالثورة، فلا يوجد جدولٌ زمنِيٌّ، بل يجب عليه الأتِّجاه إلى الأمام.

– لا يُمكِنُ التنبؤ بوقت الثورة، أو تطوُّرِها، فما يحكم الثورة هو قانونها الخاص.

– لن يكون بأمكانك القيام بثورتك وأنت ترتدي القفازات البيضاء.

أراها وغيرها من الخطابات الشيوعيَّة، وأضيفُ إليها النازيَّة والفاشيَّة خطابات تعتمد السيطرة (التثويرية) بالتركيز على باعثين أساسِيَّين من البواعث النفسانية الأربعة، وهما: باعث الغضب، وباعث الشهوة، وذلك بتحريك كُلِّ واحد منهما صوب الإفراط، فالتهور في الأول، والشره في الثاني.

كما وتعتمد تِقنيَّتين مهِمَّتين، تقنيَّة العامل الجماهيري، وتقنيَّة التنظيم بشكليه الهرمي والعنقودي، وبهاتين التِقنيَّتين يتولَّد في الفرد شعورٌ بالقوَّة والمنعة، وهذا الشعور ضروريٌّ في مرحلة التحريك المُوجَّه.

وكيف كان، فإنَّ الجماهير في النظر الشيوعيّ، وقبل الوصول إلى نقطة الاضمحلال الطبقِيّ، يجب السيطرة عليها وحمايتها من أيِّ إفساد دينيّ أو ما يشبهه من أطروحات نقديَّة في ميدان مواجهة الظلم والاستبداد وغير ذلك.

يقول كارل ماركس: «فالعدوُّ الحقيقيّ للإنسانيَّة والتقدُّم ليس هو الجمهور، بل نزع إنسانيَّة العلاقات الاجتماعيَّة، الذي يُنجبُه النظام الرأسمالي، وإنَّ تحويل هذا النظام لا يمكن أن يكون نتاج قِتَالات آيديولوجية، كتِلك التي يخوضها النقدُ النقديُّ، بل فقط نِتاج النضال الثوريّ الذي يخوضه الجمهور»[1].

١ – أوجست كونو في كتابه (ماركس وإنجلز، حياتهما وأعمالهما) – ترجمة: إلياس مرقص.

ومن الفلاسفة الألمان المعاصرين لكارل ماركس، برونور باور، وكان من أصحاب العقليات المعقدّة الحادّة، يقول في خطاب أرسله لكارل ماركس:

«الكارثة أو النازلة أكبر من تلك التي صاحبت دخول المسيحيَّة إلى العالم، ما يشهده العصر، هو المعركة النهائية الأخيرة مع عدوِّ البشريَّة الأخير... والخطيئة التي يقترفها الإنسان ضدَّ نفسه والتي هي أكثر صعوبة، هي أنَّ الإنسان لا يستطيع تجنب المعتقدات الدينيَّة، بل يراها في العين الإنسانيَّة، ويُغلِق عينيه ويغوص فيها قبل عمله الخاص، والشيء الوحيد الذي يمنع التحرُّر الكامل هو الخوف من أن يفقد الإنسان ذاته، قبل أن يكسب ذاته مرَّة أخرى»[1].

في تصوري أنَّ الرأسمالية أصابت الإنسان بإعاقة كبيرة في قدرته على الخروج من دائرة (الرزق والمعيشة)، فهي قد حوَّلتْه إلى آلةٍ صَمَّاء تعمل للإنتاج، ولذلك نرى الإجابةَ واحِدَةً فاردَةً على مجموعة الأسئلة التالية:

لماذا تتزوج؟ لماذا تُنجِب؟ لماذا تتعلم؟ لماذا تسعى للشهادة الجامعية؟ لماذا تبحث عن وظيفة؟ لماذا تتمسك بنظام الراتب التقاعدي؟

الإجابة على هذه الأسئلة لا تخرج عن (طلب المعيشة)!

هذا، وما أفهمه هو أنَّ الزواج لغاية سامِيَة موقعها المحافظة على التطور النوعي للإنسان روحًا وعقلًا، والإنجاب لتجنب الأخطاء التربويَّة التي وقع فيها الجيل السابق، والعلم يُطلب لنفسه، فهو المائز الحقيقي للإنسان عن غيره من بني جنسه (على حّدٍّ ما وصل إليه الإدراك البشري)، والوظيفة لغاية الإبداع العلمي والمساهمة في تطور الإنسانية.. وهكذا، غير أنَّ ثقافة المال والمعيشة قد سيطرت على مفاصل العقليَّة الحرَّة، وحلَّت مكان السمو الإنساني.

١- نقد فلسفة هيجل/ كيركجورد – فويرباخ – ماركس، للدكتورة فريال حسن خليفة.

وأمَّا الشيوعيَّة فاجتهادها في تذويب الفرد في جماهير (الثورة) التي تبرِزها المستحقَّةَ الوحيدة للحياة الحرَّة، فلا للنَّقد ولا للتنظير ولا لشيء غير حمل السلاح والمواجهة، ومن يشذُّ فهو خائِنٌ جبان!

في حالتيِّ الرأسمالية والشيوعيَّة، أتمكن من إرجاع حركة الإنسان إلى إرادة الغير، وإن ظهرت على خلاف ذلك.

أمَّا ما نعتقده، فإنَّ الإسلامَ منظومةٌ إنسانيةٌ لا تمارس أيَّ نوع من الضغط على الإنسان، سواء دخل في دائرتها أم لا، وذلك لأنَّه قائم على نشأتين، إحداهما الدنيا، والأخرى الآخرة، وفي هذه الثانية يقوم الحساب على ما كان في الأولى.

يقول تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾[1].

ويرفض الإسلام ممارسة التسلُّط بمختلف صنوفه، فيقول: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾[2].

وإذا اختار الإنسان هذا الدين، فإنَّه يلتزم بما يقتضيه الإيمان به: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[3].

١- الآية ٩١ من سورة الأنعام.

٢- الآيات ٢١ – ٢٦ من سورة الغاشية.

٣- الآيات ١٤ – ١٥ من سورة الحجرات.

وفي القضايا الخطيرة والمحورية، فإنَّ الأمر للحكيم العلَّام، ولا يسمح فيها للاجتهادات الشخصية التي قد تنتَّهي بالإنسان إلى نتائج كارثية: ﴿**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَّ بِدِينِكُمْ وَاللهُّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللهُّ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللهَّ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُّ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[1].

وقال عزَّ وجلَّ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَّ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهَّ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[2].

وعند غياب القيادة المعصومة المُؤَمِّنَة من الوقوع في المهالك، فإنَّ الإعمال لقول الإمام الصادق عليه السلام: «**الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة**»[3].

وقول النبيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**الأُمور ثلاثة: أمر بيّن لك رشده فاتبعه، وأمر بيّن غيّه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فردّه إلى الله**»[4].

فالإسلام يحترم الإنسان، ويحترم خيارات الإنسان، ولا يفرض عليه ضغوطًا، ولا يصادر قدراته العقليَّة، ولا يزجُّ به في مواجهات لا يضمن فيها إحدى الحسنيين، ولذلك نجده في حالة تركيز على أن يكون الحراك نابعًا من القوَّة العقليَّة للإيمان الحقيقي ﴿**وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾[5].

١- الآيات ١٦ – ١٨ من سورة الحجرات.

٢- الآية ٥٩ من سورة النساء.

٣- الكافي، محمَّد بن يعقوب الكليني، ج ١، كتاب العقل والجهل، باب النوادر ح٩.

٤- موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام، الشيخ هادي النجفي، ج٨، باب (الغاء) تحت عنوان: الغي، الحديث ٢ عن الصدوق في كتاب من لا يحضره الفقيه.

٥- الآية ١٥٤ من سورة البقرة.

وهنا يُسجِّل الإسلام نقطته الفارقة، وهي تقرير الاتصال بين الوجدان الإيماني في الإنسان وبين العقيدة، فلا سلطة لإنسان على آخر إلا أن تكون ملازمة لمقام الخلافة الإلهية الحقَّة، وهذا الاتصال لا يكون فاعلًا ما لم ينطَّلق من شعور حقيقي بالنقص الذي لا يُطلَبُ سَدُّه إلَّا من جهة الكمال المطلق، ولا يُقبل ممَّا هو دون ذلك.

• **ملاحظة**: موضوع الرؤية الإسلامية يحتاج إلى إشباع، وهذا ما أعِدُ به القارئ الكريم في المرحلة الثالثة من السلسلة إن شاء الله تعالى.

المقال
15

«مناقشات وردود (٦) / التنظيماتُ الحُقوقِيَّةُ والنقَابِيَّة»

• في البدء ملاحظة:

يقع عنوان (مناقشات وردود) مرحلةً ثانيةً من مراحل ثلاث تُشَكِّل سلسلة (الشُيُوعيَّة وإنْ غابَ أو (غُيِّبَ) رَسْمُهَا)، وهي مرحلة تعني بالتفكيك دون التركيب، وهذا الأخير سوف يأتي في المرحلة الثالثة من السلسلة إن شاء الله تعالى، ولذلك، أطلب من القارئ الكريم عدم الاستعجال، فالحلول والبدائل تأتي تاليًا بحوله وقوته عزَّ وجلَّ.

• مقدِّمة:

هذا خلقٌ بشريٌّ قائم، فيه الحَسَنُ من قِيَم ومَلَكَاتٍ إنسانية مثل العدل والشجاعة والتسامح وحبِّ الخير، وفيه القَبِيحُ، وهو الضِدُّ المباشر حتميُّ التحقق بمجرد ارتفاع الحَسَنِ؛ فَتَرْكُ الإنسان لممارسة العدل هو بالضرورة ظلم، وإن التزم داره وصام عن كُلِّ علاقة اجتماعية، ولذلك كان «الساكت عن الحقِّ شيطان أخرس»، غير أنَّ هذه القاعدة الأخيرة، ولَمَّا فُسِّرتْ بحسب بعض الثقافات، أو كأثرٍ لها، عادَ عَدَمُ السكوت عن الحَقِّ توغُّلًا في الشيطَنَةِ بدل أنْ يكون فِرارًا منها!

إنَّه لا معنى لحصرِ (عدم السكوت) في الصِرَاخ، وهو كذلك في مختلف القضايا الإنسانية، ومنها قضية المطالبة بالحقوق التي يُطلق عليها عنوان (الحقوق المدنيَّة) تارة، و(العمَّالية) تارة أخرى، و(الأساسية) و(الطبيعيَّة) وما نحوها..

- هنا معادلة واضحة:

عندما يكون الغاصِبُ للحقِّ ضعيفًا، فإنَّ دفعه سهلٌ يسيرٌ، ولكنَّ هذا الضعيف نفسه، عندما يتحول إلى موقع القوَّة، فإنَّه يعمل على تحصين نفسه من جهة، وإحكام قبضته (الرادعة) لكُلِّ من (تُسوِّل) له نفسُه المطالبة بحقٍّ من حقوقه.

تضعف القدرة على مواجهته؛ فالمواجهة مكلِفة، ولن يرتدع، والتاريخ يشهد بأنَّ القويَّ لا يكسره إلَّا الأقوى، وقوة القنبلة التي تدمر العشرات، لا تقدر عليها إلا أخرى تماثلها، ولذلك فإنَّ انحدار القويُّ وتسافل القيم عنده، لا يكسره (بحسب موازين البشر) إلَّا تسافلٌ يوازيه أو يطغى عليه، ومن هنا كان القضاء على البرجوازية غير ممكن إلا بدكتاتورية البروليتاريا.

يقول فلاديمير لينين:

«إنَّهم يخافون من الاعتراف بأنَّ ديكتاتورية البروليتاريا هي أيضًا مرحلة من مراحل النضال الطبقي المحتوم طالما لم تُمح الطبقات، والذي تتغيَّر أشكالُه وتشتدُّ ضراوتُه وحِدتُّه، ويغدو جِدَّ أصيل في الأزمنة الأولى التي تلي إسقاط الرأسمال. إنَّ البروليتاريا لا تكفُّ عن النضال الطبقي بعد الإستيلاءِ على السلطة السياسيَّة، إنَّما تواصِل النِضال حتى محو الطبقات، ولكن طبعًا في أحوال أخرى، بِشكل آخر، بوسائل أخرى»[1].

هذا محور من محاور معادلة المواجهة، وأمَّا المحور الثاني فهو تطويع المطالبة بالحقوق لمصلحة أمرين يتضحان تاليًا إن شاء الله تعالى.

هذا حقِّي أطالب به.. هذا حقِّي أنتزعه.. هذا حقِّي أحميه من أن أُغْصَبَه..

هي عناوين قديمة قِدَم المجتمع البشري، ولتحقيق مضامينها برزت الكثير من الأفكار كان من أكثرها تداولًا ورعاية أمميَّة، فكرة التنظيمات المدافعة عن (حقوق

١- الحوار المتمدن - العدد: ٢٩٣٣ - ٣ مارس ٢٠١٠ ميلادية.

الإنسان)، وفي الغالب، تقوم هذه التنظيمات على أدبيات صريحة واضحة، تأتي في مقدمتها (سلميَّة المطالبة على طول الخط)، ولأنَّ السلميَّة في (المطالبة) لا تعني شيئًا للظالم الغاصب المستبد الجائر، فإنَّ أساليب المواجهة فيها عادةً ما تكون مقدِّمة لتحول مفهوم المطالبة من حَقٍّ يُراد استخلاصه، إلى وظيفة تخصُّصِيَّة لها قوانينها وأصولها الموضوعة بحسب موازين فلسفيَّة ثابتة، قد لا يكون العامل في مجال (حقوق الإنسان) ملتفت إليَّها، ولكنَّ الذي أعتقده هو أنَّ (منظومة الأدبيات الحقوقيَّة) هي في الواقع ثقافة مقصودة تستند إلى (ثوابت) فلسفية لها جذرها التاريخي.

أتمكن باطمئنان، من الربط بين الثقافة العامة لحقوق الإنسان اليوم، وبين عقيدة الفيلسوف الألماني فويرباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢)، الذي يرى الألوهيَّة في الإنسان، ولا شيء سواه، وفي هذه النتيجة الفلسفيَّة تتحد معه النظرية الليبرالية، وهي فلسفة سياسيَّة تقوم على قيمتيّ الحرية والمساواة.

- فلنتأمل بشكل جيِّد أطراف المعادلة:

الطرف الأول: دولٌ تمارس الدكتاتورية والاستبداد بروح واحدة وأشكال مختلفة، فتلك التي تدَّعي الحريَّة، هي عندها ليست أكثر من تمثال ينتصب بتاج يعلوه وشعلة هي في أدبياته الراية، وما دونه، سجون وتحقير وبيع للأجساد ومتاجرة بالعقول، وكلُّها باسم الحريَّة والانفتاح.

الطرف الثاني: شعوب ممنوعة من حقوقها، ومنها من هو ممنوع من حقِّ المشاركة السياسيَّة، ومنها الممنوع من حق التفكير الإبداعي خارج المنظومة السياسيَّة العليا، وهناك الممنوع من حقوقه الاقتصاديَّة والاجتماعية وغيرها، فكلُّ حكومة تمارس الغصب بما يناسب عقليتها.

الطرف الثالث: انقسام المجتمعات من حيث المطالبة بالحقوق إلى ثلاث فئات رئيسية:

الأولى: فِئَة مُخَدَّرة، ولا تتمكن من التفكير في أكثر من معاشها وبأي مستوى يتاح لها، فهي تمشي بدائها ما مشى بها، دون أدنى دافع للتغيير.

الثانية: فِئَة غير قادرة، أو أنَّها لا تريد التفكير في غير عنوان المواجهة المباشرة وانتزاع الحقوق بالقوة، وهذه هي الملامة دائمًا؛ وإن ضُرِبت بيد البطش، كان ذلك مُبَرَّرًا بكونها تشكل تهديدًا على الأمن الداخلي وما نحو ذلك من عناوين سياسية معروفة.

الثالثة: الفئة المدافعة عن (حقوق الإنسان) بحسب المواثيق الدولية المقرَّرة في الأمم المتحدة، وهي وإن تعدَّدت توجهاتها، إلَّا أنَّها تجتمع في الفلسفة الليبرالية في خطوطها الكليَّة العامة.

عندما ننتقل إلى المشاهدة الخارجية، فإنَّ ما نراه هو ملفات (حقوقيَّة) تتضخم مع كل حركة لها من دولة إلى دولة، ومن طاولة إلى أخرى، ومن منصَّة إلى ثانية، وفي كُلِّ لحظة تُبدِي المنظماتُ الحقوقيةُ (قلقها)، ويكون توثيق الانتهاكات من ظلم وجور وسفك للدماء، انجاز بطولي قام به (الموثِقون)، وبه استحقوا الترميز، ثم يتجدد المشوار بانتهاكات جديدة وتوثيقات جديدة وقلق جديد، وهكذا..

بهذه المعادلة تُؤَمِّنُ حُكُوماتُ البطش والاستبداد وجودَها بنفس الأداة التي يُؤمِنُ الليبراليون بها طريقًا لنيل الحقوق، ثُمَّ لهذه التركيبة الحقوقيَّة دور آخر يأتي عندما تقرر الدول العظمى إزالة نظامٍ من أنظمة الحكم، فإنَّها تلجأ إلى اتخاذ قرار أمميٍّ يستند على ملفات حقوقيَّة سابقة!

• **ملاحظة مهمَّة**: تشرفتُ بالتعرف على عدد غير قليل من العاملين في حقل حقوق الإنسان في بلدنا، ولم أجدهم إلَّا خيِّرين طيِّبين مُحبِّين للخير، فما أناقشه هنا إنَّما هو الفكرة، ولا علاقة للأمر بالشخصيات على الإطلاق.

تبقى عندنا الفئة الثانية من الطرف الثالث، وهي المعروفة بعنوان (الثوريَّة)، وفي نظري، هي الخطُّ الذي تدفع به الشيوعيَّة أمام خطٍّ آخر تطلق عليه عنوان (النضال)، وهذا تنظيم أرى المُنّظِّرَ الشيوعي قد استحدثه بعد السقوط العنواني للاتحاد السوفيتي في نهاية (١٩٩١م)، فالمُنَاضِلُ اليوم هو الذي يفرغ نفسه لتحمل هموم الناس في الأطر الحقوقيَّة، التي كلَّما زاد تمسكُه بها، كلَّما علا نجمُه بين الناس، وأمَّا (الثوري)، فهو الذي اختار طريق المواجهة المباشرة بالقوة، وعليه يعتمد المناضل الحقوقي في تحقيق أعلى مستويات المهنية في الملف الحقوقي الذي يحمله.

يتَّضِحُ الأمران، فالأوَّل هو حماية الظلم مقصدًا للرأسمالية، واستغلالها مقصدًا للماركسية، وأمَّا الثاني، هو تخدير المطالبات وتحريكها في الاتِّجاه الذي يفرضه ديالكتيك الرأسمالية والشيوعيَّة.

• النقابات والتعاونيات:

تنتشر في مجتمعاتنا ثقافةُ النقابات والتعاونيات كمَعْلَمٍ من معَالِمِ التحضر والرقي، وقد يكون هذا صحيحًا في نفسه، ولكنَّ الذي ينبغي لنا تتبعه بِدِقَّة هو مهارة الآخر في استغلال الواقع القائم لمصلحته، ومن أمثلة هذه الاستراتيجية المتقدِّمة، التوجه الشيوعي لاستغلال المنظمات النقابية والتعاونية بقوة وعن دراسة واهتمام، وقد جاء في مُقرَّر المؤتمر الثاني للشيوعيَّة الأمميَّة:

«يقرر المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية أنَّ شروط القبول في الأممية هي التالية:

١- ينبغي أن يكون للدعوات والتحريض اليوميين طابع شيوعي حقًّا، وأن يتفقا مع برنامج الأممية الثالثة وقراراتها، وأن يحرِّر كامل صحافة الحزب شيوعيون حقيقيون، أثبتوا تفانيهم في سبيل قضية البروليتاريا. ولا يحْسن الحديث عن الديكتاتورية البروليتارية كصيغة محفوظة ورائجة، بل يجب أن تتم الدعوات بشكل يُظهر ضرورة هذه

الديكتاتورية لكلِّ شغيل، لكلِّ جندي، ولكلِّ فلاح، عبر وقائع الحياة اليومية نفسها المدوّنة في صحافتنا. إنَّ الصحافة الدورية أو غيرها وجميع مصالح النشر يجب أن تخضع كليًّا للجنة المركزية للحزب، أكان هذا الحزب شرعيًا أو غير شرعي. فمن غير المقبول أن تسيء أجهزة الدعوات استخدام الاستقلالية، من أجل اتِّباع سياسة لا تتفق مع سياسة الحزب في أعمدة الصحافة، وفي الاجتماعات العامة، وفي النقابات، وفي التعاونيات، وفي كُلِّ مكان يصل إليه أنصار الأممية الثالثة، عليهم أن يفضحوا بشكل دائم ودون شفقة ليس فقط البرجوازية بل المتواطئين معها أيضًا، الإصلاحيين بمختلف تلاوينهم.

٢- على كلِّ تنظيم يرغب في الانتساب إلى الأممية الشيوعية أن يُبعِد الاصلاحيين و«الوسطيين» بانتظام وبشكل دائم عن المراكز، التي تفرض ولو حدًّا أدنى من المسؤولية (منظمات الحزب، التحرير، الكتلة البرلمانية، التعاونيات والمجالس البلدية)، وأن يستبدلهم بشيوعيين مجربين – دون أن تخشى أن يكون عليه، خاصة في البداية، أن يستبدل مناضلين مجربين بشغيلة متدرجين.

٣- يدخل الصراع الطبقي في جميع بلدان أوربا وأمريكا تقريبًا مرحلة الحرب الأهلية، ولا يمكن الشيوعيين ضمن هكذا شروط أن يثقوا بالشرعية البرجوازية، وعليهم أن يخلقوا في كل مكان بموازاة التنظيم الشرعي، جهازًا سريًا قادرًا على تأدية واجبه في اللحظة الحاسمة تجاه الثورة، وفي جميع البلدان حيث لا يتمكن الشيوعيون من تطوير نشاطهم بأكمله بشكل شرعي، بسبب حالة الطوارئ والقوانين الاستثنائية، يصبح الجميع بين النشاط الشرعي والنشاط غير الشرعي ضرورة أكيدة.

٤- إنَّ واجب نشر الأفكار الشيوعية يفرض ضرورة اتِّباع دعوات وتحريض منظمين ومستمرين بين الجنود، كضرورة مطلقة، وحيث تصعب الدعوات العلنية بسبب القوانين الاستثنائية، يجب أن تتم بشكل غير شرعي، ورفض ذلك يعني خيانة الواجب الثوري وهو بالتالي لا يتناسب مع الانتماء للأممية الشيوعية.

٥- هناك ضرورة للتحريض العقلاني والمنهجي في الأرياف. فالطبقة العاملة لا تستطيع أن تنتصر إذا لم تكن مدعومة على الأقل بجزء من شغيلة الأرياف (المياومين الزراعيين وفقراء الفلاحين) وإذا لم تحيّد بسياستها جزءًا على الأقل من الريف المتخلف. إنَّ النشاط الشيوعي في الأرياف يكسب في هذه المرحلة أهمية رئيسية ويجب أن يقوم به العمَّال الشيوعيون الذين لهم صلة بالأرياف. إنَّ رفض القيام بهذا العمل أو إسناده إلى أنصاف إصلاحيين مشكوك فيهم، يعني التخلي عن الثورة الاشتراكية.»

(أقترح على القارئ الكريم الاستفادة من قراءة المقرر كاملًا على موقع (الماركسيون):

https://www.marxists.org/arabic/marxism/politics/international/congress_2.htm#09

ليس من الوارد أن نرى الراية الشيوعيَّة مرفوعة على طاولات النقابيين، فهذا أمر بعيد في هذا الطور بحسب الرؤيَّة الشيوعيَّة -كما أفهم-، ولكنَّ الذي ينبغي التركيز عليه، هو تفحُّص الشعارات والنظريات التي ينطلق منها العمل النقابي، ثم العودة للبحث في النظريات السياسية والاجتماعية التي عصفت بالمجتمعات البشريَّة، وخصوصًا في عصر التنوير.

*** نظرية المؤامرة:**

سمعتُ كثيرًا عن من يؤيد نظرية المؤامرة، ومن يُنكِرها، وفي الواقع ليس هناك ما يسمى بنظريَّة المؤامرة، ولكن هناك من يُخطِّط عن دراسة ووعي، ثُمَّ يُنفِّذ، وإن راق للبعض تسميتها بالمؤامرة، فهي كذلك، وعلى أيَّة حال، فإنَّني لم أجد من يتحرك خارج إطار المخطط العالمي، ولك أن تسمِّي ذلك مؤامرة، وإن شئت فسمِّه صدفة، فإنَّ ذلك لن يغير من الواقع شيئًا، ولكن استغرابي لا ينقضي ممن يُنكِرون أصل وجود حراك عالمي منظم، بل حراكات عالمية نحن نعيش انعكاساتها وإفرازاتها!

المقال
16

«مناقشات وردود (٧) / الديالكتيك، سعةً وضيقًا»

ينظرُ العاقِل إلى (الفكرة)، فيبدأ بتَفَحُّصِها تفحُّصًا علميًّا موضوعيًّا؛ لغاية واحدة، هي: الكشف عن التناقضات التي تحملها، ثم التغلُّب عليها، ومن بعد ذلك يأتي التفحُّص ثانيةً، وهكذا تستمر آلية الجدل الحسن طلبًا للحقيقة.

هذا ما كان عليه فلاسفة اليونان قبل ميلاد السيد المسيح (على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام)، وفي عصر التنوير برز هيجل بنظرية التطور المستمر من خلال هذا النوع من الديالكتيك، فالواقع الخارجي عند هيجل مظهر وشكل للفكرة.

جاء كارل ماركس مصحِّحًا للديالكتيك الهيجلي - كما يرى -، وذلك بقلب المعادلة، فهو يقول بأنَّ الفكرة ليست إلَّا نتاجًا طبيعيًّا للواقع الخارجي، فالخارج هو الذي يصوغ الفكرة، وليس العكس.

وعلى أيَّة حال، فإنَّ النظرة العالمية للحزب الشيوعي هي المادِّية الديالكتيكية، وبفهمها نفهم بنيان الشيوعيَّة بشكل أكثر دِقَّة وموضوعيَّة، وقد لا نجد ما هو أكثر جودةً من ملخص جوزيف ستالين لكتاب فلاديمير لينين (المادية والنقد التجريبي)، وفيه يشير بوضوح تام لعمق الرؤية المادية، فيقول:

«على العكس من الميتافيزيق، لا يَعتَبِر الديالكتيك الطبيعةَ تراكُمًا عرَضيًّا مِنَ الأشياء، أو الظواهر، لا ترتبط إحداها بالأخرى، أو منعزلة ومستقلة إحداها عن الاخرى، بل يعتبرها كيانًا كُلِّيًّا مرتبِطًا ارتباطًا لا ينفصم، تكون فيه الأشياء والظواهر

مرتبِطَةً ارتباطًا عُضويًّا، وتَعتَمِد إحداها على الأخرى، وتُقَرِّرُ إحداها الأخرى.

وعليه، فإن الأسلوب الديالكتيكي يَعتَبِرُ إنَّه لا يمكن فهم أيَّة ظاهرة طبيعية إذا أُخِذَتْ بذاتِها، مُنعَزِلةً عن الظواهِر المحيطة بِها، إلى حَدٍّ إنَّ أيَّ ظاهرة في أيِّ مجال من الطبيعة قد تصبِحُ عديمَةَ المعنى لنا، إذا لم تُدرس بالترابط مع الظروف المحيطة بها، بل بالإنفصال عنها، وإنَّه على العكس من ذلك، يُمكِنُ فهم أيَّ ظاهرة وتوضيحها، إذا دُرِسَتْ في ارتباطها الذي لا تنفصِم عُراه مع الظواهر المحيطة بها، كظاهرة تُقَرِّرُها الظروف والظواهر المحيطة بها».

ثم يقول:

«على العكس من الميتافيزيق، يَعتَبِرُ الديالكتيك إنَّ الطبيعة ليست في حالة سكون وعدم حركة وجمود وعدم تغيُّر، بل في حالة حركة دائِمَة وتغيُّر مستمر، حالةِ تجدُّدٍ وتطور مُستمِرَّين، حيثُ ينشأ شيءٌ ما جديد ومتطور على الدوام وشيءٌ متفسِّخٌ وزائِلٌ على الدوام.

وعليه فإنَّ الأسلوب الديالكتيكي يتطلب دِراسَة الظواهر ليس فقط من وجهة نظر علاقاتها المتبادلة واعتماد بعضها على البعض، بل كذلك من وجهة نظر حركتها وتغيُّرها وتطوُّرها، من وجهة نظر نشوئِها وزوالِها».

هنا، أمران:

الأول: إنَّ الفكرة الماركسيَّة في مبدئها النظري، استنباطًا (ديالكتيكيًّا) من الديالكتيك الهيجلي، وهذا في حَدِّ ذاته مُثبِتًا لمفهوم الجدل عند هيجل الذي لا ينفي المادية الديالكتيكية، ولكنَّه لا يحصر الديالكتيك فيها، وليس من دليل على الاستنباط الديالكتيكي لماركس أوضح من انتقاله إلى الشيوعيَّة من خلال النقض على هيجل، ولا يقولُ نفسُ ماركس بماديَّة الفكرة، وبالتالي فهو نقض ماركسي على النظرية الماركسية.

الثاني: لو سلَّمنا بما تذهب إليه الشيوعيَّة، من أنَّ الفكرة صنيعة الخارج المادي، فنفسُ هذه الصنيعة، أمرٌ مجرد وحركة غير محسوسة، فلو فسَّرنا الحركة الماديَّة بأنَّها الترابط العضوي بين الشيء والآخر، وهو - كما أرى - حقٌّ لا إشكال فيه، فإنَّنا لا نتمكن من سحب نفس التفسير المادِّي على القوة المُحَرِّكةَ لذلك الديالكتيك.

يقول إنجلز:

«الطبيعةُ كُلُّها، مِنْ أصغَرِ الأشياء إلى أكبرها، مِنْ حَبَّة الرمل إلى الشمس، مِنْ البروتيستا إلى الإنسان، هي في حالة دائمة من النشوء والزوال، في حالة تغيُّر متواصل، في حالة حركة وتغيُّر لا يتوقفان.» (إنجلز، ديالكتيك الطبيعة).

لا يمكن لهذه الحركة التي يُقِرُّها المُنظِّرُ الشيوعيُّ أن تكون ماديِّة من حيث هي هي، فالتغيُّر والزوال، أثرٌ ومظهرٌ لها، فهي حالة إثباتية، لثبوت مُقَدّر لا يتخلَّف، ولذلك اعتمده الشيوعيُّ أساسًا في نظريته الماديِّة، غير أنَّه أغفل تفسيرَ الحركة بما هي حركة، لا بما هي مظهر لها تُدْرِكُهُ الحاسَّة.

هذا في أصل النظريَّة الشيوعيَّة، وأمَّا في ما ترتب عليها، فأقول:

اتضح بالنص، أنَّ الشيوعيَّة تدفعُ في اتِّجاه (ثورة) البروليتاريا، وتؤسِّس لدكتاتوريتها تأسيسًا أدبيًّا، نقرأ فيه التالي:

أولًا: يرى الشيوعيُّ ضعف الشعوب عن إدارك معنى (الثورة) وضرورة تحريكها بقوة كمقدمة وجودية في السلام البشري، ولذلك فإنَّ الطريق منحصِرٌ في الدفع الثقافي والتعبوي في اتِّجاهها (الثورة) وبكُلِّ الطرق والسبل والوسائل، فالغاية في نظره، تُبَرِّرُ الوسيلة.

والخلاصة، أنَّه يرى تخلُّفَ الشعوب عن فهم المعادلة، ولذلك جعل نفسه وصِيًّا على العقول والأفهام - كما أفهم من النص التالي -:

«وباختصار، يُسانِد الشيوعيون، في كُلِّ مكان، كُلَّ حركة ثورية ضِدَّ الأوضاع المجتمعية والسياسية القائمة.

وفي كُلِّ هذه الحركات يُبرزون مسألة المُلكية، مهما كانت درجة تطور الشكل الذي تتَّخذه، المسألة الأساسية للحركة.

وأخيرًا، يعمل الشيوعيون، في كُلِّ مكان، على إقامة العلاقات، وعلى تحقيق التفاهم بين الأحزاب الديمقراطية في جميع البلدان.

ويأنف الشيوعيون من إخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويُنادون علانية بأن لا سبيل لبلوغ أهدافهم إلاّ بإسقاط النظام المجتمعي القائم، بالعُنف.

فلترتعد الطبقات السائدة خوفًا من ثورة شيوعية، فليس للبروليتاريين ما يفقدونه فيها سوى أغلالهم، وأمامهم عالمًا يكسِبُونه»[1].

ثانيًا: يذهب الشيوعيُّ إلى حصر التخلص من الباطل – كما يراه – بتعريضه للمصادمة المستمرة مع الحقِّ – الذي يراه –، وبالتَّالي، فإنَّ الديالكتيك الماركسي خارجيُّ السمَة.

هذا، وقد قرَّر في أصل النظرية جوهرية الديالكتيك، فقال بإنَّ كُلَّ شيءٍ يحمِلُ ضِدَّه معه، فهو ليس في حاجة للاصطدام بالضدِّ الخارجي؛ حيثُ إنَّ الخلق الجديد متحقِّقٌ لا محاله، ومسيطِرٌ بحسبه على منطقة التمدُّد.

ومثال ذلك، انسياب الماء، الذي يُحَوِّله إلى وجود حقيقي متمدِّد بحسبه، شاء من شاء وأبى من أبى.

١- راجع: بيان الحزب الشيوعيِّ، الفصل الرابع.

ومن هنا ننقض على الشيوعيَّة حصرها الديالكتيك في الصراع المباشر بين الطبقات، بما نذهب إليه مِنْ أنَّ التوسع المُقتَدِر لشيءٍ، يعني بالضرورة تراجعَ كل ضِدٍّ له دون مصادمة أصلًا.

وبعبارة أخرى: لا يمكن للمتمدد أن يتمَدَّد ما لم ينسحب وجودٌ من ظرف يستوعب المُتمدِّد، وهذا قد يكون بمصادمة وقد يكون لضعف الوجود السابق، وبالتالي فالحصر في المصادمة منتقض بالوقوع الخارجي فضلًا عن الإمكان.

إذا فهمنا هذه المعادلة، قلنا:

- **﴿إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**.
- **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهَّ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[1].
- قال النبيُّ الأكرم ﷺ: «**عُمَّالكم أعمالكم، كما تكونون يولَّى عليكم**»[2].

إنَّنا ومحاكاة للمقالة الشيوعيَّة، نعتقد بأنَّ الحلَّ لمشكلة الطبقيَّة التي يحاربها الشيوعي، أن يكون السعيُ في اتجاه البناء لثقافة داخلية تتراجع بتوسعها البرجوازيَّةُ تراجُعًا تلقائيًّا، وهذا في الواقع متعذِّرٌ جِدًّا ما لم تتوفر المجتمعات على هِمَمٍ عاليةٍ قادرة على صِناعة التاريخ، وليس الانفعال القهري بأحداثه!

إنَّ للبناء الداخلي ديالكتيك ذاتي يرفض الانحسار، بل ويتحقَّق الضِدُّ بمواصلة تقويته وتمتينه، ولكنَّ هذا - في نظري - بعيد المنال؛ فنحن نعيش تشَرُّبًا خطيرًا لثقافة المصادمة الشيوعيَّة، وقد انعكس ذلك على مجمل تعاطياتنا، حتى في الحوارات والمناقشات؛ فالغالب هو (إمَّا أنا وإمَّا أنت)، قاعدة حاكمة وإن غُلِّفَتْ بعبارات الأدب

١- الآية ١١٥ من سورة المائدة

٢- مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي الشاهرودي، ج٧، تحت عنوان: أعمال أهل قرية ماتوا بسخط الله تعالى

والتجمُّل، فالإرادةُ إرادةُ غلبةٍ وإلغاء.

لا شك في أنَّ للاصطدام المباشر ضرورة تحدِّدها الموارد، ولكِنَّ الأصل هو الانطلاق على أساس التوسع الثقافي ميدانيًّا، بما يحقق تراجع الضِدِّ كلَّما كان التوسع قويًّا في برهانه، متينًا في استدلالاته، مع وجود عقول صادقة وقلوب مسؤولة تتحمل قضية التبليغ على أُسس الاحترام، وحكمة قوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)[1]، وكذلك قوله عزَّ وجلَّ (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهَّ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)[2].

من أشدِّ من ابتلينا به أنفسنا اليوم، ثقافة (الآن)، وأقصد بها التوجه الكبير لعدم القبول بغير النتاج المشهودة والآنية، فلا نقوى على انتظار الغد، فضلًا عن وعود الله تعالى والتي قد تكون بعد هذه الحياة!

١- الآية ١١٢ من سورة الأنعام.

٢- الآيات ٤ – ٦ من سورة غافر.

المقال 17

«مناقشات وردود (٨)

دكتاتورية البروليتاريا، والدكتاتورية الاستبدادية»

قد يكون الجامع لِمَا عرَّفوا بِه الدكتاتورية، هو إرادة وممارسة الإملاءات دون مراجعة ولا اعتبار لأحد، وقد تكون الدكتاتورية في شخص، وقد تكون في حكومة أو حزب أو مجموعة مُتَسَلِّطَة، والدكتاتورية ترى الآراء الأخرى، ولكنَّها لا تعترف بها، ولا تعيرها اهتمامًا.

أمَّا الاستبداد، فهو طلب (اللابديَّة)، أي: لا رأي ينفع إلَّا هذا، فالمستبد يعتقد تمامًا بأنَّه صاحب الحق المطلق، وبالتالي فهو لا يرى ما يستحق الاحترام والتنفيذ غير رأيه.

تشترك الدكتاتوريَّة والاستبداد في التفرُّد الإداري والأحادية الفكرية، وهذا مع الاختلاف النوعي بينهما؛ فالاستبداد إن لم يكن استبدادَ الحقِّ كما في الأحكام الشرعية بعد التحقُّقِ التام للشروط، وفي تشخيصات المعصوم عليه السلام أو من يمتلك الحقَّ في التشخيص والحكم وإنفاذ الحكم، فهو في الغالب من قبيل الجهل المركب، وأمَّا الدكتاتورية فقد تكون جهلًا بسيطًا، وهذا لا يشفع لها، ولكنَّني في مقام توضيح الفرق لا أكثر.

يقول بيان الحزب الشيوعيِّ:

«فالبروليتاريا ستستخدم سلطتها السياسية لتَنتَزع من البرجوازية تدريجيا، رأس المال كله، ولِتُمركز أدوات الإنتاج كلّها في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظَّمة في طبقة سائدة، ولتزيد حجم القوى المنتجة بأقصى سرعة ممكنة.

وفي البداية، لا يمكن حدوث ذلك طبعًا، إلاّ بالانتهاك الاستبدادي لحقّ الملكية ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، أي بتدابير تبدو، اقتصاديا ناقصة وغير مأمونة البقاء، لكنّها تتجاوز نفسها في مجرى الحركة، وهي لا غِنى عنها كوسيلة لقلب نمط الإنتاج بأسره».

ومن أدبيات الفكر الماركسي في دكتاتورية البروليتاريا:

«الحالة التي تسود فيها سلطة البروليتاريا، والتي تُقَامُ في أعقاب إزالة النظام الرأسمالي وتدمير أداة الدولة البورجوازية.

ودكتاتورية البروليتاريا هي المُحتَوى الأساسي للثَّورة الاشتراكيَّة وشرطٌ لازِمٌ لها، والنتيجةُ الرئيسيَّةُ لانتِّصارِها.

ولهذا السبب، فإنَّ دكتاتورية البروليتاريا هي القِسم الأساسيُّ في النظرية الماركسية اللينينية، إذ تستخدِمُ البروليتاريا سُلطتَها السياسية لقمع مقاومة المستغلِين، ولِدَعم انتصار الثَّورة، ولإحباط أيَّة محاولات لإعادة الحكم البورجوازي، ولضرب الأفعال العدوانية للرجعية الدولية.

ومع ذلك فليست دكتاتورية البروليتاريا عُنفًا فحسب، وليست عُنفًا في الأساس، فمُهمَّتِها الأساسية مهمَّةُ خلَّاقة وبنَّاءة؛ إذ تُساعِدُ الدكتاتورية طبقة البروليتاريا على كسب جماهير الشعب العامل، وعلى جذبِهم إلى داخل البِناء الاشتراكي، بهدف القيام بعملية إعادة البناء الثوريِّ في جميع مجالات الحياة الاجتماعية – الاقتصاد والثقافة والحياة اليومية والتربية الشيوعية للشعب العامل وبناء المجتمع اللاطبقي الجديد.

ودكتاتورية البروليتاريا هي الأداة الرئيسية في بناء الاشتراكية والشرط اللازم لانتصارها.

والمبدأ الأساسي والأعلى لدكتاتورية البروليتاريا هو تحالف الطبقة العاملة والفلاحيَّة تحت قيادة الأولى، ويتَّسِع الأساس الاجتماعي لدكتاتورية البروليتاريا، ويكتسب استمراره، خلال عملية البناء الاشتراكي، مما يُفضي إلى تكوُّنِ الوحدة السياسية الاجتماعية والأيديولوجية للأمة.

والحزب الشيوعي – باعتباره طليعة الطبقة العاملة – هو القوَّة الأساسيَّة القائدة والموجِّهة في نظام دكتاتورية البروليتاريا.

ويضم نظام دكتاتورية البروليتاريا منظمات جماهيرية عديدة: هيئات الشعب التمثيلية، ونقابات العمال، والتعاونيات، وروابط الشباب، وغيرها، وهي تقوم بدور الرابط بين الدولة الاشتراكية والجماهير.

وقد كانت كومونة باريس (١٨٧١) أوَّل دكتاتورية للبروليتاريا في التاريخ، وأسهمت بخبرة بالغة القيمة للماركسية، ومكَّنت ماركس من أن يحدس شكل الدولة في المجتمع الاشتراكي المقبل، والسوفييتات شكل جديد من دكتاتورية البروليتاريا، اكتشفه لينين عن طريق دراسته للثَّورتين الديمقراطيتين البورجوازيتين في روسيا، ثورة أعوام ١٩٠٥-١٩٠٧ وثورة فبراير عام ١٩١٧. وفي النهاية أدَّتْ التجربة الثورية الأخيرة إلى شكل آخر لدكتاتورية البروليتاريا، هو الديمقراطية الشعبية.

ودكتاتورية البروليتاريا ليست هدفًا في ذاتها، إنَّما هي الأسلوب الوحيد الممكن والذي تُحتِّمُه الضرورة التاريخيَّة للتحول إلى مجتمع بدون دكتاتورية وبدون طبقات»[1].

يبدو لي إنَّ فكرة (دكتاتورية البروليتاريا) فكرة استبدادية في المنشأ والتنظير والتطبيق، وهذا ما يتضح من المقولة اللينينية: «إنَّهم يخافون من الاعتراف بأنَّ ديكتاتورية البروليتاريا، هي أيضًا مرحلةٌ مِنْ مراحِل النِضَال الطبقيِّ المحتوم، طالما لم

١- إرشيف الماركسيين على الإنترنت: https: / /www.marxists.org /arabic /index.htm

تُمْحَ الطبقات»[1].

ولنلاحظ بعض التعبيرات الواردة في النصوص السابقة:

انتزاع.. انتهاك استبدادي.. تدمير.. قمع..

تظهر لي طبيعة الفلسفة الشيوعيَّة عنفيّةً، لا تكترث بغير السير على الطريق المرسوم في نظرياتها، وتُبَرِّر الاستبداد وسيلةً لإصابة الغاية، وكأنَّها تقول: أرى ما لا ترون!

ولذلك نلاحظ البروز المُلفِت لنظرية الوصاية التي يحكم بها الحزب الشيوعي لنفسه، وفي فلكها يَفْرُضُ على غيرِه الدوران.

ومن المهم الالتفات إلى أنَّ الأصل في تنفيذ الاستبداد هو ما أسميتُه (القيادة المعكوسة)، فالحزب الشيوعي يعطي القيادة للبروليتاريا ويؤكد عليها ويروج لمفهومها، وفي الواقع هي واقعة تحت التوجيه الثقافي للفكر الشيوعي الذي لا يعتني بشيوعيَّته في الجمهور، بقدر ما يعتني ويُرَكِّزُ على (الثورة) من خلال استبداد البروليتاريا.

• الإغراق المُغالطي:

المغالطة: «هي تعمُّدُ تغليط الطرف الآخر بالإيهام الصِوري بما يُظِهرُ الاستدلال في ثوب الاستدلال البرهاني، فالمغالط يعتمد السيطرة على الآخر بما يبدو في ظاهره علميًّا يقينيًّا، ولكنَّه في الواقع تضليلًا»[2].

تصعُبُ -في الواقع- محاورة المُغالِط والوصول معه إلى نتيجة مثمرة، خصوصًا إذا كانت ثقافته قائمة على المغالطات دون وعي منه..

١- المصدر: الحوار المتمدن:
asp?aid=256770.art.debat/show/org.http://www.ahewar

٢- كتاب المنطق، الشيخ محمَّد رضا المظفر، الفصل الخامس، صناعة المغالطة ص٤٢٠.

يُقال: لا يفِلُّ الحديد إلَّا الحديد، ويُقال: يجب تسمية الأشياء بأسمائها، ويُقال: (الثورة)، يُشعِلُها الفقراءُ، ويَجني ثمارَها الجُبَناءُ، ويستغلُّها الأغنياءُ..

وغيرها من الأقوال التي تبدو نتائج مسلَّمة!

أمَّا الحديد فإنَّه لا يُفلُّ بغير الحديد، لأنَّه من جنسه، ولا يُقال بأنَّ الأمثال لا تُعارض، فهذه مغالطة ثانيَة هنا؛ حيثُ إنَّ الغاية من هذا المثال هي التكريس لثقافة المواجهة بالمثل، في حين إنَّ الله تعالى يقول (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)[1]، والردُّ على هذه المقولة سهل، لا أطيل الكلام فيه، مع الأخذ في الاعتبار دور القوة في قيام الأمر، وهذا أمر لا ننكره، ولكنَّ الكلام فيه لم يحن دوره بعد.

وأمَّا تسمية الأشياء بأسمائِها، فالأسماء متعدِّدة للشيء الواحد، ولا يمكن حصرها في خيار المغالِط فقط، فنحن نسمي المقابِلَ للنجاح، غيرَ توفيق، أو ما يشابه من تسميات وتعبيرات تؤدي نفس الغرض دون تعريض المحاورة لمنزلق الاستفزاز والردِّ وردِّ الردِّ، وهذا الأخير يُبَرَّرُ بمغالطات أخرى، مثل:

حتَّى لا يحسبك..

لِمَ أُمنَعُ من الردِّ؟

وما نحو ذلك من توجيهات ناظرة إلى الآخر، وهي مطبَّات مغالطيَّة تحتاج لسلسة مقالات مستقلة!

ولا بُدَّ مِنَ الإشارة هنا إلى أنَّ تجريد الإنسان من عاطفته ومشاعره وأحاسيسه، أمر محال؛ فهو مركب منها ومن العقل، ولا يُراد له التنكر لشيءٍ منها، كما ومن المهم الانتباه إلى التركيب الشخصي للإنسان في بعده الزماني، حيث البيئة والظروف وما نحو ذلك مما لا يُحصى، وهو ما يُوجِبُ على الإنسان أن يعمل بالاحتياط كثيرًا في تعامله مع الآخرين،

١- الآية ٣٤ من سورة فصلت

وخصوصًا المؤمنين الصادقين، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا طَالِبَ الْعِلْمِ، إِنَّ الْعِلْمَ ذُو فَضَائِلَ كَثِيرَةٍ: فَرَأْسُهُ التَّوَاضُعُ، وَعَيْنُهُ الْبَرَاءَةُ مِنَ الْحَسَدِ، وَأُذُنُهُ الْفَهْمُ، وَلِسَانُهُ الصِّدْقُ، وَحِفْظُهُ الْفَحْصُ، وَقَلْبُهُ حُسْنُ النِّيَّةِ، وَعَقْلُهُ مَعْرِفَةُ الأَشْيَاءِ وَالأُمُورُ الْوَاجِبَةُ، وَيَدُهُ الرَّحْمَةُ، وَرِجْلُهُ زِيَادَةُ الْعُلَمَاءِ، وَهِمَّتُهُ السَّلامَةُ، وَحِكْمَتُهُ الْوَرَعُ، وَمُسْتَقَرُّهُ النَّجَاةُ، وَقَائِدُهُ الْعَافِيَةُ، وَمَرْكَبُهُ الْوَفَاءُ، وَسِلاحُهُ لِينُ الْكَلِمَةِ، وَسَيْفُهُ الرِّضَا، وَفَرَسُهُ الْمُدَارَاةِ، وَجَيْشُهُ مُحَاوَرَةُ الْعُلَمَاءِ، وَمَالُهُ الأَدَبُ، وَذَخِيرَتُهُ اجْتِنَابُ الذُّنُوبِ، وَزَادُهُ الْمَعْرُوفُ، وَمَاؤُهُ الْمُوَادَعَةُ، وَدَلِيلُهُ الْهُدَى، وَرَفِيقُهُ صُحْبَةُ الأَخْيَارِ**»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ثلاث من لم يكُنَّ فيه، لم يتُمَّ له عمل: ورعٌ يحجزه عن معاصي الله، وخُلُقٌ يداري به الناس، وحلمٌ يردُّ به جهل الجاهل**»[2].

أمَّا المطالبة بتغليب العقل، والانتباه للمعنى، فهذه مغالطة أكثر عمقًا وخطورة، إذ أنَّ التأثر العاطفي، ليس ضِدَّ العقل والتعقل، فتأمل جيِّدًا.

وبالنسبة (للثورة) ومن يُشعِلها، ومن يجني ثمارها، ومن يستغلّها، فهذا أمر لا يسعني الحديث فيه؛ فكمُّ المغالطات التي تقوم عليها هذه المقولة يحتاج لحديث حول المفاهيم ومقدَّماتها قبل أيِّ شيء، ولكن في الجملة أقول: فلنراجع صنيع (الثائر) فلاديمير لينين و(الثار) جيفارا و(الثائر) كاسترو و(الثائر) معمَّر القذافي و(الثائر) صدَّام، لنقف على حجم المغالطات في هذه المقولة! كما وليس ببعيد عن الأذهان المنتبهة الحصر الصارخ للجميع في خيار (الثورة)، فإمَّا أن تشعلها وتمشي في خيارها، وإلَّا فأنت جَبَانٌ مُستَغِل!

بعضٌ ممَّا مرَّ شبيهٌ بالبرهان، وهو المغالطة بحسب الاصطلاح المنطقي، ولكنَّه ليس كذلك، فأمر آخر قد يَرِدُ الآن، وهو الحكم على هذه المقالات (**الشُيُوعِيَّةُ، وإنْ غَابَ**

---

١ – الكافي، الشيخ محمَّد بن يعقوب الكليني، ج١، كتاب العقل والجهل، باب النوادر، ح٢

٢ – المحاسن، أحمد من محمَّد بن خالد البرقي، ج١، كتاب الأشكال والقرائن، باب الثلاثة، ح١٣

أو (غُيِّبَ) رَسْمُها) بأنَّها تعارض القيام على الظالم، وهذه ليست مغالطة على الإطلاق، بل هي وبحسب المصطلح المنطقي (مشاغبة)؛ إذ أنَّ تَشَبُّهَهَا بالجدل أقرب، بل أوضح من تشبُّهِها بالبرهان، ولِتجاوز هذه (المشاغبة) أقول: لا.

هذه المقالات لا تُعارِض القيام على الظالم، ولكنَّ المُشكِل المُعضِل الذي تراه، هو التشابه الكبير بين بعض المفاهيم الإسلامية والإنسانية العالية وبين بعض من عناوين الطرح الشيوعيِّ، مثل: التضحية، وردِّ الظلم، والانتصار للمظلوم، وما نحو ذلك، وقد تطوَّرت اليوم إلى مفاهيم الجهاد والشهادة وغيرها مما أوقع التداخل فوقعتْ المغالطات والمشاغبات.

ولذلك، قلتُ بأنَّ التركيب آتٍ إن شاء الله تعالى في المرحلة الثالثة من مراحل هذه السلسلة.

- **صناعة الدوران:**

عندما يقَعُ الصِدام، تنحسر الحلول، وتزداد انحسارًا كلَّمَا اشتدَّ الردُّ وردُّ الردِّ، وفي المقابل تتسع دائرة التبريرات من أطراف الصدام، حتَّى يعود الأمر لمقولة الدجاجة والبيضة (مع إنِّي لا أراها مشكلة أصلًا، بل هي لا ترقى حتَّى لمستوى مشاغبة، فالدجاجة قبل البيضة ولا يحتاج الأمر إلى نباهة، فهي والدِيك كما كان أوَّل الخلق البشري).

وعلى أيَّة حال، تشتغل رسائل الإدانة وإدانة الإدانة، ونرجع إلى أنَّ الحديد لا يُفلُّ بغير الحديد، ثم تأتي ضرورة تسمية الأشياء بأسمائها، ويضيع عقرب البوصلة الذي يراه كلُّ طرف ثابتًا (بوضوح) في اتِّجاه خياراته!

تنطلق الكلمات كما بان قبل قليل:

واصلوا المسير نحو الحرِّيَّة ولا يشغلنَّكم المُحَبِّطُون المثبِّطون، فأنتُّم أصحاب القرار، وأنتُّم قادة التغيير، ومن المقابل تُرتفع شعارات مضادة، ولكِنَّ السِنْخِيَّةَ واحدة!

المقال 18

«مناقشات وردود (9)

استراتيجيَّة العمل البرمجي السرِّي»

عريضةٌ مِنَ المجلس المركزي إلى عصبة الشيوعيين، كتبها كارل ماركس وفريدريك إنجلز، جاء في فقرتها الأولى:

«وفي الوقتِ نفسِه، فإنَّ الشكلَ القديم والمتين لتنظيم العصبَة قد تراخى كثيرًا، والعديدَ مِنَ الأعضاءِ الذين انخرطوا مباشرةً في الحركةِ الثوريَّة، تصوَّرُوا إنَّ عهدَ الجمعيات السرية قد ولَّى، وإنَّ العمل العلني وحده كاف. وقد ترك عددٌ معيَّن مِنَ الحلقاتِ ومِنَ العِمِّيَّات صِلاته بالمجلس المركزي تتراخى وتضعف شيئًا فشيئًا. وبينما كان الحِزْبُ الديموقراطي، حزب البرجوازية الصغيرة، يُنَظِّمُ نفسه أكثر فأكثر في ألمانيا، كان الحزب العمَّالي يفقد رابطه الوحيد الصلب».

وفي بعض أُسُسِ وأصول التنظيمات السريَّة (الإسلامية)، وجدتُ التالي:

«فالتنظيم يتكامَل بَعْدَ:

١- زرع رؤى وأفكار الحركة في الفرد.

٢- إلزامه ببرنامج الحركة العملي.. منطلقًا، ووسيلةً، وهدفًا».

وفي موضع آخر تحت عنوان (مرحلة الاختيار) جاء:

لا بُدَّ في هذه المرحلَة مِنْ معرِفَةِ:

١- مُحصِّلة القوى الضاغطة على الفرد، والتي تتمثَّلُ في: الأب، والعائلة، والأصدقاء.. فكلَّما كان ضغطُ القوى الأخرى أقل، كان تأثيرك فيه أكثر، وكانت صلاحيته للتنظيم أكثر.

أمَّا الفرد الذي يخضعُ للضغوط الأخرى، فإنَّ الكلمات التي تتحدَّثها معه تذهب هباءً، فأنت إذا كُنْتَ تراه في الأسبوع مرَّتين، وتتكلم معه عن العمل الحركي لمدَّة ساعتين، فإنَّ الآخرين يرونه كلَّ يومٍ عشر مرات، ويتحدَّثون معه كلَّ يوم أكثر من عشر ساعات.. وهكذا يتبخَّر تأثيرُك في زَحَام الضغوط الأخرى.

ولمواجهة القوى الضاغطة يُوجَدُ طريقان:

الطريق الأول: نَسْفُ القوى المؤثِّرة عليه.. فإذا رأيتَ الصديق الذي يمشي معه يؤثِّر فيه بشكل سلبي، أو أنَّ الخطيب الذي يستمع إليه ينقل إليه أفكارًا كسولةً متخاذِلَةً، فحاول أن تَنسِفَ علاقته مع ذلك الصديق، وأن تقطع علاقته بذلك المنبر، وذلك يتمُّ عن طريق التكلُّمِ معه، أو جعل برامج جديدة مكان الفراغات التي تحدث في حياته.. فعِوَض الصديق الأول تجعل له صديقًا آخر، وعِوَض هذا الخطيب، تجعله يذهب إلى محاضرة أخرى.

إنَّ الوقاية خيرٌ من العلاج، وقَطْعُكُ العلاقة بمنابع التخلُّف في حياتِه لهو أفضل بِكَثير مِنْ أنْ تُعالج الأمراض المعنوية التي يُصَابُ بِها مِن جَرَّاء اتِّصاله بهذه المنابع، بل قد لا يُمكِنُ العلاج إذا انتَّقلت إليه عدوى التخلُّف – في بعض الحالات-.

الطريق الثاني: تزريق الفرد بقدرات صموديَّة هائلة يستطيع بها مواجهة الضغوط التي تنصبُّ عليه، وتحاول تحريفه عن الطريق (التنظيمي)..

والأسلوب الأول هو أفضل بالطبع، إلَّا أنَّ الأسلوب الأخير يمكن أن يُستعان به في ما إذا لم تكن الظروف تسمح باستخدام الأسلوب الأول».

ثُمَّ يتحدَّث عن طريقة تحصيل المعلومات عن الأفراد المُنَظَّمين، فيقول:

١- مراقبته والسؤال عنه من أصدقائه ومعارفه.

٢- مطالبة أصدقائه (المُنَظَّمين) بكتابة تقارير مفصَّله عنه.

٣- مراقبته في النشاطات الاجتماعية العامَّة لمعرفة مواهبه وقدراته القياديَّة والتوجيهيَّة.

٤- مناقشته في بعض القضايا والأفكار لمعرفة اتِّجاهاته وآرائه، ومدى مواهبه الذهنية».

لو إنَّنا نبتعد قليلًا عن العمق المادي الذي زرعته الرؤية الماركسيَّة في ثقافات المجتمعات قبل تقاطعاتها مع التوجهات الرأسمالية وبعدها، وقد تناولناها بشيءٍ من التفصيل في حلقات سابقة، وانصرفنا لمراقبة البُعد التنظيمي للحركة الشيوعية، لوجدناه متقاطعًا مع مختلف التنظيمات الأخرى، دينية وغير دينية، في أمرين رئيسيين:

الأوَّل: توجيه عقلية الفرد المُنَظَّم في اتِّجاه واحد فقط، هو الاتِّجاه الذي يؤمن به التنظيم ثقافة وفكرًا ورؤى.

الثاني: المحافظة على إبقاء الفرد المُنَظَّم تحت السيطرة التامَّة للقيادة التنظيميَّة، أو (الحزبيَّة).

قد لا يكونُ كثيرُ نِقاشٍ في الأمرِ الثاني؛ فالالتزام بالقيادة بالنسبة للمنتمي أخلاقيَّةٌ انتمائيةٌ تُحَدِّدُ سعتَها ثقافة التيار وفكره التنظيمي.

الكلام في النقطة الأولى، فهي في الواقع: حبْسُ الفرد في توجُّهٍ فكريٍّ واحِدٍ، وهذا السلوك التنظيمي يؤدي بالفكر الأوحدي في الإنسان إلى أن يتحوَّلَ هويَّةً، يصعُب القبول بِمَا يمسها، فضلًا عن ما يُهَدِّدُ وجودَها، وهذا الارتكاز الثقافي ينتهي بشكل تلقائي

– غالبًا – إلى ثقافة الضدِّ مع الآخر الذي لا يُمكِن إلَّا أن يكون في موقع المُهَدِّد بالنسبة له، وإن لم يكن كذلك واقعًا، إذ أنَّ القضية تنتهي إلى هذه المرحلة لمجموعة مقتضيات مُرَكَّبَةٍ ذِهنيَّةٍ ثقافيَّةٍ ونفسيَّةٍ، وهي مرحلة تدفع الفردَ المُنَظَّم في اتِّجاه تحصيل مفرادات محدَّدة من الجدليات والمغالطات كأدوات ينتَّصر بها لِمَا هو عليه، ولا يفكر في غير ذلك، لا لعدم إرادَةٍ، ولكن لضعف القدرة عن الخروج من دائرة التسلط الثقافي الذي فرضته التنشئة الحزبيَّة التنظيميَّة.

في عريضة المجلس المركزي المُوَجَّهة لعصبة الشيوعيين، يتحدَّث ماركس وإنجلز عن خطورة التهاون في العمل التنظيمي السرِّي، وكيف إنَّه أدَّى إلى تباعد الخطوط التنظيميَّة وغلبة الأحزاب المنافسة الأخرى، وهذا النَفَسُ الحزبيُّ التحزُّبيُّ التنظيميُّ نجِدُه من خلال آثاره متفشيًّا في مختلف المجتمعات التي لا زالت تعيش تلك الفكرة الشيوعية، وأمَّا الأحزاب في الدول الغربيَّة فقد تجاوزتها وحقَّقت عناوين عملٍ جديدة أفرزتها التحوُّلاتُ السياسية في اتِّجاه الديموقراطية والبرلمانيَّة.

وينبغي الالتفات هنا إلى أنَّ ذاك الذي تبنَّاه الحزب الشيوعي وغيره، لم يبقى على حاله، فالتنظيم اليوم يتَّخِذُ – كما أرى –، شكلين، أو فلنقل مستويين:

المستوى الأول:

التنظيم في العمق، وهو الدائرة القياديَّة العليا والقيادات المُتَّصِلة بها، إضافة إلى الكوادر الرئيسية في العمل الحزبي التنظيمي.

المستوى الثاني:

التنظيم الجماهيري، ويعتمِدُ السيطرة على الجماهير عن طريق استغلال الوجود السيكلوجي باحترافيَّة ترتكز على التثقيف الداخلي بآليات وأدوات متعدِّدة، ثم التثقيف الخطابي الخارجي.

أمَّا الداخلي فجوهره البناء العقائدي، ولا يُحصَرُ في العقيدة الدينية فقط، فهو بناء يجعل من الفكرة الحزبيَّة عقيدة، والقائم عليها ربًّا، والراعي لها إلهًا، ومن خلال هذا التركيب تُنَظَّم مجاميع الشباب بغير عنوان التنظيم، وتتوسع الفكرة، لا بمسمى الانتماء الحزبي، وتقوم هذه الجماهير بتنظيم غيرها والتوسع من خلالها توسُّعًا ذاتيًّا متعاقب التوالد.

ولذلك فإنَّ أحدًا من الجماهير المُنَظَّمة فعلًا لا يشعر بانتمائه التنظيمي للجهة التي يؤمن بفكرها، ولكنَّ الواقع خلاف ذلك، فهو ومن خلال الآثار يظهر كونه مُنَظَّمًا كما كان أولئك في السابِق منظَّمين تنظيمًا سرِّيًّا.

بملاحظة الثقافة السائدة بين الأحزاب والتيارات، تنكشف هذه الأبعاد التي أطرحها في هذا المقال، فإنَّه لو برز ما في الصدور، لما خفي تكفير هذا لذاك، وتفسيق ذاك لهذا، وفي تصوري، إنَّ أقلَّ تَدَبُّرٍ يُمكِنُ أن يُوصِلَنَا لهذِه النَتِيجَة وأكثر.

إنَّنا نرى بوضوح كيف تتمُّ عمليَّة التنفير من الآخر، وبعناوين التقرب من الله تعالى، بل وأكثر من ذلك أنَّ الثقافة التنظيميَّة البرمجيَّة الموجَّهة، قد تجاوزت التيارات بالمفهوم المعروف، ووصلت إلى مفاهيم جديدة مثل منظمات حقوق الإنسان والجمعيات الخيريَّة والهيئات الإعلاميَّة وما شابه!

في ختام المقال، ألفت نظرَ القارئ الكريم إلى أنَّني لا أناقش الحراكات السِرِّيَّة التي قد تقتضيها، بل تستوجبها الظروف الأمنيَّة وما شابه، ولكِنَّني أشير إلى البعد البرمجي الذي يُمارَسُ على الأفراد المستهدفين تنظيميًّا، والذين يتحوَّلُون عند التيار المُنَظِّم أدوات لتحقيق الغاياتِ والأهدافِ. غاياتُ وأهدافُ حَقٍّ كانت، أو غير ذلك، فإنَّ المثير في الأمر هو تسويغ هذا النوع من السيطرة على العقول، وهو ما يُحارِبُه المُنَظِّمُونَ نفسُهم في الآخرين، ولكِنَّهم يُشرعنونه لأنفسهم ويبرِّرونه بموازين الحق ومعايير الإنسانية، فتضيع البوصلة ويتحول الحقُّ إلى قضية نسبيَّة!

المقال 19

«مناقشات وردود (١)

البعد (الواقعي) في النظرية الشيوعيَّة»

من المُهِمِّ أن نشير إلى أنَّ النظرية الشيوعيَّة وفي مختلف مراحل تطورها الأولى، كانت في الحقيقة نتاجًا لمجموعة هائلة من جولات العصف الذهني الذي صنعته مثيلاتُها من النقود بين عدد من الفلاسفة الذين اختاروا لأنفسهم اسم (الشبان الهيجليين)، وبالرغم من سيطرة المثالية الهيجلية على أجواء النقد، إلَّا أنَّ كارل ماركس تمكَّن من كسر الحاجز والانتقال بالطرحة الفلسفية إلى ميدان جديد رفع فيه شِعارَ النظر الواقعي المحسوس، ورفض كل ما (يُدَّعى) وقوعه في الما وراء.

من هنا، انطلق كارل ماركس فقرَّبَ الفكرةَ من النفوس الميَّالة للمحسوس، وخصوصًا مع الدليل التجريبي وقوة الحاكمية للمشاهدات العينيَّة..

لم تتوقف الصراعات بين بني البشر، ولم يُعهَد زمن ساد فيه السلام والأمان بين الناس، بل (الواقع) إنَّه كُلَّما خبت نارٌ اشتعلت أخرى، وكُلَّما راق مجتمع، فهو متبوع بعاصفة تأتي عالِيَه سافِلَه.

وجَّه كارل ماركس إلى أنَّ دور الفيلسوف لا ينبغي أن يخرج عن حدود تفسير هذه الحالة المستمرة في المجتمع البشري، فالإنسان في نظر شترنر[1] متمحور حول الأنا، مرتكز عليها، يدور في فلكها، ولذلك فهو يرى كُلَّ قيد يُفرض على الإنسان، لا يمكن أن

١- عن موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية: يوهان كاسبر شميتد المعروف بـإكس شتيرنر فيلسوف ألماني، يعتبر من أحد آباء الفلسفة العدمية والوجودية وما بعد الحداثة واللاسلطوية وخاصة السلطوية الفردية. العمل الأساسي لشتيرنر هو الأنا العليا وذاتها، والتي طبعت لأول مرة سنة ١٨٤٤ في لبسيا.

يكون في مصلحته، بل هو عدو مباشر لحريته، وبيانًا يقول: «فالحُرِّيَّة المُشَارُ إليها في دولة المجتمع البرجوازي ليست حُرِّيَّة البَتَّة، وهي لا تعدو أن تكون إطاعة للقوانين، وكلُّ ما هنالك أنَّ الفرد فيها يكون على صلة مباشرة بالقانون، ويتحرَّر من الأشخاص الذين يتوسطون بينه وبين القانون، تمامًا مثلما حرَّرت البروتستانتية الفرد لا من الالتزامات حيال الله، بل من الكهنة الذين كانوا يقفون بينه وبين الله، فالدولة هي الحرية، وليس أنا، إنَّ حرِّيَّتها عبوديتي، ولكن المذهب الشيوعي لا يمثل هو الآخر انعتاقًا، فهو يلغي الملكية الفردية، أساس عبوديَّة العُمَّال، لينيب منابها الملكية الجماعية، فالمجتمع الذي لا مالك غيره يكون مقدَّسًا عندهم، نير الدولة عند الأحرار»[1].

طالما أنَّ المحور في التحليل هو الإنسان، والإنسان فقط، فإنَّ هذا النوع من التفلسف مقبول عند ماركس، وإن كان غير ذلك مضمونًا.

يشترك كارل ماركس وشترنر في أنَّ الملكية الفردية أساسٌ لعبودية العمَّال، ولكَنَّ ماركس يُحَكِّم المقابلة، فيقول بالملكية الجماعية مخارجًا علميًّا وحلًّا استراتيجيًّا؛ والسبب هو أنَّ هذا الصراع سببه البين الأناني بين الأنا والأخرى، وهنا يلتقي ماركس مع شترنر أيضًا، إلا أنَّ ماركس يذهب إلى رفع الداعي للصراع، وهو هذا البين الأناني، في حين تقضي فلسفة شترنر إلى تقديس الأنا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ولا يرى حلًّا في غير ذلك.

عندما يُقَدِّم ماركس شواهد تاريخيَّة على الصراعات، وأخرى حاضرة، فإنَّه من السهل عليه إرجاع أسبابها إلى الفوارق الطبقيَّة، ثُمَّ أنَّه لا يحتاج لكثير جهدٍ لمواصلة الاستدلال على صحة الحلول التي يطرحها، وما يُسهِّل الأمر الواقعية الخارجية المشهودة لكلِّ ما يتحدَّث عنه، فإنَّ القول عن النار بأنَّها حارقة، لا يستدعي إعمال مقدمات برهانية؛ فهي مشهودة الإحراق بالمشاهدة والتجربة.

١- تاريخ الفلسفة، لإيميل برهييه/ ترجمة جورج طرابيشي، ص٢٦١.

هذا في ما يخص الواقع الخارجي المُتَحقِّق فعلًا، وهنا أُحَرِّكُ البحث في اتجاه جديد..

إنَّ لأيِّ أمر يقع في الخارج، حالة نشوء متقنة؛ إذ أنَّ هذا الواقع الخارجي عبارة عن أجزاء متفرِّقة تجتمع لعِلَلٍ كثيرة تستقر معلولاتها في معلول واحد بارز، هو الحدث المشهود، فهذا الأخير ليس بالبسيط فننتقل منه إلى عِلَّته دون حاجة إلى تفكيك وتحليل.

وبعبارة أكثر وضوحًا: نحن نرى النار في الخارج، نراها في عنوانها النهائي، وهو في الواقع عنوان مجمل، وإلا فالتفصيل في كل ما يُحدِثُ النار فعلًا، وحتَّى هذا المُحدِثُ لها يحتاج لما يبقيه مُحدِثًا، وأمَّا ما يقع عليه فعل الإحداث فهو أيضًا مشتمل على هذا التعقيد المتقن حَدَّ إخارج النار في الحالة التي نراها واقعًا خارجًا.

السؤال الأكثر أهميَّة –في نظري– هو:

أين تقع العِلَّة الصورية للنار؟

ولزيادة بيان أقول:

لكل أمر واقع هناك أربع عِلَلٍ رئيسية:

الأولى: العِلَّة الفاعليَّة: وهي الفاعل للفعل، كالنجار الفاعل لنجارة الكرسي.

الثانية: العِلَّة الغائيَّة: وهي الدافع على الفعل والإحداث.

الثالثة: العِلَّة المُكَوِّنة: وهي ما يقع عليه فعل التركيب، مثل الخشب للكرسي.

الرابعة: العِلَّة الصورية: وهي التصميم السابق الذي يراد للحدث أن يكون على صورته، كتصميم الكرسي في الذهن أو على الورق قبل صناعته.

وسؤالنا حول هذه العِلَّة الصورية، وتحديدًا حول محَلِّها الذي تنقطع عنده السلسلة، وهنا توضيح:

عندما يُفَكِرُ الإنسان بأمر ما، فهو إمَّا أن يعمد لصياغته في معطيات ومقدمات وما نحو ذلك من خطوات النظر العلمي، فيكون في طور رسمه وتصميمه قبل إخراجه على وفق ذلك التصميم، وإمَّا أنَّه يتجاوز التصور العلمي ويطرحه كيفما صدر منه خاضعًا لأيِّ قوة قد تتسلط عليه، عقلية كانت أو نفسانية، وفي كلا الحالتين لا بُدَّ من وجود تصميم تخرج الفكرة على وفقه، فإن كان التصميم مُصاغًا علميًا، فهذه الصياغة (حَدَثٌ) أيضًا، فيرجع الأمر إلى مربعه الأول، فنبحث عن العِلَّة الصورية لنفس العِلَّة الصورية الحادثة، ويتسلسل الأمر فلا يقع أمر في الخارج ما لم تنتهي السلسلة إلى عِلَّة صورية مستغنية، وحتَّى لو لم يكن الأمر مصاغًا بشكل منظم، فالحال واحد؛ إذ أنَّ لِكُلِّ حَدَثٍ لا بد من صورة يكون هو معلولًا لها في بعد رئيسي من أبعاد وجوده الخارجي.

إذا اتضح الأمر، فإنّنا نطرح أمرين:

الأول: إذا كان الخارج المشهود واقعًا، فهو واقع تُدركه الحواس البشرية الأصيلة، ولكِنَّه واقع ثانٍ، هو في حقيقته مَظهَرٌ لواقع أصيل تدركه العقول ولا يكشف عنه غير النظر.

الثاني: الإنسان هو المُظهِر الفاعل للصور من ذاك العالم الأعلى، في هذا العالم الأسفل، وهو في أيِّ حركة نظرية ذهنية أو فعلية خارجية يكون أمام مجموعة هائلة ضخمة من الخيارات، وكذلك هو أمام مسؤولية التركيب للعلة الصورية؛ حيث إنَّه بما تتركب منه السكين قد يذبح شاة للفقراء، وقد يذبح إنسانًا، وقد يقطع برتقالة، فهو أمام خيارات بعدد ما يمكن للسكين أن تصنع، بكُلِّها أو ببعض أجزائها، ولكِنَّه في جميع ذلك لا يفعل إلا الإظهار لواقعٍ أعلى.

من هنا يَتَّضح أنَّ الواقعية الحقيقية ليست إلا المثالية، وأمَّا ما يُتصور أنَّها واقعية، هي ليست في حقيقتها أكثر من المشهد التمثيلي لسيناريو قد صمَّمه الذهن، سواء علم بذلك أم لم يعلم.

عندما نُدَقِّقُ في فلسفة ماركس أو شترنر أو غيرهما، فإنَّنا نقف على قوة فكرية هائلة قيَّدها ما تصوَّرُوه واقِعًا نِهَائِيًّا، وهذا التقييد اقتضى سلب القدرة على تجاوز الخارج الثاني للواقع الأول، فلم يتمكنوا من إرجاع أيِّ معلول لغير الإنسان عقلًا ونفسًا، وهذا ما انعكس علينا بعمق عاصف، وقد أشرنا لبعض الشواهد في مقالات سابقة.

مما تقدم، أصل للنتيجة التالية:

كُلُّ خيارات الفعل مطلقًا موجودة وجودًا صوريًّا في عالم أسماه البعض عالم المثال، وأسماه آخرون عالم الحقيقة والواقع، ولا يفعل إنسانٌ فعلًا إلَّا وهو في مقام استحضار صورة لها واقع هناك، ولكنه يُخرجها من الصورية إلى الواقع الخارجي في هذه الدنيا.

وبذلك، فإنَّ الحتميَّة إنَّما هي استحالة تَخَلُّف المعلول عن عِلَّته، وهذه العِلَّة لا يُحضرها غير الإنسان، ومن هنا نفهم قول الرسول الأكرم ﷺ: «عُمَّالكم أعمالكم»، وهو من الأحاديث التي ينبغي جعلها في أعلى كبرويات القياس.

إنَّ أراد الإنسان لصراعه أن يكون صراعًا طبقيًّا، فهو يتمكن من ذلك، وإن أراد له أن يكون طائفيًّا، كان له ذلك، وإن أراد (أنا) شترنر، أو مثالية هيجل أو ما يشاء من الخيارات، فهي بين يديه، ومُهِمَّته في جميع الأحوال لا تخرج عن جمع أجزاء العِلَّة المُحَقِّقة للمعلولِ الحَدَثِ الواقع في الخارج.

المقال
20

«رُوى من القرآن والعترة (ا)
الطبيعة الإنسانية في الوجود البشري»

حاولتُ قدر الإمكان، وبحسب ما يناسب المقام – في نظري –، مناقشة المرتكز الأصل في النظرية الشيوعية، من خلال مرحلتين، تَوجَّهتْ الأولى للنصوص التي تتناول فلسفة الرؤية الشيوعية، وذلك بالاعتماد على ما ورد في بيان الحزب الشيوعي، ثُمَّ كانت الثانية لمناقشة بعض ما جاء فيها، مناقشةً التمستُ منها الإطمئنان لوضوح المُهِم من الرؤية الشيوعية وخصوصًا في بعدها الفلسفي.

يفتَتِحُ هذا المقالُ المرحلةَ الثالثة من السلسلة، وفيها أذهب إلى التركيز على الموضوع من خلال الرؤية الإسلامية القائمة على الثقلين المقدَّسين (القرآن والعترة)، ومن الله تعالى أسأل التوفيق والسداد.

في المُقَدَّمة، أبدأ بِنَصَّين شريفين من القرآن المجيد:

الأول: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾[1].

الثاني: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[2].

---

١ – الآية ٢٣ من سورة إبراهيم.

٢ – الآية ٣٦ من سورة البقرة.

خلق اللهُ تعالى الإنسانَ لِحيَاةِ الجَنَّةِ (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا)[1]، ولِتلك الحياة صِفَةٌ خاصَّةٌ لها جانبان، أمَّا الأول فهو جانب التأهيل، في حين أنَّ الثاني بمثابة علة البقاء، ومن وجوه صفة الجنَّة أنَّ أهلها أهل سلام وسكينة ووئام وراحة واستقرار:

• **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَنَ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[2].

• **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾**[3].

• **﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾**[4].

• **﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾**[5].

من الواضح أنَّ هذه الحالة التي يعيشها أهلُ الجنة حالةُ صعود وترقٍّي على مدارج الإنسانية، وكلَّما قويت تلك الملكات في نفس الإنسان، كلَّما أصاب في الجنة طبقةً أعلى وأعلى، وقد جاء في وصية رسول الله ﷺ لأبي ذرٍ الغفاري رضي الله عنه : «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ اللهَ جَلَّ**

١- الآية ٣٥ من سورة البقرة.

٢- الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

٣- الآيات ٤٥ – ٤٨ من سورة الحجر.

٤- الآية ٢٣ من سورة إبراهيم .

٥- الآية ٣١ من سورة الكهف.

ثَنَاؤُهُ لَيُدْخِلُ قَوْماً الْجَنَّةَ فَيُعْطِيهِمْ حَتَّى يَمَلُّوا وَفَوْقَهُمْ قَوْمٌ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَإِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِمْ عَرَفُوهُمْ فَيَقُولُونَ رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كُنَّا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَبِمَ فَضَّلْتَهُمْ عَلَيْنَا فَيُقَالُ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنَّهُمْ كَانُوا يَجُوعُونَ حِينَ تَشْبَعُونَ وَيَظْمَئُونَ حِينَ تَرْوَوْنَ وَيَقُومُونَ حِينَ تَنَامُونَ وَيَشْخَصُونَ حِينَ تَحْفَظُونَ»[1].

ولكِنَّ حالة الصعود تلك، تقابِلُها حالةُ نزول وهبوط وتدارك، تبدأ بالمعصية، ثُمَّ في النار، ثُمَّ لا قرار، وقد قال تعالى:

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، وفي هذه الآية المباركة نلاحظ بوضوح تام، ترتُّبَ الإخراج من الجنة على الزلل ترتُّبًا مباشِرًا بلا فاصل (فأزلهما – فأخرجهما)، وهذا الإخراج إبعادٌ عن صفة الجنة التي تتجسد في الإنسان ثقافة وفكرًا وسلوكًا، ولذلك قال عزَّ وجلَّ **﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾**.

فالجنة دار أمن ووئام وهناء واستقرار، وأمَّا الأرض فدار عداوة وبغض وشحناء وشقاء، ولكِنَّ الإنسانَ فيهما مختار، وفي الدور الأول من أدوار الابتلاء اختار الثانية بمعصيته **﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾**[2]، وهو اليوم في مراحل الدور الثاني **﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[3].

ومن لا يَتَّبِع هداه سبحانه وتعالى **﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن**

---

١ – مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٧، أبواب الصوم المندوب، باب استحباب صوم كل يوم عدا الأيام المحرَّمة. ح١٣، عن مجالس الشيخ الطوسي.

٢ – الآية ١٢١ من سورة طه.

٣ – الآية ٣٨ من سورة البقرة.

لاَّ تَعْلَمُونَ﴾[1].

يدخل الإنسان في هذه الحياة الدنيا جولات الخيار الحاسم، وهو فيها بين قوسين، قوسِ صعودٍ وعروجٍ وترقٍّي، وقوسِ هبوطٍ وتسافلٍ وسقوطٍ، وهذا هو جوهر الابتلاء **﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾**[2]، والميزان في ذلك لا ينبغي أن يخرج عن معايير صفة الجنة، وكلَّما ابتعد الخيارُ عنها، كلَّما تحقَّق البُعْدُ أكثرَ وأكثرَ، والنتيجة المباشِرَة له، سلوك القوس الآخر، وهو قوس التسافل والسقوط.

عندما نُدَقِّقُ في صراعات هذه الدنيا، فعلينا ملاحظة حالها من حيث القرب والبعد من المقاصد الإلهية، ومجرَّد القول بالصراع الطبقي في المجتمع البشري، فهذا نزوح مباشِرٌ لمصلحة قوس النزول؛ فالميزان في الواقع ليس بحسب الطبقة، ولا المال، ولا الحقوق الدنيوية، ولا شيء من شأنيات هذه النشأة، ما لم يسانخ القضية الكبرى مسانخة حقيقية لا تلبيسية تزويرية.

هذه مقدَّمةٌ للحلقات القادمة، أرجو أن تكون بدايةً تأسيسيَّةً صحيحةً لمناقشات قادمة، القصد منها تقديم نظرية إسلامية واضحة المعالم.

١- الآية ٣٨ من سورة الأعراف

٢- الآية ٢٩ من سورة الكهف

المقال
21

«رُؤى من القرآن والعترة (٢)/ الإسلامُ، والطبقيَّة»

أنْ تتلاشى الطبقاتُ الاجتماعيَّةُ، فهذا أمرٌ غير ممكن، ما لم تتساوى كُلُّ العقول والنفسيات والأيديولوجيات والخبرات، وكلُّ ما يدخل في تشكيل (أنا) الإنسان، وهذا التساوي غير ممكن على الإطلاق، وإلَّا لفسد المجتمع بقيام حالة السكون الاجتماعي المطلق؛ إذ أنَّ الحركة البشرية حركةٌ تكاملية بين طبقات المجتمع بِكُلِّ ما تحمِلُ الكلِمَةُ مِنْ مَعنى، والمجتمع البشري اليوم يرفض الطبقية، وفي نفس الوقت يؤمن بها، ويريدها ويرفضها، وهذا بسبب مجموعة من السياسات الحاكمة التي لا يمكنها التحرك إلَّا من خلال تجهيل البشريَّة تجهيلًا ظاهره العلم والمعرفة والوعي!

الذي يحدث اليوم، هو ليس أكثر من معالجة للألفاظ المُعَبِّرة عن الطبقات الاجتماعية مع بقاء هذه الأخيرة في عناوينها التي خلقت عليها مع خلق الإنسان.

منعوا ونَفَرُوا ونَفَّرُوا من نظرية (السيد والعبد)، ولكِنَّهم ينشرون ثقافتها ويمارسونها ويدافعون عنها كحَقٍّ إنسانيٍّ أصيل، وكُلُّ ما في الأمر أنَّهم غيَّرُوا الألفاظَ واستحدثوا الآليات حتى تحوَّلُوا بالنَّظرية مِنَ الفرديَّة إلى المجتمعيَّة، وتمكَّنوا من جعل (العبيد) يدافعون عن (عبوديتهم)، ومن منطَّلقات حقوقيَّة إنسانيَّة!

هذا، وقد تعامل الإسلام مع واقع العبودية بالتقنين والحثِّ على العِتْقِ، وقرَّر حقوقًا يتخلَّصُ من خلالها العبدُ من العبودية، وهذه بحوثٌ تتوفَّر عليها كتبُ الفِقه بشكلٍ مفصَّل، ولكِنَّ هذا (العبدُ) لن يسعى في تخليص نفسه ما لم تتمكن ثقافةُ الحُرِّيَّةِ منه تمكُّنًا علميًّا صحيحًا، وإلَّا فمجرد إرادتها من خلال شعارات وتعبِئات، لن يغير واقعًا،

وإن حصلَ وخرج (العبدُ) بفضلها من عبوديَّةٍ، فهو إلى أخرى لا محالة؛ إذ أنَّ السلوك المترتِّبُ في الخارج ليس إلَّا ثقافة مستحكمة في العقل.

الإنسان اليوم، وطالما أنَّه ليس من طبقة (الأسياد)، فهو لا يملك شيئًا، وإن توهَّم ملكيَّته لبيت أو سيارة، فإنَّ هذا سرعان ما يتبدَّدُ حلمًا، بمجرد أن يغضب عليه (سيِّده)، وبالرغم من واقعيَّة هذه الحالة إلَّا أنَّ نفسَ هذا الإنسان يدافع عن القوانين التي تُكَرِّسُ لعبوديَّته، بل ويعطيها قدسيَّة كبيرة، ولذلك فإنَّ المجتمع البشري اليوم يرفض المصطلحات القديمة التي تُعَبِّر عن ما يؤمن به ويعيشه ويعتبره قضيَّةً إنسانيَّةً يجب الدفاع عنها وصيانتها دائمًا.

قد يقال بسقوط هذه المقارنة أو المقاربة؛ من حيث كون العبد في الحالة الأولى عبدًا مقهورًا، وفي الثانية مختارًا.

الجواب:

الكلام إنَّما هو في العقلية الحاكمة والثقافة المستحكمة، وليس في مظهر العبودية الذي يتعدَّد بحسب الظروف والمستجدات الثقافيَّة والفكرية، مثل الكهرباء التي قد يُجسِّدُها مِصباحٌ وقد تجسِّدُها غسَّالةُ الملابس، وكلُّ ما تتحول فيه واقعًا في الخارج.

هكذا هي العبوديَّة وغيرُها من المفاهيم.

ليس الحديث عن العبودية والرِقِّ والإماء، ولكنَّني أردتُّ الإشارة إلى الحالة الثقافية العامة، وكيف أنَّها تتشكل بِحَسَبِ ما يُصاغ لها من ظروف وعناوين، كما وأردتُّ الإلفات إلى مستوى الوعي المجتمعي بحالِه!

يتعامل الإسلام مع الطبقية الاجتماعية كحالة ضرورية تقتضيها أمواجٌ هائلة من الفوارق العقلية والتعقُّلية والأيدولوجية وغيرها الكثير مما يدخل في صياغة (أنا) الإنسان، ولِكُلِّ (أنا) ما يناسبها من موقعٍ في منظومة الحركة البشرية، وعليها السعي

إليه والتطوير منه إلى ما هو أعلى، ولكِنَّ (الأنا) إذا كانت بحجم (عبدٍ) فإنَّها غير قادرة في الحقيقة والواقع أن تكون (سيِّدًا)، إلَّا أنْ تتغير في مكوناتها وتتحرك عبر أطوار ثقافيَّة تنتَّقل من خلالها إلى ما هو أفضل وأكمل.

يقول الله تعالى: (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)[1]، وهذه الآية وإن كانت نازِلةً في خصوص الإيمان والهدى، إلَّا أن إطلاقها ظاهر في مختلف مناحي الشخصية الإنسانية، وأقَرِّرُ الدورة في المراحل التالية:

الأولى: الثقافة المكتسبة من الأسرة والمجتمع الصغير فالأكبر.

الثانية: تَشَكُّل (الأنا).

الثالثة: ظهور (الأنا) في مجمل السلوك.

والمرحلة الثانية هي الشاكلة التي تعمل السلوكيات (المرحلة الثالثة) عليها، ولذلك فإنَّ المظاهر السلوكية كاشفة عن (الأنا) كشفًا دقيقًا، كل سلوك يكشف عن جانب يسانخه، ومن الواضح أنَّ الطموح العلمي والوظيفي والمهني للإنسان هو في الواقع سلوك شخصي راجع إلى شاكلة يعمل عليها، وهي (الأنا).

وعليه، فإنَّ تغيير السلوك بعيد جِدًّا، إن لم يكن مستحيلًا، ما لم تتغير (الأنا)، ومن هنا نفهم البعد التعليلي في قوله تعالى (إِنَّ اللهَّ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ)، وفي هذه الآية ثلاثة أبعاد رئيسية:

الأول: البعد الفردي.

الثاني: البعد الجماعي.

الثالث: البعد الإلهي.

---

١ - الآية ٨٤ من سورة الإسراء.

أمَّا البعد الفردي فهو (النفس) التي ينبغي لِكُلِّ فَرد تغييرها إلى الأفضل، ولا بُدَّ من تحَقُّق هذه الثقافة في البعد الجماعي، وبعد ذلك تتدخل الإرادة الإلهية فتغير الأحوال العامة للمجتمع، وفي نظري، أنَّ هذه الإرادة تتدخل في صورة السلوك الاجتماعي التابع للثقافة بعد تغيرها.

جاء الإسلام وتعامل مع هذه الحالة الضرورية بواقعية تامة، ولم يذهب في إيهام الناس بإمكان (المساواة) بمعنى تلاشي الطبقات، فهذا محال كما بيَّنا أعلاه، ولكِنَّه عَمَلَ على إنارة عناوين الملكات الحسنة في نفس الإنسان، وهي متناغمة بدقة كاملة مع الأسماء الحسنى والصفات العليا التي تُكَوِّنُ نواةَ الفطرة في كل إنسان، ومن هذه الملكات ملكة العدل والإنصاف، وإذا ما جاء لفظ (المساواة) في نص معصوم، فإنَّه يريد العدل والمساواة، وليس أن يكون العبد كالسيد ولا الرئيس كالمرؤوس.

فلندقق جيِّدًا:

لمقام العبودية حقوق ثابتة، تنعكس على من يشغله، وهذا الذي يشغله يتمكن من التحول عنه لمقام آخر، وهذا متوقف على تغيير (الأنا) أوَّلًا، ثمَّ اتِّباع الطريق الصحيح المقرَّر في الفقه الإسلامي، ومن المهم أن نشير هنا إلى أنَّ مقام العبودية لن يبقى شاغرًا طرفة عين أبدًا؛ فالحامل لثقافة العبيد باقٍ بالضرورة، كما أنَّ الحامل لثقافة السيد باقٍ بالضرورة، وكذلك الحامل لكلِّ ثقافة تحتاجها حياة الإنسان لتتحرك، ولذلك فإنَّ الإسلام جاء بمشروع قيميٍّ يستوعب كلَّ الطبقات، وتنتفي معه استحكامات (الأنا الأنانية) التي تظهر الحالة الطبقية صراعًا لا مفر منه كما تذهب الطرحة الشيوعية.

وبعبارة أكثر وضوحًا:

عندما أقول بضرورة الطبقية الاجتماعية، فأنا لا أحصر الأمر في السيِّد والعبد بحسب مفهوم العبودية الذي يبحث في الفقه الإسلامي، كما ولا أعني بحتمية التصاق

العبودية أو غيرها بشخص فلا تغادره، ولكنَّ المقصود هو وجود هذا الموقع بالضرورة، ومن يشغله فهو مختار في البقاء أو المغادرة، وهذا متوقف على ثقافته بما هي ثقافة، ولأنَّ الإنسان في هذه الدنيا مخيَّر بين التعالي والتسافل، فهو يَمُرُّ في كلا الطريقين بمحطَّات متعدِّدة، منها محطة العبودية التي قد يقبع فيها باختياره، وقد يتجاوزها، وباختياره أيضًا، وأكرِّرُ بأنَّ العبودية المشار لها هنا هي الأعم من مظاهرها في الواقع الخارجي.

وفي جميع الأحوال، فإنَّ الإسلام يركز على الوفاء بحق كُلِّ مقام، ولذلك قال:

﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَّ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَّ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1].

والأمانة مطلق ما يؤتمن عليه الإنسان من مال ووظيفة ومهمة وما شابه، وكذلك الحكم بين الناس، فليس محلُّه دار القضاء فقط، ولكِنَّه مطلق في كل ميدان تحتاج فيه مفردةٌ إلى فصل.

يقوم المجتمع المؤمن على **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهَّ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَّ إِنَّ اللهَّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**[2]، وهذا لا موضوعية له مع انتفاء الطبقية، ولا حاجة لانتفائها مع تحققه، ولأنَّ انتفائها محال، فلا معالجة لمشاكلها إلَّا بتحقيقه، وإن أعرضنا عن ذلك وحصرنا الفكر العام في مسألة (المساواة) المستحيلة، فإنَّ حمامات الدم لن تهدأ يومًا، وإن هدأت فإن قابلية الثوران باقية، ويعيدها أقلُّ تحشيد وتعبئة.

خلاصة القول:

الطبقية الاجتماعية ضرورة حياتية لأمرين، أولهما مقدمة للآخر:

١- الآية ٥٨ من سورة النساء

٢- الآية ٨ من سورة المائدة

الأول: التفاوت الهائل بين مكونات (الأنا).

الثاني: توقف الحركة البشرية والإنسانية على الحالة الطبقية ومقتضياتها.

وإذا ثبت عندك هذا الأمر، فإنَّ المحور الذي تقوم عليه نظرية الصراع في الفكر الشيوعي قد انهدم، وهذا لا يعني انهدام الشيوعيَّة ثقافة وفكرًا، فهي ليست الصراع الطبقي وحسب، ولكِنَّها منظومة ثقافية تقوم على أركان عِدَّة، ومن أركانها قضية القوة والمواجهة بالعنف في قِبَال الاستبداد ونزعات التملك، وهذا ما يتطرق إليه المقال القادم – إن شاء الله تعالى – من وجهة نظر إسلامية – بحسب فهمي القاصر –.

المقال
22

«رُؤى من القرآن والعترة (٣) / الإسلامُ، ومسألة العنف»

• في البدء إشارة:

أشير إلى أنَّ المشروع القرآني مشروعٌ ضخم، وفي ضخامته الكثير من التفريعات والدقائق، وإنَّني لأجِدُ صعوبة في توزيع الأفكار على مقالات متتالية، وفي نفس الوقت فإنَّ المقال الواحد لا يحتمل تطويلًا أكثر ممَّا هو عليه، ولذا، أطلب من القارئ الكريم الانتظار حتَّى اكتمال الصورة في المقال الأخير مع ملخص على نحو الفهرسة التفصيلية.

اضطربت الأحوالُ السياسيَّةُ في المدينة المنورة بعد رحيل رسول الله ﷺ، وقد وصل الاضطراب إلى دار السيدة الزهراء عليها السلام، التي هجمت عليها بعضُ الأطراف السياسيَّة لأخذ البيعة من أمير المؤمنين عليه السلام، وعندَّما أظهر رفضه، أُخِذَ من الدار ملبَّبًا إلى مسجد رسول الله ﷺ، وفي هذه اللحظة خرجت السيِّدةُ الزهراءُ عليها السلام رافِعَةً فؤادها الطاهر بالدُّعاء على القوم.

ينقل الشيخُ المفيدُ قدس سره في كتابه الاختصاص إنَّها عليها السلام قالت للرَّجلين: «لئن لم تكفَّا عنه، لأنشرنَّ شعري، ولأشقنَّ جيبي، ولأتينَّ قبر أبي، ولأصيحنَّ إلى ربِّي.

فخرجت، وأخذت بيد الحسن والحسين عليهما السلام متوجِّهَة إلى القبر (قبر الرسول ﷺ)، فقال عليٌّ عليه السلام لسلمان: يا سلمان، أدركْ ابنة محمد ﷺ، فإنِّي أرى جنبَّتي المدينة تكفآن، فوالله لئِن فعلتْ لا يناظر بالمدينة أن يخسف بها وبمن فيها.

قال: فلحقها سلمان فقال: يا بنتَّ محمد ﷺ، إنَّ الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمةً، فانصرفي.

فقالت: يا سلمان، ما عليَّ صبرٌ، فدعني حتَّى آتي قبر أبي، فأصيح إلى ربي.

قال سلمان: فإنَّ عليًّا بعثني إليك وأمرك بالرجوع.

فقالت: أسمعُ له وأطيعُ. فرجعت»[1].

يذهبُ الشِيعةُ إلى أنَّ الخِلافَةَ مِن بعد رسولِ الله ﷺ حَقٌّ خالِصٌ من الله عزَّ وجلَّ لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام، ومن الواضح أنَّها ليستَ مجرد منصب رسميٍّ في الدولة السياسيَّة، ولكِنَّها هنا راجعة لمفهوم (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[2]، فالقضيَّة قضيَّة حقٍّ وباطل، وهذا بالإضافة إلى ما نزل بأهل البيت عليهم السلام من ظلم وغصب للحقوق، ومنها أرض فدك التي كانت تُشَكِّلُ رافِدًا ماليًّا ضخمًا قد أشار إلى حجمه السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره في كتابه: فدك في التاريخ/ ص٣٠.

إذن.. غصبُ الخِلافة الإلهية، والغصب المالي والتسلط الاقتصادي، والظلم المباشر وبأشكال مختلفة.

ولكِن، هناك بُعْدٌ آخر، غلَّبه أميرُ المؤمنين عليه السلام على هذه العناوين الثلاثة (إنَّ الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمةً)!

ماذا لو دعت فاطمةُ عليها السلام؟

ماذا لو شهر عليٌّ عليه السلام سيفه؟

ماذا لو حشَّدَ ضِدَّ السقيفة؟

١- الاختصاص، للشيخ المفيد/ ص١٨٤

٢- الآية ٣٠ من سورة البقرة

لِمَ لم يفعل كلَّ ذلك؟ ولِمَ ترك الدفاع عن حَقِّه في الخلافة وحقِّ زوجته في فدك؟

ألم يكن سيِّدُ البلغاء قادرًا على قلب المعادلات بخطبَةٍ جماهيريَّة (على الطريقة العصرية) يوجِّهُ بها الناس كيفما يشاء؟

فلندقِّق جيِّدًا..

يميلُ الإنسانُ إلى الدِعة والراحة، ويُحِبُّ الأمنَ والسلامَ، ولذلك هو يجلس وينام ويتوقَّف ويتأمَّل ويفكِّر ويتبسم، وما إلى ذلك من أمارات تشير إلى طبيعته وحقيقة تركيبه النفسي.

تتغيَّر مظاهر هذه الطبيعة بمجرَّد عروض التوترات أو مقدماتها أو ما يختلقها، فلا يتمكن المعروض من الجلوس ولا النوم ولا التوقُّف إلا من بعد تعب وإنهاك، ولا التفكير الهادئ ولا التَّبسم إلَّا تصنُّعًا.

فلنلاحظ هذه الآية المباركة:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾[1]..

﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾.. أي: أخرج من استطعت منهم عن حالته الطبيعية، ومارس في ذلك مختلف الوسائل والطرق من الصوت وإثارة الجَلَبَة، وحوِّل طبيعيةَ طلبِ العيشِ بالمالِ والأولادِ إلى شهوات وأمنيات واغترار بما في اليد وما يُمكِنُ لليد إصابته، وإلَّا فإنَّ الحاكمية مطلقة لحسن التقويم **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**[2]، وبآية الاستفزاز يتبين لنا معنى قوله تعالى **﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾**[3]، وأمَّا من لا

١- الآية ٦٤ من سورة الإسراء

٢- الآية ٤ من سورة التين

٣- الآية ٥

يستجيب لاستفزازات الشيطان فهو في ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾[1].

ينبغي الالتفات بشكل دقيق إلى الإطلاقات في الآيات الكريمة:

(في أحسن تقويم) مطلقةٌ في الوجود الإنساني، و(الاستفزاز الشيطاني) مطلقٌ في معاش الإنسان، وبالتالي فإنَّ كون هذه القضايا مطلقة، تتقدَّم كبرى في القياس، فتقاس عليها مختلف الأبعاد في حياة الإنسان، من سياسية واقتصادية وتربوية واجتماعية وغير ذلك، فتدخل الطرحة الماركسية لننتهي إلى أنَّ التحريك نحو الصراع الطبقي لمجرد الحضور الطبقي، لا يمكن إلَّا أن يكون تحريكًا استفزازيًّا شيطانيًا. فتأمل جيِّدًا.

• الحقُّ والقيمة:

لا شك في أنَّ حقَّ الدفاع عن النفس مكفولٌ بميزان العقل؛ إذ أنَّه ليس من المعقول أن يتعرض إنسانٌ للقتل – مثلًا – فلا يدافع عن نفسه، ولكِنَّ هذا الأمر مقيَّدٌ بعدم وجود ما هو أهمُّ من النفس، ومن جهة أخرى فإنَّ القتل ظلمًا لا يسوِّغ في مقام الدفاع عن النفس الوصول إلى حدِّ القتل، إلَّا إذا انحصرت الخيارات فيه، فلا يتمكَّن من دفعه عن نفسه المهدَّدة بالإزهاق إلا بقتله.

﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[2].

١- الآية ٦ من سورة التين.

٢- الآيات ٢٧ – ٣٠ من سورة المائدة

ولو أنَّنا نرفع قوله تعالى ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾، و﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ**﴾، لما كان هناك مُبرِّرٌ لتراجع هابيل عن حقِّ الدفاع عن نفسه، ولكِنَّ القبول بالأمر كان في قبال ثلاثة أمور رئيسية:

١- المحافظة على (قيمة) الإخوة من جهة والإنسانية من جهة أخرى ﴿**ابْنَيْ آدَمَ**﴾.

٢- التقوى، والخوف من كون هذا الدفاع عن النفس يستند إلى حُبِّ الدنيا وشهواتها ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾.

٣- اليقين بأنَّ ما يجري في هذه الحياة الدنيا إنَّما هو تقرير يُكتب ليُعرض يوم القيامة فيكون الجزاء الحقيقي ﴿**وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ**﴾.

ليس من المتصور أن يكون هابيل جامِدًا مستسلمًا لقابيل وهو يقتله، ولكِنَّ الذي ينبغي لنا استيعابه جيِّدًا، وتغليبه كثقافة قرآنية حقَّه، هو أنَّ دفاع هابيل عن نفسه لم يكن ليصل لحدِّ القتل، فعدم البسط كان في قبال البسط، وهذا واضح بأدنى تأمل في أنَّ هابيل كان متوقِّعًا لنية قابيل، وقد صرَّح بأنَّ الأمر وإن وصل إلى حدِّ القتل، فأنَّ ردَّ الفعل وحتَّى لو كان في مقام الدفاع عن النفس فلن يصل إلى المثل؛ فالخطُّ الدقيق الفاصل بين القرارين (قرار بسط اليد بالمثل من عدمه) خطٌّ قيم ومبادئ وإرث سوف يتركه كلاهما لأجيال بشريَّة متعاقبة تأتي من بعدهما.

حتَّى نتمكن من استيعاب مثل هذه المواقف، فإنَّنا في حاجة لمراجعة المنظومة الثقافية التي تُشَكِّلُ شخصياتنا أفرادًا ومجتمعات، ومن المُصحِّحات قول هابيل بما يحكيه عنه الله تعالى في نفس الآية الكريمة ﴿**إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ**﴾، والمعنى هو أنَّ الردَّ والانتقام قد يُوكَلُ إلى مقامٍ غير مقام هذه الدنيا وعمَّارها من الآدميين، ولذلك نجد خاتمة العمل الرسالي النبوي القويم جوابًا من الله تعالى للظالمين والمتعالين، ولا يتدخل فيه الأنبياء والمرسلون.

– **تنبيه**: سوف يأتي مقال خاص لمناقشة الوظائف الرسالية للمؤمن من جهة، وما يختص به الله تعالى من جهة أخرى.

وهنا مثال آخر..

إنَّه وبالرغم من الأذى العظيم الذي لاقاه نوحٌ عليه السلام من قومه، وعلى مدى قرون من الزمن، إلَّا أنَّه التزم الدعوة بشتى الوسائل والطرق ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا * مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا *ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا *لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا**﴾[1].

وبعد أن مارس معهم الدعوة بوسائل وأنماط مختلفة، ولقرون متمادية، فهو لم يضق حالًا بما كان، ولكِنَّه خشي على الإنسانية من مثل هذه الثقافات المتصلِّبة، فقال عليه السلام بما يحكي عنه الله تعالى ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾[2].

إنَّه دعاء بالإبادة، وهي مما يختص به المولى سبحانه وتعالى، ولا يصح لإنسان أن يأخذ مكان الله العزيز الجبار في مثل هذه القضايا التي تمسُّ الأرواح، وهذا ما سوف يأتي بيانه في المقال الذي وعدتُّ به.

---

١ – الآيات ٥ – ٢٠ من سورة نوح.

٢ – الآية ٢٦– ٢٧ من سورة نوح.

هكذا كانت السيرة المسدَّدة للأنبياء والأئمة عليهم السلام، كُلُّها في اتجاه إبطال استنكار الملائكة ﴿**قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[1]، فهم بهذا المنهج يقفون في قبال الإفساد وسفك الدماء، فتكون البشرية بأكملها في قسمين اثنين، الأول منهما ﴿**مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾، وأمَّا ثانيهما فهو ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

في مقام إبطال الإنكار الملائكي والاحتجاج عليه، فإنَّ الردَّ يجب أن يكون مقابِلًا أو موجِّهًا لما احتُجَّ به في مقام الإنكار، وقد أظهرت النصوص القرآنية التباعد الكبير بين الخطِّ الرسالي للأنبياء وبين استعمال القوة من أجل هذه الدنيا وما فيها، بل كان التأكيد على أنَّ القوة خيار النهاية، كالكي في العلاج.

• مشكلة في البين:

نعاني في عموم مجتمعاتنا من الانفلات الذهني من الأقصى إلى الأقصى المقابل، فعندما يَرِدُ طرحٌ لا يتوافق مع ظاهرة أو فهم أو توجُّهٍ معين، فإنَّ بعض الأذهان تذهب مباشرة لتوجيه هذا الطرح توجيه النقيض المقابل، وهذا خطأ ثقافي أدَّى بنا إلى الكثير من الأزمات والصراعات.

عندما يقول الإسلام بالسلميَّة والسلام ونبذ العنف، فذلك لا يعني الاستسلام والخنوع، وليس هو تكريس للضعف والمهانة، ولكن داعيًا للعنف والمواجهة يحصر دعاة السلمية ونبذ العنف في زاوية التهمة ويضيق عليهم حتَّى يضطرهم إلى (التقية) في مجتمعاتهم!

يُقِرُّ الإسلام حملَ السِلاح ومواجهة الأعداء، ويأمر بإرهابهم المفضي لتعظيم المجتمع المسلم وعدم استصغاره ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**

---

١ - الآية ٣٠ من سورة البقرة.

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[1]، كما وأنَّه بحثٌّ المؤمنين على الاهتمام بالبناء الجسدي، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**علِّموا أولادكم السِباحة والرِماية**»[2].

الكلام في هذا المقال حول الأصول التي لا ينبغي أن تُغادَر إلَّا بأدِلَّةٍ تُشَرِّعُ مُغادرتها لعناوين المواجهة ورَدِّ الحجر من حيث أتى؛ إذ أنَّ في الكثير من الموارد تلتبس الأمور فتُغادَر الأصول بلا حُجَّة شرعية تبرأ بها الذِمَّة أمام الله تعالى، وفي مثال الحجر ورَدِّه يأتي قول الله تعالى **﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾**[3]، وأيضًا **﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**[4].

وهذا لا يعارض على الإطلاق قوله تعالى **﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّواْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾**[5]، ولا يعارض قوله عزَّ وجلَّ **﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾**[6].

١- الآية ٦٠ من سورة الأنفال.

٢- الكافي، الشيخ محمَّد بن يعقوب الكليني، ج٦، كتاب العقيقة، باب تأديب الولد، ح٤.

٣- الآية ٢٢ من سورة الرعد.

٤- الآية ٥٤ من سورة القصص.

٥- الآية ٩١ من سورة النساء.

٦- الآية ٤ من سورة محمَّد.

الإسلام حارب في بدر، وصالح في الحديبيَّة.. والإسلام صالح معاوية على شروط، وقاتل يزيد في كربلاء.. والإسلام قال لابن معاوية: «مثلي لا يبايع مثلك»، وقبل بولاية العهد في حكم المأمون العباسي..

يُرَكِّزُ الإسلامُ ويوجِّه اهتمامات المؤمنين للحكمة وتحصيل مقدِّماتها، للتَّمكُنِ من التشخيص الدقيق للموضوعات، ولذلك قال تعالى ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[1]، فليس الأمس كاليوم، وقد يكون الموقف السابق غير نافع في موضع آخر، وإن تشابهت الظروف بحسب النظر القاصر، فإنَّ عنوانًا غير ملحوظ يطرأ، فتتغير المعادلة، ومن هنا كانت الوصيَّة بالاحتياط شديدة، خصوصًا في الدماء.

وعلى أيَّة حال، فإنَّ موضوع القوة والمواجهة يأتي في مقالات قادمة إن شاء الله تعالى.

نرجع إلى التأصيل، وأضع هنا مجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في السلم وفي العفو والصفح:

- قال تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[2].

- وقال تبارك ذكره: ﴿**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾[3].

- وقال سبحانه: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي**

١- الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

٢- الآية ٦١ من سورة الأنفال.

٣- الآية ٩٠ من سورة النساء.

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وفي آية من الآيات الثقافية الفكرية المتقدِّمة والمخالفة لجوهر الثقافات السائدة في المجتمعات البشرية، يقول الله تعالى ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2].

فبالرغم من جرائمهم المتكَرِّرة والواضحة والمتعدِّية، إلَّا إنَّ الله سبحانه يرفض الإطلاق والتعميم، ويأمر رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالعفو والصفح.

ولا يقال بأنَّ المعصوم عليه السلام أطلق اللعن في بني أمية «اللهم العن بني أمية قاطبة»، لأننا نقول: المعصوم عليه السلام صاحب هذا الدين والقائم عليه بالحكمة شارعًا، فنحن على الأصل ما لم يرد نص.

– ويقول أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إنَّ الله رفيقٌ يُحِبُّ الرِفقَ، ويُعطي على الرِفق ما لا يُعطي على العنف»[3].

– وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من زي الإيمان الفقه، ومن زي الفقه الحلم، ومن زي الحلم الرفق، ومن زي الرفق اللين، ومن زي اللين السهولة»[4].

– وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام قال: سمعته يقول: «إذا كان يوم القيامة جمع الله تبارك وتعالى الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ثمّ ينادي مناد: أين

١– الآية ٣٤ من سورة فصلت.

٢– الآية ١٣ من سورة المائدة.

٣– وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٥، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب استحباب الرفق في الأمور، ح٢.

٤– وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٢، كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة في السفر والحضر، باب كون الإنسان هينًا لينًا، ح٣.

أهل الفضل، قال: فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم، فيقولون: كنّا نصل من قطعنا ونعطي من حرمنا ونعفو عمّن ظلمنا، قال: فيقال لهم: صدقتم ادخلوا الجنّة»[1].

هذا، والنصوص التي تؤصِّل للسلم والصفح والعفو أكثر من أن يحصيها هذا المقال، فالشريعة السمحاء ترى - بحسب فهمي القاصر - القوة الحقيقيَّة إنَّما هي في قدرة الإنسان على ضبط نفسه ولجمها عن الانجراف في يتارات الضِدِّ والتأليب، وهذا ممتدٌّ من الداخل الإيماني إلى الخارج في التعامل مع العدوِّ، وهو ما يحتاج إلى تأمُّل وتدبُّر كبيرين.

• **أمـــران:**

أولًا: في الوقت الذي تؤسِّس فيه الثقافة الشيوعيَّة إلى المواجهة على طول الخط وبنمط واحد هو نمط العنف و(الثورات)، فإنَّ الإسلام يركِّز على تجنُّب الإنشغال بغير البناء الداخلي للمجتمع المؤمن، عقائديًّا وفقهيًّا وأخلاقيًّا، ويُصِرُّ على أهمِّية التجاوز عن الآخر ما كانت فسحةٌ.

ثانيًا: تذهب ثقافات المواجهة إلى ضرورة التسلح لممارسة الانقلابات والتخلص من الآخر، عدوًّا كان أو صديقًا غير موافق، وذلك تحت مسميات محاربة والتخلص من فئات الانبطاح والتخاذل والجُبن وما نحوها، وأمَّا الإسلام فيريد القوة للمجتمع المؤمن، ولكِن لإرهاب العدو والمحافظة على كيانه من أطماع الطامعين، وهذه مرحلة مترتبة على الوجودين الثقافي والفكري أخلاقًا وعقيدة وفقهًا، وإلَّا فالقوة مع ضعف هذه الدعامات الأساسية تُحوِّلُ العقل إلى شيطنة مدمِّرة كما هو حال الأقوياء اليوم.

---

١ - الكافي، الشيخ محمَّد بن يعقوب الكليني، ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب العفو، ح٤.

• **وفي الختام..**

حتَّى نتمكَّن من الانتِّقال مع أفكار المقالات القادِمة، فإنَّي أطلبُ من القارئ الكريم تدبُّر هذا المقال تدبُّر دراسة وتتبع.

المقال
23

«رُؤى من القرآن والعترة (٤) / رُؤيَةٌ في الماهيَّات»

زُويَتْ، أو زوى الإنسان بنفسه عن مجموعة من المفاهيم والمسائل ذات الموقع المحوري في بنائه الفكري؛ فالعقلية الإنسانية مثل المكتبة التي كلَّما كانت مُنّظَّمةً في التصنيف والفهرسة، كلَّما كانت لصاحبها، أو لروَّادها أكثر تناغمًا وانسيابيَّة في العطاء، وعلى العكس من ذلك، فهي كلَّما رُمِيَت في أحضان الفوضى، كلَّما غابت بين رفوفها كنوزٌ من العلوم المعارف.

وفي العقلية السائدة تفاقمتْ المشكِلَةُ حتى أصبح عند الناس، البحث في المفاهيم الدقيقة ترفًا وزيادة تفلسف!

والنتيجة، أنَّ المجتمعات البشرية تتراجع لمصلحة العقلية المستَبِدَّة التي تقود العالم في اتِّجاه مصالحها الكبرى.. والصغرى أيضًا..

في هذا المقال، أطرح نظرية خاصة في الماهيَّات، توصلتُ لها بعد مراحل من القراءات والتتبعات والتدبرات، وهي من الدقَّة بمكان، ما يستدعي توجُّه القارئ الكريم، فالمقام لا يعين على طرحها بكامل مقدِّماتها الاستدلالية، غير إنَّني أحاول جاهِدًا تقديمها بالشكل الأنسب لمقام المقال.

• ما المقصود بالماهيَّة؟

قالوا بأنَّ ماهيَّة الشيء، ما يقع في جواب: (ما هو)، فلو قيل: ما هو زيدٌ؟ لقيل: هو إنسان. ثم يقال: وما هو الإنسان؟ فيقال: حيوان ناطق.

وهذا الجواب الأخير هو ما به الشيء هو هو.

وبتعبير آخر: فإنَّ ماهيَّة الشيء حقيقته التي يتقوم بها، بحيث لو أنَّ سلبًا يقعُ على عنوان من عناوينها، لانتفت ولم تعد هي قبل السلب.

وهنا مسألة في غاية الدقَّةِ والأهمية، وهي أنَّ الوجود الماهوي وجودٌ ذهني، يتشخَّصُ في الخارج بمجموعة من العوارض المُظهِرة له، وبالتالي، فإنَّه لا يشار في الخارج إلى نفس الماهية، ولكِنَّها تُعرف بما يُظهرها.

وقد قلتُ بدِقَّة وأهمية هذا البحث لقوة حضور البُعْد الاتصالي فيه، بين التعقُل الإنساني والواقع الخارجي بمختلف أشكاله ومراتبه، وقد يتَّضِحُ تاليًا جانِبٌ من أهمية ما أقول.

فالماهيَّة هي حقيقة الشيء، ووجودها ذهني، ويُتَوَصَّلُ إليها من خلال التحليل الدقيق بما يؤهل للإرجاع الجنسي (الحيوانيَّة للإنسان)، والحدِّ بالفصل المائز (ناطق)، فنُرجِعُ الإنسان لجِنسه القريب، وهو (حيوان)، ثُمَّ نفصل بينه وبين سائر أنواع (الحيوان) بفصلٍ قاطعٍ تمامًا (ناطق)، فنقول: الإنسان حيوان ناطق، فهو يشترك مع سائر أنواع الحيوان في الحيوانيَّة، وينفصل عنها بالناطقيَّة.

السؤال الذي أطرحه هنا:

هل كُلُّ فَردٍ من أفراد الإنسان يصدُق عليه أنَّه حيوان ناطق بالإرجاع إلى ماهيَّة واحدة فاردة وهي الحيوانية الناطقية، أم أنَّ الحيوانية الناطقية تختلف من فرد لآخر؟

وبعبارة أخرى: هل الحيوانية الناطقية بما هي حيوانية ناطقية لزيد، نفسها الحيوانية الناطقية بما هي حيوانية ناطقية لبكر، أو لا؟

وبمثال آخر: هل ماهية هذه النار الحارقة، هي نفسها ماهية تلك النار الحارقة؟

- مقدَّمة توضيحية:

تنقسم المفاهيم باعتبار انطباقها على مصاديقها إلى قسمين:

الأول: المفهوم الكلي: وهو المفهوم الذي يقبل الانطباق على كثيرين، كمفهوم الإنسان (حيوان ناطق)، فهو ينطبق على زيد وبكر وحسن وجعفر وليلى ورباب وزينب وأمينة، وكمفهوم الحصان (حيوان صاهل)، فهو ينطبق على كل حصان مهما كانت فصيلته وعِرقِه.

الثاني: المفهوم الجزئي: وهو المفهوم الذي لا يقبل الانطباق على غير مصداق واحد فقط، كمفهوم زيد الذي لا ينطبق إلَّا على شخص زيد، وكمفهوم هذا الحصان المشخَّص، فهو لا ينطبق على غيره.

فالمفهوم الجزئي كالبَصْمَةِ الشخصية.

يُفهمُ مِمَّا تقدم، أنَّ الشيء الواحد يرجع إلى مفهومين اثنين، أحدهما كلِّي، ويشترك معه فيه كُلُّ ما يحدُّ بِحدِّه، والآخر جزئي، ولا يشترك معه فيه أحد.

• انعطافة البحث:

إذا اتضح ما مرَّ، فيكون القُبحُ اللاحِق بمفهوم من المفاهيم لاحِقًا بكل مصاديقه، وكذلك الحسن، إلَّا بتخصيص في الموارد تقوم به جهة يؤمِنُ المجتمعُ بعُلوِّها، كحُسن الكذب في موارد إصلاح ذات البين، وكحُسن القتل قِصاصًا بأمر الحاكم الشرعي، هذا والكذب قبيح، ومثله القتل.

ما أقوله هو: إنَّ هذا الذي يُسمى (كذبًا) في موارد إصلاح ذات البين، ليس هو ذاك (الكذب) في غيره من الموارد، وعندما أقول (غيره)، فإنَّني أقصد التغاير الماهوي، بل وحتَّى في موارد الكذب القبيح، فإنَّ ماهية هذه الكذبة ليست هي ماهية تلك الكذبة،

وهذا القتل الحرام مُختَلِفٌ في ماهيته عن أيِّ قتل حرام غيره.

- البناء الفكري للنظرية:

يحمِلُ عالمُ الواقع ونفس الأمر مرتبتين من الماهيِّات:

المرتبة الأولى: هي الماهيَّةُ التصنيفيَّة، وفيها يُحدَّد العمل بحسب ظاهره في عالم الإثبات، فيتشابه القتل مهما اختلفت ظروفه، وبالنظر إلى الماهيَّة التصنيفية، فإنَّه لا فرق بين القتل الحرام، وبين قتل القصاص، ولا تُصنَّفُ ماهية التصنيف لا حُسنًا ولا قُبحًا، فهي مجرَّد تعريف واقعي للصفة المجرَّدة للفعل.

المرتبة الثانية: الماهية الجزئيَّة: وهي مفهوم جزئي يصدق على واحد، وهذا الواحد يُحقِّقه تمام الظرف من زمن وما فيه من ظروف موضوعية تتمُّ بها عِلَّة الحدث، وهذا الحدثُ متصرِّمٌ بتصرُّم ظرفه، ولا تتكرَّرُ ماهيته في غيره على الإطلاق، فالماهيَّة والحقيقة له خاصَّةً، وليس هو أكثر من مُظهِر لها في عالم الظهور والإثبات، ولو لا تشكُّل الظروف الموضوعية على نمط خاصٍّ فارِدٍ في آنٍ خاصٍّ فارِدٍ لما وقع الحدَثُ في الخارج، وهنا مسألة أشير إليها لعظيم أهمِّيَتها:

إنَّ الآن الذي يقعُ فيه الحدث (أ) ليس هو الآن الذي يقع فيه الحدث (ب)، وإن اتَّفق الوقوع في ساعة ولحظة واحدة بحسب القياس الزمني المعروف، ولنقل أنَّ حدثين وقعا عند الساعة الواحدة ظهرًا وفي لحظة واحدة تمامًا، ففي الحقيقة أنَّ آن الوقوع مختلف تمامًا، وهذا واضح لكونِ آن الحدث داخلٌ في ماهيَّتِه كما كُلِّ الظروف الموضوعية[1].

١- المؤلف: أُلفتُ إلى أنَّ ما قررتُه هنا يخالف ما عليه مشهور القول، فهو راجع لنظري الخاص.

- وعليه:

إذا اتَّضح ذلك، فإنَّ الإسقاطات التاريخية والاستفادة منها في قراءة الواقع لا يمكن إمضاؤها بشكل ساذج يظهر في جَرِّ الأحكام لمجرد التشابه بين الواقعة التاريخية والحال القائم، ولأنَّ هذه السذاجة الإمضائية هي الحاكمة اليوم، فإنَّنا نشهد هذا الكم الهائل من التنازعات والصدامات بين البشر، وكُلُّ فئة ترى الحقَّ معها دون غيرها (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)[1]، وقال عزَّ وجلَّ (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)[2]، ومن داخل نفس الحزب تتشكل أحزاب ومن كل واحد أحزاب، وهكذا، إلَّا من وعى قوله تبارك ذكره (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[3]، ومثلها (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)[4].

يحتاج المقام لبيان وانتقال من مرحلة إلى أخرى، وهذا ما نحن بصدده في بعض المقالات القادمة، ولذلك الحين، أطلب من القارئ العزيز أن يُقلِّب ما جاء في هذا المقال بحذر وتأنٍّي، ولا شكَّ في أنَّه أهل لذلك.

كما وأُلفِتُ الانتباه إلى أنَّ قراءة المقالات القادمة دون استيعاب مطالب هذا المقال، أمر غير مستحسن، وليس الأمر أن تتَّفق مع الكاتب أم لا، ولكِنَّ المهم استيعاب وهضم ما يريد قوله، حتى نتجنب الاشتباهات والالتباسات.

١- الآية ٥٣ من سورة المؤمنون

٢- الآية ٣٢ من سورة الروم

٣- الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

٤- الآية ٢٢ من سورة لقمان

المقال 24

«رُؤى من القرآن والعترة (ع)

محورية وجود المعصوم عليه السلام في اتخاذ القرار»

تنزل الآية القرآنية لسبب خاص، ثُمَّ تُستَلُّ منها مفاهيمُ كلية وقواعِدُ عامة بحسب مجموع مفردات الموضوع، ولهذا العلم، وأقصد به علم أسباب النزول أهميَّة كبرى وخصوصًا في رسم المسار الثقافي والعملي لمُخطَّطِ السلوك في هذه الحياة الدنيا، ولهذا الأخير أهميَّة عظمى في تحقيق مكوِّنَات العِلَّة الغائية المولِّدة لأيِّ حركة من الإنسان.

ومن الواضح، أنّه كلَّما أحاط العقلُ بجنبات الموضوع وحيثيَّاته، كلَّما اقترب من إصابة الواقع، وتمكَّن من مُقدِّمات وضع الشيء في موضعه الصحيح، وهي الحكمة التي قال الله تعالى عنها ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[1].

مثال:

ادَّعى اليهود أنَّهم من أهل الجنَّة حتمًا، وإن كان لهم أن يُعَذَّبوا، فإنَّ العذاب لن يتجاوز عِدَّةَ أيامٍ لن تطول ﴿**وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾[2].

جاء الأمر الإلهي للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأن يدخل معهم في نوع خاصٍّ من المحاورة الجدليَّة، فقال له ﴿**قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

١- الآية ٢٦٩ من سورة البقرة.

٢- الآية ٨٠ من سورة البقرة.

لسان العبارة – بحسب فهمنا – يقول: هذا جيد، فإنَّ جوابكم بالظفر بعهد من الله تعالى على ما تدَّعون يبرر عدم خوفكم من عذابه؛ إذ أنَّ القضية قضية أيام معدودة، ونحن وأنتم نؤمن بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُخلِف وعده.

ولكن إن لم يكن الأمر كذلك، فلا مفر من الاعتراف بأنَّكم تفترون على الله تعالى ما لا تعلمون.

مجموعة من الفوائد:

– نستفيد وجهًا من أوجه المنهج العِلمي في المحاورات الجدلية مع المخالفين، وهو الاتِّفاق كمقدَّمة للحصر في عنوان يفضي للنقض الذاتي على المُدَّعَى.

– الاحتفاظ بالوجهة العقليَّة في عموم الحوارات، وحتَّى الجدليَّ منها.

– تصدِّي الرسول الأكرم ﷺ للمحاورات في القضايا المُهِمَّة، وعدم تدخُّل غيره من المسلمين، وإلَّا لكان الخطاب القرآني موجَّهًا بصيغة (قولوا)، أو (قل للمسلمين أن يقولوا)، أو ما شابه، ولكنَّ الظاهر والقدر المتيقن من مجموع الآيات المشابهة هو أنَّ القضايا التي تتخذ طابع الإدعاءات العقائدية والسياسية المهمَّة لا يوكل أمر التصدِّي لها لغير الرسول ﷺ، أو لغيره من المسلمين، ولكن بأمر وتوجيه منه.

• **سؤالٌ:**

هل يصلح الاحتجاج بآية التأسي ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[1] في القيام اليوم بما كان يقوم به الرسول الأكرم ﷺ بالأمس؟

١– الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

• **جوابٌ:**

لا شكَّ في أنَّ استفادة القواعد العامة من أقوال وأفعال وتقريرات المعصومين عليهم السلام هو المبتغى لكل عاقل حصيف، فنحن نستفيد المنهج العلمي في الحوار الجدلي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعد تحصيل مقدَّماته وإتقان مهاراته، فإنَّنا نمارسه متى ما استدعى الأمر، ولكِنَّ التوقف وبمقتضى حصافة العقل، لا بد أن يكون في الموارد ذات الشأن الوازن والأثر الخطير، وإنَّما كان هذا الاستثناء للسبب التالي:

من الواضح أنَّ الغايَةَ من الدخول في أيِّ حوار، هي الوصول لنتائج أكمل وأدق، وشرط ذلك أن يكون المحاوِرُ مُلِمًّا إلمامًا علميًّا بمختلف جوانب موضوع الحوار، ومن تلك الجوانب الآثار والمترتِّبات، وأبعادها ومتوارثاتها، فكم من موضوع أُثير قبل عقد أو أكثر، ونجد اليوم آثاره وخيمة وربَّما كارثيَّة.

ولذلك، فإنَّ ميزانَ القضية مُعَقَّدٌ دقيق، ليس مقدورًا لغير فئة خاصة، بل وخاصة جِدًّا، ومن هنا جاءت حِكمَةُ العمل بالاحتياط ما وسع العقل، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب**»[1].

نعم، إنَّ لإحياء الثقلين في ثقافاتنا ومنظوماتنا الفكرية قواعد وموازين تتداخل فيها العقيدة والفقه والحكمة بدقَّة متناهية، ولا يصح على الإطلاق أسلوب الطيران بحديث من هنا وآخر من هناك، لموافقته هذا الموقف أو ذاك ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾[2].

١- نهج البلاغة، الشريف الرضي، ج٤، باب المختار من حِكم أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه، ح١.

٢- الآية ٨٥ من سورة البقرة.

• **الجهاد والحرب:**

عند ملاحظة وتتبع آيات القرآن الكريم، نقف على مجموعة كبيرة منها تجعل من (الجهاد) فاصلًا إيمانيًا يقترن كثيرًا بالإيمان والهجرة، ومثال ذلك قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

-﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

- ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[4].

- ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[5].

- ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[6].

---

١ - الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

٢ - الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

٣ - الآية ٧٥ من سورة الأنفال.

٤ - الآية ٢٠ من سورة التوبة.

٥ - الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

٦ - الآية ٢٤٤ من سورة البقرة.

- ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[1].

- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[2].

الآن:

أعطتْ الشيوعيَّة المساحة الكاملة للبروليتاريا لتتحرك في (ثورات) متتالية حتى يتحقق لها الاستيلاء على مواقع البرجوازين، ثم تُسوَّغُ لهم الدكتاتورية؛ كطريق أوحدي لاستتباب الأمن والسلام قبل اضمحلال الطبقات في طبقة واحدة.

إنَّه ومنذ الانطلاقة الثقافيَّة الأولى للشيوعية في (ثوراتها) ضاعت مسؤولية (الدم) و(زهق) الأرواح، فهي ليست إلَّا (قرابين) يُقدِّمها مُمزِّق الأجساد على عتبات (اللا طبقية).

نحن نفهم الدرجة العليا التي جعلها الله تعالى للجهاد في سبيله، ونفهم المعاني السامية لمقارعة الظلم والظالم، ولكِنَّ السؤال الذي أطرحه هنا:

ما هو دور القيادة المعصومة في مثل هذه المعادلات الخطيرة؟

هل هو وضع الكليَّات ثم رجوع أمر التشخيص والتطبيق إلى عامة الناس، أو أنَّ الأمر ليس هكذا؟

١- الآية ١٩٥ من سورة آل عمران.

٢- الآية ٤ من سورة محمَّد.

هذا ما يتناوله المقال القادم إن شاء الله تعالى، ولكِنَّ الرجاء من القارئ الكريم، تدبر آيات الجهاد بشيء من الدقة والتوسع في تتبع مسائلها.

«رُؤى من القرآن والعترة (٦)

محورية وجود المعصوم عليه السلام في اتخاذ القرار.. إشكال وجواب»

أفادني بعض مِمَّنْ أُقدِّرُ متابعتهم لهذه السلسلة من المقالات بإشكال استظهروه من الحلقات الأخيرة، ومُحَصَّله أنَّ الدعوة فيها توجيه نحو التراخي وترك الساحة للظالمين دون مقاومة ولا ردع ولا جهاد، بحجَّة تعلُّق أمر القرار بالمعصوم أو لا أقل بنائبه من الفقهاء المراجع، وفي ذلك تكريس للبلادة والقبول بالذل المبرَّر (دينيًّا).

في الواقع أنَّ الجواب على الإشكال المذكور هو المرجو من هذه الحلقة والتي تليها، وفي مقامه نحتاج لمقدَّمات..

• المُقدَّمة الأولى:

يقول الله تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)[1]، ولاستيعاب بعض أبعاد ومضامين هذه الآية المحورية، علينا الإجابة على سؤال: خليفة لِمَنْ؟ من هو المُستَخْلَف؟

الجواب:

عن محمد بن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي الحسن الأول عليه السلام: «ألا تدلني إلى من آخذ عنه ديني؟

فقال: هذا ابني علي، إنَّ أبي اخذ بيدي فأدخلني إلى قبر سول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا

١ – الآية ٣٠ من سورة البقرة

بني، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ وإن الله عزوجل إذا قال قولًا وفى به»[1].

وفي حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام، إنَّ الله تعالى قال للملائكة: «**إنِّي أُريد أنْ أخلُقَ خلقًا بيدي، وأجعلَ مِنْ ذرِّيته أنبياء ومرسلين، وعِبادًا صالحين، وأئمَّةً مهتدين، أجعلهم خُلفَاءَ على خلقي في أرضي، ينهونهم عن معصيتي، ويُنذرونهم من عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم سبيلي، وأجعلَهم لي حجَّةً عليهم وعُذرًا ونذرًا**»[2].

يظهر من هاتين الروايتين وغيرِهما، إنَّ الخليفة الذي أرادَ الله تعالى أنْ يجعله في الأرض هو المعصوم المُنتَجَب، وأمَّا من تولاه فهو على طريق الخلافة الإلهية، وإلَّا فالمحل للمعصوم عليه السلام كمحل القطب من الرحى.

ومن الواضح أنَّ المُستَخلِف هو الله تعالى، وبذلك فإنَّ لهذه الأرض نظام إداري استوى عليه الله تعالى ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[3]، ثمَّ أرجع الخلائق إليه عن طريق النبيِّ والأئمة عليهم السلام، وهو قوله عزَّ وجلَّ ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ**﴾[4]، و﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[5].

ونتيجة المقدَّمة الأولى، هي: أنَّ أمرَ المؤمنين في هذه الحياة الدنيا إنَّما هو للمعصوم عليه السلام، وليس في هذا حَجر على العقول ولا مصادرات للفكر، وهو ما تبينه الآيات الكريمة

---

١ – الكافي، الشيخ محمَّد بن يعقوب الكليني، ج١، كتاب الحجَّة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا عليه السلام، ح٤.

٢ – علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج١، الباب ٩٦، علَّة الطبايع والشهوات والمحبات، ح١.

٣ – الآية ٥ من سورة طه.

٤ – الآية ٥٥ من سورة المائدة.

٥ – الآية ٦٢ من سورة النور.

والأحاديث الشريفة التي تحض على التدبر والتفكر والإبداع، ولكنَّ كلَّ ذلك مشروط بعدم الخروج عن أطر المنظومة الحاكمة لولاية المعصوم عليهم السلام.

• **المُقدَّمة الثانية:**

يقول الله تعالى ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[1].

تتدخَّل الإدارةُ العُليا بشكل مباشر في وقت معلوم، ويكون حينها النصرُ للمستضعفين وتمكينهم في الأرض، بإرادة الله تعالى، وقيادة المعصوم عليهم السلام، فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قلت: يا رسول الله، أرشدني إلى النجاة. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا ابن سمرة، إذا اختلفت الأهواء، وتفرَّقت الآراء، فعليك بعلي بن أبي طالب؛ فإنَّه إمام أمتي، وخليفتي عليهم من بعدي، وهو الفاروق الذي يميز بين الحقِّ والباطل، من سأله أجابه، ومن استرشده أرشده، ومن طلب الحقَّ مِنْ عنده وجده، ومن التمس الهُدى لديه صادفه، ومن لجأ إليه آمنه، ومن استمسك به نجَّاه، ومن اقتدى به هداه. يا ابن سمرة، سَلِمَ من سَلَّمَ له ووالاه، وهلك من ردَّ عليه وعاداه.

يا ابن سمرة، إنَّ عليًّا مني، روحه من روحي، وطينته من طينتي، وهو أخي وأنا أخوه، وهو زوج ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين من الاوَّلين والآخرين، وإنَّ مِنْه إمامَي أمتي، وسيدَي شباب أهل الجنة: الحسن والحسين، وتسعة من ولد الحسين، تاسعهم قائم أمتي، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلِئت ظلمًا وجورًا»[2].

ومحصِّلة المقدمة الثانية هي إحراز القوس الثاني من قوسي الخلافة الإلهية التي انطلقت بآدم عليه السلام وتنتهي بالمهدي من آل محمد (صلوات الله وسلامه عليه).

١- الآية ٥ من سورة القصص.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الباب الرابع والعشرون: نص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على القائم عليه السلام.

• **المقدَّمة الثالثة:**

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم على لسان الملائكة الكرام ﴿**قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾[1].

في تصوري أنَّ التخوف من الإفساد وسفك الدماء هو الذي كان مسيطرًا على الملائكة، وهو كاشف عن القصور الفكري العميق الذي يعيشه الإنسان في كُلِّه التكويني، فلا يتمكن من إشاعة التسبيح والتقديس، وهذا ما علِمَه عنه الملائكة، ولكنَّ الجواب الإلهي جاء مؤكِّدًا على القوسين المُتَحصِّلين من المقدَّمتين الأولى والثانية، وجوهره كما عن تفسير العسكري عليه السلام: «ثمَّ قال: وعلَّم آدم الأسماء كلها، أسماء أنبياء الله وأسماء محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهما، وأسماء رجال من خيار شيعتهم وعصاة أعدائهم، ثمَّ عرض محمَّدًا وعليًّا والأئمَّة على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين..»[2].

وبذلك، فإنَّ الرافع للتخوُّفِ من قضية الإفساد وسفك الدماء، ليس إلَّا الخلافة الإلهية المتمثلة في الخلق الكامل الطاهر للأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام.

مشكلة:

في نظري، أنَّ القضية تدور حول المقدار الهائل من الغرور الذي يعيشه الإنسان، فهو يريد التخلص من كلِّ قيد، حتى لو كان المُحَقِّق لقوله عزَّ وجلَّ ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[3]!

ولأنَّ الكثير منَّا يعيش ردَّ فعل خطير ضدَّ مقتضيات الولاية (وهذا ما سوف أبيِّنه

١- الآية ٣٠ من سورة البقرة.

٢- بحار الأنوار، العلَّامة المجلسي، ج١١، كتاب النبوة، علة الطواف بالبيت، ح٤٨ عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام.

٣- الآية ٢٢ من سورة لقمان.

في المقال القادم إن شاء الله تعالى)، فإنَّنا اليوم، نشهد الكثير من دعاوى التخلص من الاتصال بالفقهاء!

وقد وصلنا مؤخَّرًا إلى توجُّهات تفرض على الجميع تحمُّل خياراتها، وكأنَّها هي الخلافة الإلهية في الأرض!

كيف كان، فنحن اليوم نواجه أصعب الامتحانات وأكثرها جِدِّيَّةً، والسؤال الذي ينبغي أن يُطرَحَ:

ما هو تكليف المؤمنين في زمن غيبة الخليفة المعصوم القائد عليه السلام؟

هل يُسلِّمون للطغاة والجبابرة؟

هل يعيشون الذلَّ والخنوع؟

أم:

يقاتلون ويجاهدون ويبذلون ما يملكون حتى ظهور القائد المهدي عليه السلام؟

ثُمَّ:

إلى أيِّ درجة يتسامح الله تعالى مع المؤمنين في أمر الدماء والأعراض إذا ما أخطئوا التشخيص؟

• **ملاحظة مُهِمَّة**: كان من المفترض أن يستطرد المقال في الإجابة على الأسئلة أعلاه وغيرها، ولكِنَّ الإشكال الذي طرحه البعض، جعلني أتريث وأترك مجالًا للقارئ الكريم لإجالة النظر وإطالة الفكر في قضية أحسبها من أهم وأعقد القضايا الفكرية التي نعيشها اليوم.

المقال
26

«رُؤى من القرآن والعترة (٧)

محورية وجود المعصوم عليه السلام في اتخاذ القرار.. بالبناء على ما مرَّ»

نَقْدُ الثقَافَةِ أَكْثَرُ مشَقَّةً مِنْ نَحْتِ الجِبالِ قُصُورًا للسَلَاطِين..

عَمِلَ بعضٌ من أصحاب الأئمَّة عليهم السلام في وزارات الدولة الظالمة، مثل علي بن يقطين (رضوان الله تعالى عليه)، وهذا مثله في الجانب المقابل مِثلُ الجهاد تحت راية الإمام المعصوم عليه السلام، فلا هذا يُصابُ بأيِّ عقل، ولا ذاك يتمكَّنُ أيُّ عقلٍ من تشخيص صلاحه من فساده.

لِعَلِيِّ بن يقطين الحُجَّة يوم القيامة، ولزهير بن القين مثلها فيه، فالحضور القيادي للمعصوم عليه السلام حجة للمؤمنين يوم القيامة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: «أخوك دينك، فاحتط لدينك بما شئت»[١].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حلالٌ بيِّنٌ وحرامٌ بيِّنٌ، وشبهات بينَ ذلك، فمن ترك الشبهات نجا من المحرَّمات، ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرَّمات وهلك من حيث لا يعلم»[٢].

عندما نخوض مواجهةً ضد الظالمين، فعلينا أن نسأل عن البواعث عليها؛ فلا يكفي أن يكون الآخر ظالمًا حتَّى نواجهه، ولا يكفي أن يكون طاغوتًا، ولا يكفي أن

١- وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٨، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي وما يقضى به، باب وجوب التوقف والاحتياط في القضاء والفتوى...، ح٤١.

٢- الكافي، الشيخ محمَّد بن يعقوب الكليني، ج١، كتاب العقل والجهل، باب اختلاف الحديث، ح١٠.

يكون مغتصبًا للحقوق!

نعم، هذا كلُّه يكفي غير المؤمنين لمواجهته، فهم - في أحسن الأحوال - يُرِيدون إعادَةَ الأمُور إلى نصابها، وعلى هذا الطريق تُسَجَّلُ الضحايا قرابين عِزٍّ على طريق الحريَّة والإباء..

إنَّه أمرٌ لا بُدَّ أن يُحتَرم في جوانبه الصحيحة، ولا شك في أنَّ الداعين إليه ممدوحون عند كُلِّ عاقل، ولكِنَّ هذا لا يُسوِّغُ للمؤمن التأسي بهم في معادلات المواجهة مع الظالم؛ إذ أنَّه لا تُحَرِّكه قضايا الدنيا ما لم يكن رضى الله تعالى محيطًا بحركته من مختلف جوانبها، وهذا متحَقِّقٌ في أخذه بالحلال البيِّن، واجتنابه الحرام البيِّن، وثمَّة طريقٌ آخر أظُنُّه طريق الاختبار الحقيقي للمؤمنين، وهو طريق اجتناب الشبهات بالاحتياط، وإلا فالوقوع في الهلكات كما نصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

عندما نتحدَّثُ عن مواجهةٍ كما هو الحال المعروف في النظرية الشيوعيَّة، فنحن في الواقع نتحدَّث عن تضحيات ودماء وغير ذلك مِمَّا يحتاج لجهة تتحمل المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة، ومثلها يتحملها عامة التابعين لها، فالاختيار مسؤولية أيضًا، وقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لما خلق العقل، قال له أقبِل فأقبل، ثمَّ قال له أدبر فأدبر، فقال تعالى: وعِزَّتي وجلالي، ما خلقتُ خلقًا هو أكرم عليَّ منك، بِكَ أثيب وبِكَ أعاقب، وبِكَ آخذ وبِكَ أعطي»[1].

وهنا مسائل ثلاث:

- الأولى:

عندما يأتي الكلام عن المواجهة وظروفها، فلا ظهور في ذلك لمصلحة الخنوع والقبول بالذل، فالاحتياط كما قال أمير المؤمنين عليه السلام «بما شئت»، ولذلك فإنَّ لمقارعة

١- عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي، ج٤، تحت عنوان: قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن، ح١٤٢

الظالم تأسيسات استغرقت من أهل البيت عليهم السلام ثلاثة قرون، وتظهر تأسيساتهم بالدرجة الأولى في بناء المجتمع الإيماني الذي عدَّ المعصومون عليهم السلام أهله أفضل من أهل كُلِّ زمان، فعَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ، عَنْ أَبِي خَالِدٍ الْكَابُلِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «**تَمْتَدُّ الْغَيْبَةُ بِوَلِيِّ اللَّهِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ أَوْصِيَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَالْأَئِمَّةِ بَعْدَهُ.**

يَا أَبَا خَالِدٍ: إِنَّ أَهْلَ زَمَانِ غَيْبَتِهِ الْقَائِلُونَ بِإِمَامَتِهِ الْمُنْتَظِرُونَ لِظُهُورِهِ، أَفْضَلُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَعْطَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا صَارَتْ بِهِ الْغَيْبَةُ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُشَاهَدَةِ، وَجَعَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِينَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِالسَّيْفِ، أُولَئِكَ الْمُخْلَصُونَ حَقًّا، وَشِيعَتُنَا صِدْقًا، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ سِرًّا وَجَهْرًا»[1].

وعَنْ جَابِرٍ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ بَعْدَ مَا قَضَيْنَا نُسُكَنَا، فَوَدَّعْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ أَوْصِنَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ.

فَقَالَ: «**لِيُعِنْ قَوِيُّكُمْ ضَعِيفَكُمْ، وَلْيَعْطِفْ غَنِيُّكُمْ عَلَى فَقِيرِكُمْ، وَلْيَنْصَحِ الرَّجُلُ أَخَاهُ كَنُصْحِهِ لِنَفْسِهِ، وَاكْتُمُوا أَسْرَارَنَا، وَلَا تَحْمِلُوا النَّاسَ عَلَى أَعْنَاقِنَا، وَانْظُرُوا أَمْرَنَا وَمَا جَاءَكُمْ عَنَّا فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ فِي الْقُرْآنِ مُوَافِقاً فَخُذُوا بِهِ، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مُوَافِقاً فَرُدُّوهُ، وَإِنِ اشْتَبَهَ الْأَمْرُ عَلَيْكُمْ فَقِفُوا عِنْدَهُ وَرُدُّوهُ إِلَيْنَا، حَتَّى نَشْرَحَ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا شُرِحَ لَنَا، فَإِذَا كُنْتُمْ كَمَا أَوْصَيْنَاكُمْ وَلَمْ تَعَدَّوْا إِلَى غَيْرِهِ، فَمَاتَ مِنْكُمْ مَيِّتٌ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ قَائِمُنَا كَانَ شَهِيدًا، وَمَنْ أَدْرَكَ قَائِمَنَا فَقُتِلَ مَعَهُ كَانَ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ، وَمَنْ قَتَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَدُوّاً لَنَا كَانَ لَهُ أَجْرُ عِشْرِينَ شَهِيدًا**»[2].

١- الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج٢، في بيان سبب اختصاص الإمام جعفر بن محمَّد بلقب (الصادق) وهم عليهم السلام كلهم (صادقون).

٢- بحار الأنوار، العلَّامة المجلسي، ج٢، باب ٢٩، علل اختلاف الأخبار...، ح٢١.

إنَّه لمن الصعب ونحن نعيش المادة ومعادلات الأرقام، أنْ نتمكَّن من استيعاب حقيقة القوة العظمى لمثل هذه التأسيسات في إرغام أنوف الظالمين والجبابرة، ولكِنَّها الحقيقة – كما أرى –، ويدل عليها قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[1]، فما هو حجم انتصارنا لله تعالى في واقعنا اليوم؟

لا يحتاج الجهاد إلى جيوش وأعداد بقدر حاجته إلى ثُلَّة مؤمنة تتمثل الطبيعة التي انتسب إليها أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء، وإلَّا فقضية مواجهة الظالم ورفع راية المقاومة والتضحية ليس مما يميز المؤمنين. فتأمل جيِّدًا.

إنَّها طبيعةُ التدين والتسليم الخالص للثقلين المقدَّسين، وتجنب التحايل عليهما بأيِّ شكل من الأشكال.

– **الثانية:**

هل يختصُّ قرار المواجهة مع الظالم وقيادتها بالمعصوم عليه السلام؟

هناك مجموعة من الشعارات والمقولات لا أعرف منشأها الحقيقي، ولكِنَّني أتمكن من قراءة آثارها الثقافية بشكل واضح، منها: الحقوق تنتزع ولا تؤخذ، ولا يفلُّ الحديث إلا الحديد!

لم أجد – بحسب تتبعي – أصولًا أدبية ثقافية في تراث الثقلين المقدَّسين لمثل هذه المقولات إلا بتكلُّف التأويل، أو ربَّما وُجِدَتْ مُعَارَضَةً بمحكمات أعرض عنها من أخذ بها، إمَّا غفلةً أو عن قصد!

وعلى أيَّةِ حال، فإنَّ مثل هذه الشعارات، تسبَّبتْ واقعًا في أنَّ بعض الثقافات حصرتْ المواجهة في القيام المباشر على الظالم، وبطريقة واحدة، شَعاراتُها من شاكلة تلك التي ذكرتُها قبل قليل.

---

١ – الآية ٧ من سورة محمَّد.

أقول:

عندما نُقَرِّرُ حجم المسؤولية التي يتحمَّلها المتصدِّي برايَةِ المواجهة المباشرة مع الظالم، فإنَّ العقل لا يعارض تحركَّه من حيث هو قاطع بتحمُّله للمسؤولية كاملة، وبما أنَّه يقطع بما هو عليه، فمن الطبيعي أن لا يصادر قطوعات الآخرين، خصوصًا إذا كانت على نفس المستوى من الصدق الذي يقوم عليه قطعه.

وبالتالي، هناك من يقطع بضرورة المواجهة مع الظالم ولكن بأساليب أخرى غير الاصطدام المباشر، ولصعوبة عمل الاثنين في ساحة واحدة، فإنَّه من الضروري أن يعمد كلُّ طرف منهما لتسقيط الآخر، وهذا السلوك هو عين ما تؤسس له النظرية الشيوعية في المواجهة بين البروليتاريا ومن لا ينخرط فيها من سائر العمَّال!

ما ينبغي أن يقال هنا:

طالما أنَّ أحدًا لا يتمتع بحصانة القيادة المعصومية التي تتعامل مع الحوادث بناءً على الانكشاف التام، فإنَّ الاصطدام الداخلي لا يمكن القبول به من جهة الشرع؛ فالقطع بلون اليقين مع عدم وجود المقدِّمات اليقينية، فيه نوع واضح من الجرأة على مقام العصمة.

نعم، إنَّه لا بُدَّ من إيجاد طريقة للتوفر على أكبر قدر من التوافقات الثقافية بين التوجهات المتعاكسة على مستوى الفكر والسلوك، وهذا لا يتأتَّى بمناقشات متوترة وتفريغات نفسيَّة مشحونة، ولا باصطفافات حزبية وتيَّاريَّة أو ثقافية وفكرية لا أشكُّ في عُقمِها، ولكنَّه رهين دراسات علميَّة معمَّقة تتبعها منظومة عمل ثقافي صحيح، وإلَّا فما يحدث اليوم لا أتمكَّن - شخصًا - من القبول به لا من هذا الطرف ولا من ذاك.

ما أفهمه، هو أنَّ قرار المواجهة المباشرة مع الظالم لا يقتصر على المعصوم عليه السلام، ولكِنَّه مشروط عقلًا وحِكمَةً بوجود جهة ذات عقليَّةٍ راجِحَةٍ، وقُدرَةٍ واقعيَّةٍ على تحمُّل

المسؤولية الكاملة أمام الله تعالى.

وهنا أمر عجيب، وهو قيام بعض المؤمنين براية الجهاد، وفي عملهم يُجِدُّون بحثًا عن فقيه مجتهد يعطي شرعية لحراكهم الجهادي، والغريب أن منهم من كان (يضرب) في أحد المجتهدين ضرب عداء وسخرية واستهزاء، ولكنَّه اليوم يراه مجتهدًا فقيهًا غير مدافع!

وما أفهمه، أنَّه لا يحِقُّ لأحدٍ أن يُحَمِّلَ الآخرين مسؤولية خياراته هو، وهذا أمر من المعيب مناقشته أصلًا، فالقضية محسومة أدبيًا، ومن المعيب، بل ومن الشؤم أن تشتغل مختلف التيارات والتوجهات على تجيير الدين انتصارًا لنفسها وتسقيطًا لخيارات الآخرين.. هذا عيب كبير يكشف عن معائب مركَّبة.

- الثالثة:

لا شكَّ في أنَّ البناء العلمي والمعرفي يحتاج إلى أوقات ومراحل متطاولة، إلى أنْ يظهر ثقافةً وفكرًا في حياة الإنسان فردًا ومجتمعًا، وفي المقابل، فإنَّ حركة التسارع والتطارد على نسق (Action) في مصطلح أفلام هوليود، أقرب للتفاعل من قِبل عامة المجتمع البشري الذي يهوى المشاهد السريعة المثيرة ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾[1]، ولذلك فإنّني أتوقع لشخصية (ثورية) حقيقية أو سينمائية، شهرةً أكثر من شهرة صدر المتألهين الشيرازي، أو الفارابي، أو المفيد، أو الطوسي، أو المحقِّق الكركي..!

هؤلاء صنَّفوا للإنسانية، وشيدوا صروحًا للعلم والمعرفة، ولكِنَّهم ليسوا ممن تهواهم القلوب مثل أيِّ شخصيَّة ذات ثقافة خطابية كما حُرِّر في بحوث سيكولوجية الجماهير.

١- الآية ١١ من سورة الإسراء.

وبالتالي، فإنَّه ليس من الصحيح اختزال التشيع في فكرة المواجهة المباشرة مع الظالم، بل هو في أصله اختزال أدعو لمراجعة مقدِّماته مراجعة جذرية؛ فما أعتقده هو أنَّ تيار المنهج الخطابي (بحسب موازين الصناعة) قد طغى بشكل أو بآخر، ولسبب وآخر على عموم الثقافة التي يعيشُها شيعَةُ أهل البيت عليهم السلام، وخصوصًا في القرن الأخير، وعلى وجه الخصوص بعد طروِّ بعض التحالفات بينهم وبين جهات وتيارات (غير إسلامية)!

بعد هذه الإشارات في المسائل الثلاث، فما ينبغي الإلفات له، هو أنَّ المؤمن لا يصحُّ منه الانحصار في حدود هذه الدنيا وموازينها، وهذا ما أشرتُ إليه في المقال السابق من خلال القوسين (قوس الأنبياء وقوس الإمام المهدي عليهم السلام)، كما ولا ينبغي من مؤمن ركوب ظهر آيات الجهاد والشهادة وعناوين كربلاء والإقدام ويخوض بها ميادين لم تزل تحرك أجواءها أدوات شيوعية تارة، ورأسمالية أخرى.

فلنتوجه الآن بالنظر في تركيز القرآن الكريم على حقيقة الآخرة وضرورة الإيمان بها وبما يكون فيها من الوفاء الإلهي بالوعد ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَّ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء * وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهَّ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَّ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهَّ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللهُّ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَّ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[1].

١ – الآيات ٤٢ – ٥٢ من سورة إبراهيم.

هنا تحدٍّ آخر، وهو تحدِّ مقاومة الوقوع في ظلمات الظلم، فينقلب طالبُ الحقِّ إلى مشروع لظلم جديد بعناوين جديدة، والحال ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾[1]، أي يستغني برأيه ويستقل به عن مصدر النعم، وهو الله تعالى والخلفاء من آل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وبهذا الاستغناء يطغى الإنسان بعد أن كان على الجبهة المقابلة.

من الواضح لي، أنَّ الاحتياط بتجنب اقتحام الشبهات لا يتمُّ إلَّا بالانشغال الداخلي على صعيد التأسيس والبناء، وهذا في حدِّ ذاته دعاء عملي للإمام المهدي عليه السلام بالفرج، وهو ما يحتاج منَّا إلى تأمل ودقة نظر، وأكاد أجزم بأنَّ هذا الطرح غير مقبول تمامًا عند كثيرين؛ فالنتائج المطلوبة ببعث من عجلة الإنسان لا يقبل أن تتأخر عن مرمى بصر، ولذلك نحن نركض ركض قرون، ولكنَّنا لا نخرج من دائرة قطرها بطول شاخص!

وهنا أُوقِفُ القارئ الكريم في هذا المقال على خطبة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأدعوه للتكفر في ملاحمها، وقياسها ليس على واقع الحياة اليوم، بل على خصوص واقعنا كشيعة لأمير المؤمنين عليه السلام، ثُمَّ فليكن السؤال التالي:

هل تحتاج مجاهدة الظالمين والطغاة لمؤهلات إيمانية خاصة، أو أنَّها لا تحتاج إلى أكثر من عضلات وقلوب كزبر الحديد؟

عن عبد الله بن عباس، قال: «حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجَّة الوداع، فأخذ بحلقة باب الكعبة وأقبل بوجهه علينا، فقال: معاشر الناس، ألا أخبركم بأشراط الساعة؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: مِنْ أشراط الساعة إضاعة الصلوات، وإتّباع الشهوات، والميل مع الأهواء،

١- الآيات ٦ – ٧ من سورة العلق.

وتعظيم المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذوبُ قلبُال مؤمن في جوفه كما يذوبُ المِلحُ في الماء ممَّا يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيِّرَهُ، فعندها يليهم أمراءُ جورة، ووزراءُ فسقة، وعرفاءُ ظلمة، وأمناءُ خونة؛ فيكون عندهم المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، ويؤتمنُ الخائنُ، ويُخَوَّنُ الأمين في ذلك الزمان، ويُصَدَّق الكاذب، ويُكَذَّب الصادق، وتتأمَّر النِساءُ، وتُشاورُ الإماء، ويعلو الصبيان على المنابر، ويكون الكذب عندهم ظرافة وسببَ الطرب، فلعنة الله على الكاذب وإن كان مازحًا.

وأداء الزكاة أشدُ التعب عليهم وخسرانًا ومغرمًا عظيمًا، ويُحقِّرُ الرجلُ والديه ويسبَّهما، ويبرُّ صديقه، ويُجالِسُ عدوَّه، وتشارك المرأةُ زوجَها في التجارة، وتكتفي الرجالُ بالرجالِ والنِساءُ بالنساءِ، ويُغارُ على الغلمان كما يُغار على الجارية في بيت أهلها، وتشبَّه الرجالُ بالنساء، والنساءُ بالرجال، وتركب ذوات الفروج على السروج، وتُزخرف المساجد كما تُزخرف البِيَعُ والكنائس، وتُحلَّى المصاحِفُ، وتُطوَّل المنارات، وتكثُرُ الصفوف، ويَقِلُّ الإخلاص، ويكثُرُ الرياء، ويؤمَهم قومٌ يميلُونَ إلى الدنيا، ويُحِبُّون الرئاسة الباطلة.

فعندها قلوبُ المؤمنين متباغضة، وألسنتُهم مختلفة، وتحلَّى ذكور أمتي بالذهب، ويلبسون الحرير والديباج وجلود السمُور، ويتعاملون بالرشوة، والربا.

ويضعون الدين، ويرفعون الدنيا، ويكثُر الطلاقُ، والفراق، والشكُّ، والنِفاقُ، ولن يضر الله شيئًا، وتكثر الكُوبَة، والقِيناتُ، والمعازِفُ، والميلُ إلى أصحاب الطنابير والدفوف والمزامير وسائر آلات اللهو.

ألا ومَنْ أعان أحدًا منهم بشيءٍ مِنَ الدينار، والدرهم، والألبسة، والأطعمة، وغيرها فكأنَّما زنى مع أُمِّه سبعين مرة في جوف الكعبة.

فعندها يليهم أشرارُ أمتي ، وتُنهتك المحارِم ، وتُكتسب المآثم، وتسلُط الأشرار

على الأخيار، ويتباهون في اللباس، ويستحسنون أصحاب الملاهي والزانيات، فيكون المطرُ قيظًا، وتغيظ الكرام غيظًا، ويفشو الكذب، وتظهر اللجاجة، وتفشى الفاقة.

فعندها يكون أقوامٌ يتعلَّمون القرآن لغير الله، فيتَّخذونه مزامير، ويكون أقوامٌ يتفقَّهون لغير الله، ويكثُر أولادُ الزِنا، ويتغنّون بالقرآن،فعليهم من أمَّتي لعنة الله ، ويُنكِرون الأمرَ بالمعروف والنهيَّ عن المنكر حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذلَّ من الأَمَة، ويُظهِر قُرّاؤهم و أئمتهم فيما بينهم التلاوم والعداوة، فأولئك يُدعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس.

وعندها يخشى الغني من الفقير أن يسأله، ويسأل الناس في محافلهم فلا يضع أحدٌ في يده شيئًا.

وعندها يتكلَّم من لم يكن متكلمًا.

فعندها تُرفع البركة، ويُمطرون في غير أوان المطر، وإذا دخل الرجلُ السوقَ فلا يرى أهله إلا ذامًّا لربِّهم، هذا يقول: لم أبع شيئًا، وهذا يقول: لم أربح شيئًا.

فعندها يملكهم قومٌ إن تكلَّموا قتلوهم، وإن سكتوا استباحوهم، يسفكون دمائهم ويملأون قلوبهم رعبًا، فلا يراهم أحدٌ إلَّا خائفين مرعوبين.

فعندها يأتي قومٌ من المشرق، وقومٌ من المغرب، فالويلُ لضعفاء أمَّتي منهم، والويلُ لهم من الله، لا يرحمون صغيرًا، ولا يوقِّرُون كبيرًا، ولا يتجافون عن شيءٍ، جثَّتهم جثَّة الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، فلم يلبثوا هناك إلَّا قليلًا حتى تخور الأرض خورةً حتى يظن كلُّ قوم انَّها خارت في ناحيتهم، فيمكثون ما شاء الله، ثم يمكثون في مكثهم فتُلقي لهم الأرض أفلاذ كبدها.

قال: ذهبًا وفضةً؛ ثم أومأ بيده إلى الأساطين، قال: فمثل هذا، فيومئذٍ لا ينفع

ذهبٌ ولا فضةٌ، ثم تطلع الشمسُ من مغرِبها.

معاشرَ الناس، إنِّي راحِلٌ عن قريب، ومنطلقٌ إلى المغيب؛ فأُوَدِعَكم وأوصيكم بوصية فاحفظوها: إنِّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن تمسكتم بهما لن تضلُوا أبدًا.

معاشر الناس، إنِّي منذرٌ، وعليٌّ هاد.

والعاقبة للمتقين، والحمد لله رب العالمين»[1].

أقول: من يقومُ - بالله عليكم - على الظالمين؟ وتحت قيادة من؟

ثُمَّ أقول: ما هي الوظيفة الشرعية للمؤمنين في ظلِّ هذه الأجواء الموبوءة؟

ليست القضية في إزالة الظالمين، ولكنَّ القضية كلَّ القضية أنْ لا نكون ظالمين نحن مكان ظالمين.

هل نحن أقرب إلى الوقوع في مزالقٍ وظلماتٍ وقع فيها غيرنا.. أم لا؟

تأمَّلوا الدلائل والعلامات.

وفي المقال القادم إن شاء الله تعالى، أناقش التداخلات بين الدولة في المفهوم القرآني العتروي، وبينها في المفهوم السياسي الذي أسَّسه معاوية بن أبي سفيان!

١ - مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١١، باب جملة مما ينبغي تركه من الخصال المحرمة والمكروهة، ح١١.

المقال
27

«رُؤى من القرآن والعترة (٨)/ سلوك الوصاية

نَقْدُ الثقَافَةِ أَكْثَرُ مشَقَّةً مِنْ نَحْتِ الجِبالِ قُصُورًا للسَلَاطِين..

ليست المسألة مسألة إصرار، ولكِنَّها أصل من الأصول التي تقوم عليها الفكرة الماركسية مقدِّمة انحصاريَّة للشيوعيَّة باضمحلال وتلاشي الطبقات في طبقة واحدة، فتحريك البروليتاريا باستبداد مقرَّرٌ أدبيًّا، هو في الواقع مرحلة يتوقَّف تحقُّق الرؤية الشيوعية عليها توقُّف النهار على طلوع الشمس، ولذلك، فإنَّ مَنْ لا يؤمن بالحراك (الثوري) للبروليتاريا، عليه الصبر بصمت تام؛ فهو لا يعرف مصلحته، وعليه التسليم للتعقلات الماركسيَّة، وإلَّا فهي قاضية بعزله إن لم يكن القضاء عليه!

فالماركسيَّة وعلى المستويين النظري والعملي قائمة على فكرة (أرى ما لا ترون).

إنَّه وبالرغم من القطع الجازم اليقيني، بأنَّ الحقَّ مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وإنَّ مصلحة الناس في بيعته والتسليم له، إلَّا إنَّه عليه السلام لم يفرض نفسه خيارًا على أحد..

ينقل السيد مرتضى العسكري في كتابه (عبد الله بن سبأ/ ج١ ص١٤٣) عن أنساب الأشراف (ج١ ص٥٩١)، وعن الجاحظ في العثمانية، أنَّ سلمان الفارسي قال حين بويع أبو بكر: «كَر داذ وناكَر داذ، أي: عملتم، وما عملتم، لو بايعوا عليًّا لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم».

ولكِنَّه..

قَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ عَبَّاسٍ: «**دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟**

فَقُلْتُ لَا قِيمَةَ لَهَا.

فَقَالَ عليه السلام وَاللهَّ، لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»[1].

عندما يُعرِضُ أميرُ المؤمنين عليه السلام عن إمْرَةِ المسلمين، فهذا لا يُصحِّحُ خياراتهم كما يظن البعض فيقول: لو كانت الخلافة حقًّا لعلي بن أبي طالب عليه السلام ولم يسعى لانتزاعها لكان متخاذلًا في ما لا يحق له التخاذل فيه، وبما أنَّه لم يسعى، بل وعمِل بإيجابية مع غاصبي حقَّه في الخلافة، فهذا دليل ناقض لدعوى الشيعة الإمامية.

أقول: لا شك ولا شبهة –في نظري– في صعوبة تغيير هذه النظرة، فهي متشربة متغذيَّة، يقوم صلبها على جوهر وروح الانتزاع وإقصاء الآخر متى ما أمكن، والحاكم هو ﴿**أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ**﴾، وهذه العقليَّة لا تتمكن من استيعاب معادلة الاتصال بين الشهود والغيب، فهي لا ترى ﴿**قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾[2]، وكذا يصعب عليها الانسجام مع ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[3].

أمَّا عليٌّ عليه السلام والخِلَافة، فلو كان الناس بمستوى التسليم له بها، لكان ذلك وتمَّ، ولكِنَّ عدمه يعني أنَّهم لم يصِلوا بعد للمستوى الثقافي الذي يغير المعادلات، وبالتالي، فإنَّ سعيه (لانتزاع الخلافة) لا معنى له في حكم العقل وموازين المنطق؛ وهذا لأنَّ الإسلام دينٌ يقوم في أتباعه على القابليات العلمية، ولذلك خاطب الله تعالى المؤمنين

١- نهج البلاغة، الشريف الرضي، ج١، من خطبة له عند خروجه لقتال أهل البصرة.

٢- الآية ٩١ من سورة الأنعام.

٣- الآية ٥٣ من سورة العنكبوت.

فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[1]، وهي دعوة تحتاج في تلبيتها لكثير علم ومعرفة، وذلك لعَطفِ ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

إنَّني لم أقف على نصٍّ فيه أنَّ المعصوم يتحدث باسم (الشعب) أو (الأمَّة)، ولكِنَّ هذه السياسة ختمت سيرة المستبدِّين على مرِّ التاريخ، حتَّى أظهرتها الشيوعيَّة واضحة وفي خطابات قويَّة، امتدَّت في التوجُّهات القوميَّة وغيرها من حملة رايات التصدِّي، ولذلك فإنَّ أغلب الأحزاب في البلد الواحد تدَّعي النيابة عن الشعب، ومثلها نظام الحكم في نفس بلدها، فالظالم والمظلوم والمتعاكسون والمتضادُّون، كلُّهم يتحدَّثون باسم نفس الشعب، وبنفس القوة والثِقة، ولذلك ساغت المواجهات والصدامات، وأصبحت كلُّها من أجل الحق وإحقاقه، فهذا يفعل ما يفعل قربةً للقضية وإخلاصًا ووفاءً للشعب، وهذا يُعَذِّبُ في سجونه حفاظًا وصيانة لأمن الشعب، والمُعَذَّبُ يخرج بعد حين بطلًا لأنَّه صبر صامِدًا لخلاص الشعب!

المشكلة ليست فقط في ادِّعاء النيابة عن الشعب، ولكِنَّها في استحالة العمل بسلام؛ إذ أنَّ الآخر ضِدٌّ بالضرورة، وهذه مسألة تحتاج لتأمل طويل جِدًّا من القارئ الكريم..

ومن جِهَةٍ أخرى، فإنَّ كُلَّ حاملِ راية يرى لنفسه الحقَّ في تحميل (الشعب) مسؤولية قراراته، ولا يتمكَّن من تصور المخالف في غير خانة الضِدِّ الذي لا مفرَّ من ضرورة تجاوزه أو حرقه!

وبالتالي، فإنَّ الشعب –في حقيقة الأمر– يتحمَّل مسؤوليَّةَ قرارات وأفعال كُل رايَةٍ في الساحة، وكُلَّما وقع في ضرر، فإنَّ كلَّ راية تُحمِّلُ غيرَها مسؤوليَّةَ ما وقع فيه (الشعب)، وهكذا تدور الطاحونة، وكُلٌّ يدَّعي تحمُّل المسؤولية، وفي الواقع، لا يتحمَّلها غير الشعب.

---

١ – الآية ٢٠٨ من سورة البقرة.

هذا بعيد عن الإسلام..

الإسلام في أحد أربع:

الأولى: قيادة المعصوم عليه السلام، ولا كلام.

الثانية: التأييد المطلق من الشعب، وهذا في الغالب متعذِّرٌ.

الثالثة: التوافق بين أطياف الشعب، وهذه ثقافة عالية، يرفضها أصحاب الرايات، فهي تعتمد الأناة في التأسيس والبناء، وتلك تريد حرق المراحل وإعادة حرق الحرق والمحروق، وفي أدبياتها، فإنَّ هذا هو قمَّة الحنكة السياسيَّة، وفي نفس الوقت، رأس الهامة (الثورية).

الرابعة: الاحتياط.

وبيان الثالثة يأتي في المقال القادم إن شاء الله تعالى.

المقال
28

«رُؤى من القرآن والعترة (٩) / أطروحة التوافق -١-»

نَقْدُ الثقَافَةِ أَكْثَرُ مشَقَّةً مِنْ نَحْتِ الجِبالِ قُصُورًا للسَلَاطِين..

يسعى الإنسان للاستقرار، وللسلام والأمان، ولا يمكِنُ تصوُّرُ إنسانًا يسعى للتَّقاتل والحروب وسفك الدماء والاضطراب، ولكِنَّ المشكلة تنشأ مع بداية التفكير في الطرق التي من خلالها يتمكَّن من تحقيق ما يسعى إليه، ولأنَّ العقول متكثِّرة، والأمزجة متغايرة ومتعاكسة، فإنَّ الطرق تتبعها في تكثُّرِها وتغايرها وتعاكسها، ويتبع ذلك تكوُّنُ الجبهات المتقابلة، ومعها تنطَّلق شرارة التقاتل والحروب، وغاية كل جبهة هي الوصول بالبشرية إلى الاستقرار والسلام والأمان، وإن استدعى ذلك إشغال طائفة من البشر في قتال مستمر!

عندما يحصرُ الإنسانُ نفسَه بين خيارين فعليين، فإنَّ القيمة الأخلاقية، والمبدأ الإنساني يغادر –غالبًا–، ومثال ذلك أن ينغلق على المواجهة مع الآخر وإلَّا فالهزيمة والذل، فإنَّه وسواء اختار هذا أو ذاك، لن يتمكن من مقاومة التبرير للوسيلة لمصلحة الغاية، ويدَّعي التزاحم الذي لا يُعالَج إلَّا بتقديم خيار على الآخر.. وهكذا تشتغل الدورة دون توقف، حتى تُعقِّدَ المشهد وتحجب عنه نور الشمس!

إنَّنا لو تصورنا تَغيُّر العقليَّة البرجوازيَّة ونزولها من التعالي، إلى حياة الإنصاف والرحمة وحبِّ الخير للآخرين، فهل ستكون للبروليتاريا دوافع (للثورة)؟

قَطَعَ المُنظِّر الشيوعي باستحالة تغيُّر العقلية البرجوازية، كما وإنَّه من الذل والخنوع

أن يسكت العمَّال عن المطالبة بحقوقهم، ولأنَّ المطالبة لن تجدي مع عقليات طبقيَّة جامدة، فلا طريق إذن لغير الثورة (نقطة، نهاية سطر).

إنَّني أطرح السؤال التالي:

ما هو حجم الحوارات في القرآن الكريم، وإلى أيِّ مدى يذهب الحقُّ في محاوراته مع الباطل؟

بدأها الله تعالى مع الملائكة في حوار بنَّاء، وحاور إبليس الرجيم دون قمع ولا إقصاء من المعادلة، ثمَّ حاور آدم عليه السلام وأتاح من خلاله للإنسانية فرصة العودة إلى الجنَّة..

ومن هناك، انطلق الأنبياء والرسل عليهم السلام في حركة حواريَّة امتدَّت من ابني آدم عليه السلام إلى نبيِّ الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تكن الدماء فيها إلَّا في موارد خاصَّة، وتحت عناية المعصوم عليه السلام كما أشرتُ في مقالات سابقة.

تعتمِدُ السمَاءُ مبدأ الحِوارِ على طول الخطِّ؛ فالتغيير ما لم يكن ناشئًا من تحوُّلات ثقافيَّة عن قناعات واضحة، فهو ليس أكثر من جري مريض مهما تلوَّن وتشكَّل، وهذا ما تكشفه حادثة السقيفة بوضوح شديد..

أين أصحاب بدر وأحد والخندق؟ أين الَّذين ضحوا وبذلوا؟

ألم يكن أمرُ عليٍّ عليه السلام أوضحَ لهم من الشمس في رابعة النهار؟

في تصوري أنَّ التحولات في صدر الإسلام بَدَتْ ثقافيَّة، ولكنَّها في الواقع ذات مناشئ مصلحية برزت سافرةً مِنْ الشام في سُنَّة التوريث الأُمويَّة، وفي الجانب الآخر ظهر البعد الثقافي ناصعًا في خطِّ أهل البيت عليهم السلام والخواص من أصحابهم، وهو خط العناية بالفكر الثابت على مستويات العقيدة والفقه والأخلاق، ولذلك تدرَّجت مراحل

البناء العلمي من التهذيب المعنوي في مدرسة الإمام زين العابدين إلى حلقات الدرس العظمى للباقر والصادق، ثمَّ المكاتبات والمناظرات حتَّى الإمام العسكري (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

هذا والحالُ أنَّ الحكم بقي في تقلُّبه بين أيادي الأُمويين ومن بعدهم العبَّاسيين، وإن تخلَّلتْ الأيَّامَ تداخلاتٌ تركيَّة وبويهيَّة وغير ذلك.

بقي أئمَّة أهل البيت عليهم السلام وأصحابُهم في شُغلٍ بالحديث وجمعِه والتفريع عليه والتدريب على منظومة التعاطي بين عامَّة الناس والفقهاء والمفكِّرين، ولم تتوقَّف منهجيَّة الحوار مع الآخر مهما كان؛ فالغاية هي إحياء العقول وبث الروح في الفكر.

هل نفعتْ هذه المنهجية مع الظالمين والطواغيت؟

سؤالٌ في مقام الجواب:

ولِمَ هذا السؤال؟

استطراد:

لا تُعرف صوابيَّة المنهج من نتائجه، وإلَّا لانتهت الحياة باكِرًا بقرار إلهي سماوي يقلب عليها سافلها، فالإنسان لم يزل في خُسر مع سبق إصرار وترصَّد، ولكِنَّ الله تعالى لم يقطع عنه نعمة العقل والتعقل، لعلَّه يستنقذ بها نفسه يومًا.

ولذلك، فإنَّ المنهجيَّةَ صحيحةٌ تمامًا، وليس العيب إلَّا في الإنسان الذي عجز عن احترام نفسه، غير أنَّ هذا العجز يعجز عن تغيير قيمة الحوار، ويعجز ثالثة عن استبداله بثقافة المواجهة الصِدَاميَّة في غير مواطن محدَّدة ومقنَّنة بدقة عالية.

وبالرجوع إلى مشكلة الطبقيَّة نجد أنَّ الإنسان يدرك خطورة ما أقلق المُنَظِّرَ الشيوعي، ولذلك انطلقت العقول في صياغة مجموعة من النُظُم التي وجدها كفيلة بوضع حدٍّ للاستبداد والاستفراد، ومن جملتها نظام الانتخاب (الديموقراطية).

وهذا ما سوف أتوقف عنده في المقال القادم، قبل إقفال السلسلة بالمقال رقم (٣٠) إن شاء الله تعالى.

المقال
29

«رُؤى من القرآن والعترة (.ا) / أطروحة التوافق -٢-»

نَقْدُ الثقَافَةِ أَكْثَرُ مشَقَّةً مِنْ نَحْتِ الجِبالِ قُصُورًا للسَلَاطِين....

يتشكَّلُ المجتمعُ من تيَّارات تُكوِّنُها توجُّهات ثقافيَّة وفكريَّة وعقائديَّة، يبقى بعضُها شتاتًا لا يشغل أكثرَ من مساحات المجالس وبعض الأعمدة المقالية، ويتطوَّر بعضٌ آخر في تنظيمات تتدرَّج من مجرَّد التقاءات تؤطرها التواقعات الثقافية، إلى تيَّارات أكثر تنظِّيمًا، فأحزاب قد تكون رسميَّة مُعلنة، وقد تكون سرِّية متوارية.

يخضعُ المجتمع إلى سلطة نظاميَّة، ربَّما كانت لأحد التيارات الموجودة، وربَّما تكون لتنظيم طارئ على المجتمع، وفي جميع الأحوال فإنَّ الدولةَ «هي تجمُّع سياسي يؤسِّس كيانًا ذا اختصاص سيادي في نطاق إقليمي محدَّد، ويمارس السلطة عبر منظومة من المؤسسات الدائمة»[١].

حاول المجتمع الفرار من تحكُّم السلطة الواحدة واستبدادها بالمواقع السيادية في الدولة، فابتكر أطروحة (الدولة المدنية)، وهي: «دولةٌ تحافِظُ وتحمي كُلَّ أعضاء المجتمع بغضِّ النظر عن انتماءاتِهم القومية أو الدينة أو الفكرية»[٢]، وبالتالي فهي نظام يحكم على أساس نفي أيِّ موقف يبتني على أُسس قومية أو دينية أو فكرية، وبذلك فإنَّه لا مكان للتوجهات القومية أو الدينية أو الفكرية في المنظومة السياسية للدولة؛ وتوضيح هذا البناء: أنَّ الدولة القومية مالم تلتزم مبانيها القومية في منظومة الحكم فموضوع القومية

١- تعريف الدولة – موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية.

٢- المصدر السابق.

حينها سالب، وبالتالي فهي ليست دولة قومية، وكذلك الدينية وغيرها من التوجُّهات الفكرية الواضحة.

وبعبارة أخرى: الدولة المدنية تقوم على فصل وإبعاد كُلِّ ما يميِّز بين المواطنين عن دستورها السياسي الحكام، وعلى رأس القائمة تأتي المباني القومية والدينية والفكرية، مع المحافظة عليها في مساحات بعيدة عن السياسة العامة نظرًا وعملًا.

نصل في المحصِّلة إلى أنَّه لا خيار للقوميِّ في الدولة المدنيَّة غير التخلي عن نظرياته في الحكم، ومثله الديني، وصاحب كل توجه فكري معين، ولا تمام في المقام إلَّا لصاحب نظرية (الدولة المدنية)!

نعم، هي تحمي القومي حماية مشروطة بعدم ممارسته لمبانيه القومية على المستوى السياسي، وهكذا مع الديني والفكري، وإلَّا لبطلت أُسُسُها المدنية.

بعد قيام الأُسُس العامة للدولة المدنية، فإنَّها تعتمد تكوين سلطات سياسية من نفس الشعب، ولذلك يقولون فيها بأنَّ (الشعب مصدر السلطات)، ومن أبرز مظاهر هذه العملية التداولية، اعتماد الانتخابات الحرَّة محورًا ثابتًا تدور عليه رحى الدستور المدني العام.

الانتخابات هي عملية تسليط الأضواء على شخصيات معيَّنة يتوجه لها المُنتَخِبُون بأصواتهم في ضمن نظام تصفية يصعد بواحدة أو أكثر إلى المناصب الشاغرة، فيكون صعودها بإرادة شعبية –كما يُعبِّرون–، غير أنَّ الذي أراه خلاف المُدَّعى!

فلندقِّق قليلًا..

تتوزع أصواتُ المُنتَخِبين على عدد المُتَرشِّحين، ثُمَّ إنَّها تتوزع ثانية على المجموعة التي تجاوزت الدور الأول، وفي الغالب يصل إلى المنصب المقصود من (لم ينتخِبه) أغلب المُنتَخِبين، ويتكرَّر هذا الأمر في مختلف الأشكال الانتخابية، ثمَّ يقال، وعن قناعة تامَّة،

بأنَّه وصل إلى منصبه بإرادة شعبية!

في الواقع، لا يملك الناس غير التسليم لهذه العملية (الانتخابية)، بل وأكثر من ذلك حالة الطرب والانتشاء التي تقترن بها، فالأجواء تبعث على مثل ذلك؛ حيثُ الصور التي تملأ الشوارع، والمهرجانات الخطابية، واللقاءات والتغطيات الإعلامية، وغيرها من ظروف تنافسية تجعل من الانتخابات متعة تُوصف بـ(العرس)، ولست في مقام الاستهزاء أو السخرية على الإطلاق، ولكِنَّ العملية الانتخابية تعتمد في بُعدٍ من أبعادها الثقافية تقنيات التعامل مع سايكولوجية الجماهير.

الانتخابات معتركٌ سياسيٌّ يفتح الأبواب أمام مسوِّغات كبرى تتقدَّم ما يوفِّر الأصوات بأي ثمن كان، ولستُ في مقام الاستطراد بشواهد وأدلة مقدورة بالتتبع للقارئ الفطِن، ولذلك فإنَّني أنتقل مباشرة إلى القول بعدم صلاحية الانتخابات بجميع أشكالها، وأعلم جيِّدًا بأنَّ الأمر في حاجة إلى زيادة بيان وبسط، ولكنَّني أحجم عن ذلك لمصلحة مناسبة قادمة إن شاء الله تعالى.

• إشكال:

عندما ترفض الدولة المدنية الممارسة السياسية للقومية والدينية، فهذا أمر طبيعي؛ إذ أنَّ القومي أيضًا إذا ما كان الحكم بيده، فإنَّه يحافظ على منظومته السياسية برفض التدخل السياسي المبني على أسس دينية أو (مدنية)، ومثله الديني.

الجواب: إذا كان الأمر كذلك، فلا مُرَجِّح لتقديم الدولة المدنية على غيرها، بل قد تُقدَّم غيرها بالمُرجِّح المفقود في حال ثبوته.

• ما هو نِظام الحكم المفترض؟

أطرح هنا نظريتين، أُولهما النظرية الإسلامية العامة، وأقول (العامة) فرارًا من التفصيل في قرابة العشر نظريات يتبنَّاها فُقهاء المدارس الاجتهادية الإسلامية، ومنها

حكومة الدولة المدنية المشار إليها، ولكن ببعض التعديلات، فمن أراد فليراجع بعض الكتب الفقهية المتخصصة في فقه السياسة وأنظمة الحكم.

وكيف كان، فإنَّ الإسلام يعطي الولاية المطلقة للفقه عن طريق الفقيه صاحب الولاية المطلقة، وبعضٌ لا يراها ممكنة في غير المعصوم عليه السلام، وبالتالي فهي تضيق بحسب ضيق ولاية الفقيه؛ وذلك لقصوره عن تحمُّل سعتها، ولكِن هناك من يراها في الولي الفقيه المعيَّن من مجلس خاص للخبراء القادرين على تعريف الأمَّة بالفقيه الأعرف والأعدل والأقدر على القيام بالأمر، وفي كلا الحالتين ليست الولاية للفقيه مستقلًّا عن الفقه، ولكِنَّها في الواقع للفقه من خلال الفقيه.

وينبغي الإطمئنان إلى أنَّ الفقه الإسلامي لا يستبدَّ بحكم على الإطلاق، ومثال ذلك عدم أخذه الزكاة من غير المسلم، وإن وجبت عليه؛ فهي لا تصح منه لانتفاء شرط القربة –كما يفيد بعض الفقهاء–، وهذا على خلاف الضرائب المفروضة في الدولة المدنيَّة على الجميع!

وليس ببعيد عن الأذهان الموقف السياسي لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مع من خرج عليه في صفين بمباني دينية فكرية يعلمُ هو بطلانها، هذا وهو الحاكم وله ثوابته في منظومة الحكم، ولكِنَّها لا تكون على حساب الإرادة الشعبية؛ إذ أنَّه لا معنى لفرض الحكم أيًّا كان ما لم تتوافق عليه الثقافة السياسيَّة العامة.

قد يقال:

إذا كان الأمر كما تقول، فإنَّه لن يستقيم حكم على الإطلاق.

أقول:

تسيطر فكرة توحش المجتمعات على الثقافة العامة وبشكل عميق جِدًّا، ولذلك فإنَّ قمع المخالف خيارٌ استراتيجي تدَّعى له العلمية وتكتب لمصلحته البحوث المسوِّغة،

ولكِنَّ الرؤية الإسلامية تقوم على محاربة الفتنة من جهة ورفض تجاوز الآخرين لأيِّ مصلحة كانت، كما وإنَّها ترى العقيدة محورًا لا يمكن التنكُّر إليه، فاليهودي -مثلًا- يهودي ومن حقِّه ممارسة يهوديَّته عباديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وغير ذلك.

يقول الإسلام ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنّ اللهّ يُحِبّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[1]، ويقول في قِمَّةٍ من قممه ﴿**الْيَوْمَ أُحِلّ لَكُمُ الطّيّبَاتُ وَطَعَامُ الّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ حِلّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلّ لّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنّ أُجُورَهُنّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[2]..

وقال عليٌّ عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «فإنَّهم صِنفان: إمَّا أخٌ لك في الدين، وإمَّا نظيرٌ لك في الخَلْق»[3]، وكلُّ الأمان لأهل الذمَّة مقابل جزية يدفعونها، وكذلك لأهل الصلح أو الهدنة، والغريب أنَّ دعاة الدولة المدنية يستهجنون الجزية ويستنكرونها، ولكِنَّهما يعدُّون الدفع لتأشيرة الدخول والإقامة (حضارة ومدنية)!

فالتعامل الإسلامي يقوم على احترام العقائد في إطار الدولة السياسية، وليس نفيها.

ترفض (النخب) السياسية أطروحة النظام الإسلامي، ويبرِّرون رفضهم ببعض النماذج المخزية، وكأنَّ الذي يدعون إليه تُبرِزه نماذج ناصعة البياض، والواقع أنَّه أشدُّ خزيًا وأكثر ظلامًا، وزيادة على ذلك فإنَّ النظام الإسلامي شوهه التطبيق، ولكِنَّ النظام المدني يعاني الكثير في أصل قوامه، وهذا ما يحتاج منَّا إلى تأمل ودِقَّة.

١- الآية ٨ من سورة الممتحنة

٢- الآية ٥ من سورة المائدة

٣- نهج البلاغة، الشريف الرضي، ج٣، عهده عليه السلام لمالك الأشتر (رضوان الله تعالى عليه)

وعلى أيَّة حال، فإنَّ الإسلام لا يفرض دولته لا بالقوة ولا بشيء غير القناعة، ولذلك، لا تقوم دولة الإسلام إلَّا من خلال إرادة شعبية حقيقية تطلق النواة وتروي التربة وترعى النبتة وتداري الثمرة، وما لم تتوفر على القناعة الشعبية الكافية، فإنَّها تكتفي بالفرد الواحد، وهنا الفرق بين العقلية الإسلامية الإيمانية، وبين غيرها.

ولكن، إن كان ولا بد من (المدنية)، فلتكن في طرحة (ديموقراطية حقيقية)..

قلنا في صدر المقال بأنَّ المجتمع يتشكَّل من تيَّارات تُكوِّنُها توجُّهات ثقافيَّة وفكريَّة وعقائديَّة، يبقى بعضُها شتاتًا لا يشغل أكثرَ من مساحات المجالس وبعض الأعمدة المقالية، ويتطوَّر بعضٌ آخر في تنظيمات تتدرَّج من مجرَّد التقاءات تؤطرها التواقعات الثقافية، إلى تيَّارات أكثر تنظيمًا، فأحزاب قد تكون رسميَّة مُعلنة، وقد تكون سرِّية متوارية.

ما أطرحه هنا، هو أن يُسجَّل الأفراد تسجيلًا رسميًا كل بحسب انتمائه، ومن ضمن الانتماءات جماعة (المستقلين)، ثم تقاس نسبة كل تيار أو حزب، ويُعطى مقاعد نيابية بحسبها، فيكون لكل توجُّه وجود واقعي في مجلس نيابي يمثل الشعب تمثيلًا حقيقيًا.

أمَّا الأفراد الذين يشكلون النسبة، فأمرهم راجع للجهة التي ينتمون إليها.

ومن جهة أخرى، فإنَّ التيارات والأحزاب تُلزَم باستعراض أدبياتها وأصولها الفكرية ونُظُمِها وخارطة أدائها بشكل دوري أمام جماهير الشعب، ثم تتاح الفرصة للانتقالات دون قيود على الإطلاق، وبهذا يكون التنافس فيما بينها تنافس ثقافي فكري بامتياز.

من خلال هذا التمثيل الواقعي يُصَاغُ نِظامُ الحُكمِ بعد تصدِّي المتخصصين لاستعراض مختلف الأنظمة وبشكل لا يتدخَّل فيه غيرُ العارفين بحيثيات كلِّ نظام ودقائقه، ومن هنا تنطلق الدولة ذات السيادة الشعبية الواقعية الواعية، ولن تحتاج في

مثل مقامها لغير متحدِّث عن مجلسها المنتخب، مستغنية عن منصب الرئاسة الذي تكون ولايته لها مطلقًا من ولاية الدستور المصاغ عن علم ومعرفة.

لا شكَّ ولا شبهة في أنَّ المقام لا يحتمل التفصيل، هذا والحال أن الموضوع ضخم كبير، غير أنَّني أكتفي بهذه الخطوط العامة، على أمل أن يوفقني المولى تبارك ذكره للكتابة المفصلة في مناسبة خاصة.

المقال
30

خِتَامٌ وانْطِلَاقٌ

سؤالان:

١- بأيِّ عينٍ وثقافةٍ ونَفْسِيَّةٍ ورُوحيَّةٍ نقرأ كتابَ الله المجيد وأحاديثَ المعصومين عليهم السلام؟

٢- هل نحن على الطريق الصحيح أو أنَّنا في حاجة إلى مراجعات عاجلة وجادَّة جِدًّا؟

لم أجد في الأطروحة الشيوعية بُعدًا إصلاحيًا ينطلق من الذات إلى الخارج، ولكِنَّ الذي وقفت عليه هو اتِّهام الوضع العام، والتَّوجُّه لتكسيره من أجل وضع جديد يتساوى فيه الجميع، ولأنَّنا نُدرِك تمامًا بأنَّ المعلول لن يتخلف عن علَّته، فالمتحصَّل هو العلم بحتميَّة تكرُّر الخلل مع كل وضع جديد تسعى النظريَّة الشيوعيَّة لخلقه، وبذلك فإنَّ الصراع لن ينتهي، ولن يتولد صراعٌ إلَّا من رحِمِ صِراعٍ غيره، ولن يكون هذا الغير إلى رحمًا لآخر، وهكذا يستمرُّ طحنُ الإنسان للإنسان باسم الحرية والسلام وإشاعة الأمن والأمان.

ثمَّ إنَّني لم أجد في النظرية الشيوعيَّة توجيهًا للتغيير بغير القوَّة ونشر ثقافتها، ومعها الترويج لاتهام من لا يتَّفق معها إمَّا بالعمالة أو التخاذل، فهي تحصر الحقَّ في رؤاها، وتوجه لتجاوز المخالف بالسحقِّ المعنوي تارة والمادي أخرى، وللقارئ الكريم مراجعة الحلقات السابقة للوقوف على ما أُلخِّصه هنا.

ملكَ الحِراكُ الشيوعيُّ شريحة من المجتمع العالمي من خلال فتح أبواب العلم والمعرفة أمامها في الدولة السوفيتيَّة السابقة، ودخل من خلالها ومن خلال التركيز على

المطبوعات والتأسيسات الحزبية إلى العمق المجتمعي في كثير من الدول، وخصوصًا دول الشرق، وعندما ظهر له الخطر الذي يواجهه على يد الديموقراطية الرأسمالية، وذلك منذ خمسينيات القرن المنصرم وحتى سبعينياته، فإنَّه اتَّخذ –في ما يبدو لي– قرارًا بالتراجع تراجعًا تكتيكيًا، يقترن بتقديم قوى شعبية أخرى بعد تغذيتها بثقافة القوة والانتزاع، ولم يكن ذلك التثقيف اقتحاميًّا أرعنًا، ولكِنَّه كان استراتيجيًّا مدروسًا، عمِل على اختزال الرؤى والنظريات الفكرية لتلك القوى الشعبية المجتمعية في نظرية القوة والانتزاع.

لا شكَّ ولا زيادة كلامٍ في أهمِّية القوة وضرورة التسلُّح، ولهذه المسألة البنائية مُصَدِّقات كثيرة في النص الشرعي، ولكِنَّه ليس من المقوِّمات للثَّقافة الإسلامية.

نعم، في الإسلام قِوامة للقوة على مستوى المفهوم الكلِّي ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾، ثُمَّ يذكر الداخل على الأصل، فيقول ﴿**وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾، وأمَّا الغاية فهي ﴿**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾، ولكِنَّ هذه الغاية متوقِّفة على تَحقُّق الكلمة التوافقية بين المؤمنين، وإلَّا فالقوة ورباط الخيل لا معنى لهما، وهذا ما يُفهم من قوله تعالى ﴿**وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾، فالتنازع وتراجع الصفاء الداخلي متبوع بالفشل وذهاب الريح لا محالة، وهذا الأخير يعني خِفَّة الوزن والاعتبار في أعين الآخرين.

ما أراه، هو أنَّ آية ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ**﴾ لها الحاكميَّة العلميَّة على ﴿**وَأَعِدُّواْ**﴾ ومثيلاتها، ثمَّ إنَّ التحقُّق يعني قيام الحِكمة في عقل المجتمع المؤمن ﴿**تُرْهِبُونَ**﴾، وليس كما في النظرية الشيوعيَّة، فتأمَّل جيِّدًا.

أجِدُني مدفوعًا مضطرًا للتصريح بأنَّني لا أنفي ضرورة التوفُّر على قوةٍ رادعةٍ قادرةٍ، فهذا عامل من عوامل القيام لأيِّ حضارة مدنيَّة عاقلة، وأُلفِتُ إلى أنَّ منشأ هذا الدفع والاضطرار هو تراجع القدرة على مخاطبة الكثير من العقليات المبنية على نظريات

القبضة والضرب وكسر العظم وطحنه وسحق الجماجم والانتزاع وما نحوها، فهي –كما أرى– تخشى كثيرًا من أيِّ دعوة للهدوء والدفع بالَّتي هي أحسن؛ والسبب أنَّ مبتنياتها أصبحت هويَّة عقائديَّة، ترى المساس بها مساسًا بالإسلام من رأس!

تُحمِّل النظريَّةُ الشيوعيَّة الإنسانَ فردًا ومجتمعًا كامل مسؤولية التغيير، وتجيز له كافة الوسائل مُبرَّرةً بالغاية، ولذلك فالعقلية القائمة على أسسها لا تتمكن من الخروج عن دائرة المعادلات الواضحة، ولا تجد لنفسها مفرًّا من إنكار كل مقدَّمة تفضي للنظر في معادلات خارجية، والمؤمنون وإن قامت عقيدتهم على حقيقة المعادلات الكامنة وراء الظهور الملحوظ، إلَّا أنَّ المتأثرين منهم بالنظرية الشيوعية يتعبَّدون بتأويل تلك المعادلات لمصلحة تحمُّل كامل مسؤولية التغيير، وهنا مكمنٌ من مكامن التعقيد في مشكلة بحث، ويزداد تعقيدًا عندما تكون الشهادة والحراك التقربي عناوين لتبرير نزعة الاندفاع والمواجهة.

أعتقد بأنَّ رؤى الكثير من المتصدِّين للتنظير من المسلمين وبمختلف مستوياتهم متأثِّرة في العمق بالطرحة الشيوعية، وأعتقد بأنَّ المزج الذي تمارسه تلك العقليات بين مسائل النظرية الشيوعية من جهة والنص الشرعي من جهة أخرى قد وصل إلى النخاع الثقافي والفكري، وقد كان نتاج ذلك انعطافة تاريخية في البعد عن معنويات الإسلام وعلميَّته التي كان من المنتظر أن تكون راية الدعوة الأوحدية إلى الحركة التغييرية الإلهية على يد الإمام القائد المهدي المنتظر (أرواحنا فداه).

أدعو في ختام هذه السلسلة إلى وقفة مراجعة واعية، ولست أنتظر موافقة أو معارضة، ففي نهاية المطاف ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾، ووظيفة كل واحد منَّا التقدم بطرح ما يحمل من فكر مع تجنُّب الإساءة للآخر، وهذا ما تحرَّيتُ إصابته على مدى ثلاثين حلقة، وهي حلقات قصدتُّها مفاتيح يستفيدها القارئ في مشوار بحثه، فمقام المقالات لا يناسبه الإسهاب والتفصيل، ولعلَّ الله جلَّ ذكره يوفقني لكتابة بحث

وكيف كان، فهذه عناوين موزَّعة بين يدي القارئ، ورجائي أن أكون قد وفِّقت لإثارة شيء من دفائن العقول ولمعات النظر، ويبقى أنَّ:

نَقْدُ الثقَافَةِ أَكْثَرُ مشَقَّةً مِنْ نَحْتِ الجِبالِ قُصُورًا للسَلَاطِين..

السيد محمد علي العلوي

تاريخ الانتهاء من نشر المقالات على شبكة الانترنت:

٤ شعبان ١٤٣٦ هجرية

٢٣ مايو ٢٠١٥ ميلادية

الفهرس

الإهداء ٥

المرحلة الأولى
مرحلة البيان التشيوعي

المقال الأوَّل: مقدَّمة ٧
المقال الثاني: الرؤية ٥٧
المقال الثالث: محوريَّة (التبصُّر) الشيوعي، ونظريَّة (حكم الشعب) ٦٣
المقال الرابع: «الشعارات الشيوعية ونظرية إلغاء العائلة» ٦٧
المقال الخامس: «النظرة الشيوعية للعائلة والروابط الاجتماعية» ٧١
المقال السادس: «الوجود الشيوعي في عمق التحولات الثقافية» ٧٥
المقال السابع: «سيادة البروليتاريا» ٨١
المقال الثامن: «البيان الشيوعي ومنهجية الحصر» ٨٥
المقال التاسع: «بين (الثورة) والسلمية» ٨٩

المرحلة الثانية
مرحلة تفكيك المفاهيم الشيوعية

المقال العاشر: «مناقشات وردود (١) / طبيعة الصراع» ٩٣
المقال الحادي عشر: «مناقشات وردود (٢)/ مفهوم الطبقية» ٩٧
المقال الثاني عشر: «مناقشات وردود (٣) / مشكلة الاستبداد» ١٠٣
المقال الثالث عشر: «مناقشات وردود (٤) / العقل والتطور والمادة» ١٠٩
المقال الرابع عشر: «مناقشات وردود (٥) / الصراع ورفع الحاجة النفسيَّة» ١١٥
المقال الخامس عشر: «مناقشات وردود (٦) / التنظيماتُ الحُقوقِيَّةُ والنقَابِيَّة» ٣٢١
المقال السادس عشر: «مناقشات وردود (٧) / الديالكتيك، سعةً وضيقًا» ١٣١
المقال السابع عشر: «مناقشات وردود (٨)/ دكتاتورية البروليتاريا، والدكتاتورية الاستبدادية» ٧٣١
المقال الثامن عشر: «مناقشات وردود (٩) / استراتيجيَّة العمل البرمجي السرِّي» ٥٤١
المقال التاسع عشر: «مناقشات وردود (١٠)/ البعد (الواقعي) في النظرية الشيوعيَّة» ١٥١

المرحلة الثالثة
مرحلة التركيب

المقال العشرون:
«رُوى من القرآن والعترة (١) الطبيعة الإنسانية في الوجود البشري - ١» ٧٥١
المقال الحادي العشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٢)/ الإسلَامُ، والطبقيَّة» ١٦١
المقال الثاني والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٣) / الإسلَامُ، ومسألة العنف» ٧٦١
المقال الثالث والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٤) / رُؤيَةٌ في الماهيَّات» ٩٧١

المقال الرابع والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٥) / محورية وجود المعصوم عليه السلام في اتخاذ القرار»..... ٥٨١
المقال الخامس والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٦)
محورية وجود المعصوم عليه السلام في اتخاذ القرار.. إشكال وجواب» ١٩١
المقال السادس والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٧) ١٩٧
محورية وجود المعصوم عليه السلام في اتخاذ القرار.. بالبناء على ما مرَّ» ١٩٧
المقال السابع والعشرون :
«رُؤى من القرآن والعترة (٨)/ سلوك الوصاية ٢٠٩
المقال الثامن والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (٩) / أطروحة التوافق -١-»..... ٢١٣
المقال التاسع والعشرون:
«رُؤى من القرآن والعترة (١٠)/ أطروحة التوافق -٢-»..... ٢١٧
المقال الثلاثون:
خِتَامٌ وانْطِلَاقٌ..... ٢٢٥

هذا الكتاب

يعتمد هضمُ موضوع الكتاب، على قراءة البيان واستيعاب مفرداته وفكرته العامّة، وقد يستدعي هذا الأمر قراءته لأكثر من مرَّة، إضافة إلى شيء من التتبع لمفصليَّاته، وهذا متروكٌ لهمَّة القارئ ومدى عزمه وإيجابيته في فهم موضوع الكتاب كما هو، ودون إسقاطات تستند إلى الماورائيات والمسبقات.

ولكنَّ هذا لا يعني عدم اعتمادي في بعض مراحل النظر على أُسسي الثقافية وثوابتي الفكرية كمسلم شيعي إثني عشري؛ فالصدق مع القارئ الكريم فرع الصدق مع النفس.

وعلى أيَّة حال، فقد رتَّبت طرح الأفكار في ثلاث مراحل:

مرحلة البيان الشيوعي:

وفي هذه المرحلة عمدتُ إلى تسليط الضوء على العمق الأدبي في النظرية الشيوعية، وقد حاولت ما استطعت تجنب التعليقات الخاصة أو ما شابه، مكتفيًا بالتوضيح على طريق الانتهاء في هذه المرحلة إلى صورة واضحة عن الخطوط العامة للطرحة الشيوعية.

مرحلة تفكيك المفاهيم الشيوعية:

وكان شغلي في هذه المرحلة على تحليل الرؤى الشيوعية ومناقشتها بما يناسب المقام.

مرحلة التركيب:

وفيها ركزتُ على معالجة موضوع المقالات بإعمال الفكر في النصوص الشرعية من الثقلين المقدَّسين (القرآن والعترة).

إخراج وتصميم: الكليم جرافكس
+973 36778827
mohd.he@gmail.com